جمال البنا

الإسلام والعقلانية

المحتويات

مقدمة

يميل كثير من الكتاب المعاصرين للتقليل من أثر وقيمة الدين في الحياة الحديثة، ويؤثرون بالأولوية قضايا مثل "التكنولوجيا" و"الفنون" و"السياسات الدولية والداخلية" و"المشاكل الاقتصادية والمادية". فهذا هو ما يدور عليه المجتمع وما يشغل حياة الناس وحاضرهم ومستقبلهم.. أما الدين فيأتي بعد هذا كله، ومن باب "جبر الخواطر" أو باعتباره ممثلاً للتراث ورمزه الخاص الذي كان مجيدًا في إحدى الفترات.

وإذا كان بعض الكتاب "يميلون" هذا الميل تأثرًا منهم بالثقافة الأوربية، فالحقيقة أن هناك آخرين وجدوا أنفسهم وهم يقفون هذا الموقف لا عن ميل أو اختيار، ولكن بحكم التيار الكاسح، والسياق المحموم للحياة الحديثة التي لم تدع لهم مندوحة.. إن التقدم التكنولوجي في الصناعة وتعقد الحياة الحديثة ومطالبها المادية والمستجدات فيها من إرسال تليفزيوني، وتزايد المطالب عن الإمكانيات، وتفتح وسائل عديدة للاستمتاع ولإرواء ما تشتهيه الأنفس، كل هذا لم يترك لأي شيء آخر، بما في ذلك الدين، إلا وقتًا ضئيلاً، واهتمامًا هامشيًا.

إن أسوأ ما اصطحب هذه الظاهرة الزعم أن الدين لا مكان له فيها، لأن الدين هو، على سبيل التعيين، الوحيد الذي يمكن أن يجابه مشكلة الانطلاق غير المحدود للحياة الحديثة فيفل غربها ويكبح جماحها. إنه وحده الترياق الذي يمكن أن يشفي المجتمع الحديث، بورجوازيًا واشتراكيًا، من دائه العضال. وأي محاولة للإصلاح عن غير طريقه. ستكون من نوع "وداوني بالتي كانت هي الداء" لا يمكن أن تفي بالمطلوب، فبالإضافة إلى أنها ليست وقائية – فإن مدى كفايتها في العلاج مشكوك فيه. وهي تعجز عن أن توقف فسوق الحضارة الحديثة وغلوائها وانطلاقها حتى تبلغ شفا الهاوية.

فالنظر نظرة عقلانية – يتطلب تدخل الدين لأنه لا يمكن العلاج علاجًا حاسمًا دونه.. وهو كلام يصدق على المجتمع الغربي، كما يصدق على المجتمع الشرقي، مع أهمية خاصة يكتسبها في المجتمع العربي نتيجة لتأصل الدين وتغلغله في أعماق هذا المجتمع، من الديانة المصرية القديمة حتى الإسلام، بحيث نجد رجلاً مثل طه حسين لا يمكن القول بأنه من أنصار الدين بوجه خاص، بل إنه "بطل أبطال التنوير" كما يقولون يرفض الرأسمالية والاشتراكية، ويتحدث عن المذهبين "الرأسمالي الذي يقول أصحابه إنه يقوم على أساس الاحترام الكامل للحرية، والشيوعي الذي يقول أصحابه إنه يستهدف قيام العدل وصيانته" فلا يرضى بالمذهب الأول والثاني، وإنما يقول: "إذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يوائم بين الحرية والعدل من جهة، وبين الدين من جهة أخرى، ويتخذ من الدين أساسًا لحياة إنسانية جديدة ترتفع فوق المادة، وترقى إلى المثل العليا، وتؤمن بأن الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر، ولا تنتج للإنسان حظه من الرقي إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسي الأول عن طريق الإيمان والثقة والأمل، أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان في نشوئه الخير كل الخير لأنه يعصم الإنسان من المادية الجامحة.. ويكفل له في الوقت نفسه نصيبًا معتدلاً من الحرية، ويتيح له في الوقت نفسه سعيًا متصلاً لتحقيق العدل في الأرض" [(1)].

هذه كلمة كان لا بد أن نشير إليها أولاً، لكي نضع الدين موضعه، ونأخذ أمره مأخذاً جادًا ونؤمن بمنزلته في المجتمع. فإذا سلمنا بذلك، فلا بد أن نتطرق إلى موضوع هذا الكتاب، إلا وهو موقف الإسلام من "العقلانية" وتأييده للنظر العقلي الذي لا تقوم الحياة الرشيدة إلا عليه، والذي لعله هو الذي عناه عندما أطلق على ما قبله "عصر الجاهلية" وعندما استهدف أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور. وقد عني الكتاب بتفنيد تلك القالة الظالمة: دعوى مخالفة الإسلام للعقلانية، وإن من الخير

[1] **(1) انظر مقالا بقلم الدكتور محمد حسن الزيات بعنوان "طه حسين والمذهب الثالث. التوفيق بين الحرية والعدل، وبين الدين" الجمهورية 16/11/89.**

إبعاده عن كل شئون الدنيا، وقصره على العبادة، وصلة الفرد بالله، وحصره في "المسجد". وقد بين الكتاب أن هذه الفكرة إنما جاءت من موقف الكنيسة الأوربية من النزعة العلمية التي ظهرت فيها، وأنه قد يكون لها ما يبررها من هذا الإرث القديم، أو حتى من طبيعة المسيحية نفسها. التي ترى أن مهمتها هي تخليص الروح، ولكن ليس لها ما يبررها بالنسبة للإسلام، إلا تأثر لفيف من المفكرين الإسلاميين بالحضارة الأوربية تأثرًا ملك ألبابهم، وغلب على ملكة النقد والتمييز فيهم.

ولكي يعرض الكتاب كل أبعاد القضية فإنه عالج جوانب مثل الموقف ما بين النقل والعقل.. وأثر القلوب التي جعلها القرآن أوعية الإيمان على العقلانية. ثم جابه القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان، ألا وهي وجود الله تعالى وتنزيهه، وخلود الروح بعد الموت والحساب: ثوابًا أو عقابًا في الدار الآخرة في جنة أو نار، وأخيرًا النبوات ودور الوحي فيها. فناقشها مناقشة مستفيضة دون أن يسمح للجزئيات بأن تحجب الكليات واستشهد بآراء المفكرين والعلماء الأوربيين قاصدًا بذلك أن يقنع بعض الذين لا يقتنعون إلا بما يصدره الغرب. وأخيرًا فإنه يعرض خصائص ومقومات العقلانية الإسلامية، ألا وهي:

إعمال الفكر سبيل الإيمان.

الموضوعية والسنن.

الخيرية والصلاح..

***

ولا يعنينا في هذه المقدمة أن نعرض لأبواب وفصول الكتاب، فهذا أمر يطول، وهو بعد بين دفتي الكتاب يمكن للقارئ أن يلم بها بتصفحه، ولكن ما يعنينا هنا هو أن نشير إلى تساؤل نعلم أنه سيخطر لمعظم القراء. إن الكتاب بأسلوبه وطريقة معالجته يختلف عن الطريقة التقليدية الاتباعية، وعن الأسلوب الذي مرن الإسلاميون عليه، وألفوه، وهو شيء يضيق به هؤلاء القراء الأعزاء من ناحية الفهم، ومن ناحية المزاج، ولعلهم كانوا يؤثرون أن يكون ككل الكتب التقليدية التي تزخر بها المكتبة الإسلامية. لهؤلاء نقول: كفى اجترارًا وكفى عكوفًا على ما كتبه الأقدمون. فإن الأقدمين لم يحيطوا بما يكتنف الحياة والعصر، وما قيمة كتاب لا يأتي بجديد يضاف إلى بقية الكتب، لقد آن للإسلاميين أن يتخلصوا من هذه العادة، وأن يشكروا من يساعدهم على ذلك بدلاً من أن يضيقوا به. "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه" ولكنها الحقيقة التي لا يجوز التفريط فيها وتجاهلها.

ولعلي لم أكن سعيدًا بوجه خاص بتعبير "العقلانية" ولكن اللفظ اكتسب شهرة وأصبح له دلالة اصطلاحية هي التي نعنيها، فتعين الأخذ به. والألفاظ بعد، خدم للمعاني وبقدر ما تؤدي المعنى، بقدر ما يفترض الأخذ بها، لأن الأخذ بغيرها سيكون على حساب المعنى المنشود.

وأخيرًا فلعل أفضل ما نختم به هذه المقدمة الموجزة عن الإسلام والعقلانية، هي تلك الآية التي رفعت العلم عاليًا عندما جعلته المنة الإلهية العظمى:

 لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ164 آل عمران.

جمال البنا

رجب 1411/ يناير 1991

الباب الأول
علاقة الإسلام بالعقلانية

الفصل الأول: الإسلام يؤذن بالعقل

الفصل الثاني: بين العقل والنقل

الفصل الثالث: أثر القلب على العقل

يعالج هذا الباب علاقة الإسلام بالعقلانية فيثبت أن الإسلام آذن بالعقل لعوامل خاصة تميز بها عن بقية الأديان التي لم تكن لتتسق ضرورة مع العقلانية – على طول الخط... وأبرز هذه العوامل:

الصورة غير اللاهوتية لله تعالى التي تثبت وجوده وصفاته، وإن لم تدرك ذاته وكنهه.

أن المعجزة التي تقدم بها الإسلام كانت "كتابًا" ينقذ الناس من الظلمات إلى النور، من الجهل إلى العلم، وليست معجزات مادية كالتي وجدت في الأديان السابقة.

وأخيرًا عدم وجود "المؤسسة الدينية" التي تحتكر التأويل والتفسير، وتجمد عليه تبعًا لمصالحها المكتسبة كما وقع من أحبار اليهود، وأكليروس المسيحية.

ويناقش الباب في فصله الثاني قضية العقل والنقل، ويوضح أنها في جذورها قضية كنسية – أوربية. وأن الإسلام لا ينكر أبدًا العقل، بل يعترف به، ويجعله أصلاً للإيمان وشرطًا للتكليف. ثم يعرض لتجربة الفكر الإسلامي مع الفلسفة اليونانية، وأن عدم توفيقها دفع الفكر الإسلامي إلى الحديث والتصوف، ومن ثم بدأت تظهر فجوة بين النقل والعقل ويحدد الفصل مناطق الاختصاص السليمة، وأن هناك منطقة يعجز العقل البشري عن التغلغل فيها، هي ما يتعلق بذات الله تعالى وبعالم ما وراء الموت.

ويختم الباب بفصل عن أثر القلب على العقل، يكشف فيه عن سر القلوب التي "تفقه" بتعبير القرآن الكريم، ومدى أثرها على خلوص العقلانية وأن العقل وحده والمنطق المجرد لا يتوصل إلى منجزات العلوم ما لم يكن وراءهما إيمان له طبيعة تختلف عن طبيعة العقل، ويعرض أقوال عدد من أبرز علماء الطبيعة، وبوجه خاص "بلانك" صاحب نظرية "الكوانتم" وأينشتين صاحب نظرية "النسبية".

الفصل الأول
الإسلام يُؤْذِن بالعقل

ليس من العسير على الباحث المحقق أن يتبين وجود خط رئيسي يفصل بين ما قبل الإسلام.. وما بعد الإسلام، وهذا الخط في عالم الأديان يشبه تلك الخطوط الفاصلة في تاريخ الحضارة الإنسانية، كالخط الذي آذن بحضارة المصريين القدماء، فالخط الذي بدأ الحضارة اليونانية، فخط ظهور روما والحضارة الرومانية، وأخيرًا الخط الذي اقترن بدعوة "الرينسانس" في القرن الخامس عشر، ووضع بذرة الحضارة الأوربية التي آتت أكلها في القرون الخمسة التالية لها. ففي كل هذه الحالات نجد خطاً يؤذن "بنقلة" حضارية تقدم إضافتها للبشرية. فالعالم قبل أن يقدم المصريون أوليات الحضارة من حروف وورق وعمارة ودين شيء، وبعد أن قدمها المصريون شيئًا آخر، وعندما تحللت الحضارة المصرية القديمة ظهر اليونانيون وقدموا إضافاتهم المبدعة في الفلسفة والعلوم، ولما دالت دولتهم برز الرومان وأصبحت "كل الطرق تؤدي إلى روما" وهيمن الرومان حينًا حتى شاخت حضارتهم وأطبقت عليها ظلمات القرون الوسطى لينبثق أول شعاع في دعوة "الأحياء" في الدويلات الإيطالية ووضع بذرة الحضارة الأوربية المعاصرة.

***

الأمر كذلك في عالم الأديان.

فهناك خط فاصل يميز الدين قبل الإسلام عنه بعد الإسلام.

قبل الإسلام كانت الآلهة محلية ومجسمة. وكانت صورة الله ترتبط بخصائص المحلية وتتقمص أبرز الكائنات في كل دولة. فنجد في مصر الثور. والقطط. وقرص الشمس، وفي اليونان نجد الآلهة ناسًا كالبشر لهم نزوات البشر، ولكن لديهم قدرات الآلهة، وكان تزاوج الآلهة بالناس وتناسلهم أمرًا مقررًا ومألوفًا. وعنه صدرت أبرز صور "الثالوث" القديمة وكان بعض آلهة اليونان يتقمص شكلاً بشريًا ليتصل بامرأة جميلة، وكان يمكن لابن هذه المرأة أن يكون "نصف إله" إلخ ما تفيض به الميثولوجيا اليونانية أو التاريخ المصري القديم.

وحتى اليهودية فإنها تأثرت بطابع المحلية، فجعلت إلهها إله بني إسرائيل خاصًا دون الأمم. وإذا كانت المسيحية في فترة ازدهارها قد جاوزت نطاق المحلية، فذلك لأنها خلصت من التأثر بنظم دولة معينة، ولأنها هاجرت من مهبط رسالتها، ولأن محورها "المحبة" والرحمة وتخليص الروح بالبشارة والإيمان. وهي مشاعر إنسانية. على أنه عندما رفع الإمبراطور قسطنطين الصليب على أسنة الرماح أخذت المسيحية طابعًا أوربيًا، وتركزت في روما، وفي الوقت نفسه فإن صورة "الله" التي بشر بها المسيح نفسه واتسمت بالبساطة نسخت بالصورة التي وضعها القديس بول اليوناني الروماني والتي كانت نوعًا من الإسقاط الهليني على المسيحية بحيث أصبح المسيح مزيجًا من بروميثيوس الذي سرق سر النار وقدمه للبشرية، فأوقع به كبير الآلهة زيوس عقابًا مروعًا، ومن التطوير الهليني للديانة المصرية طوال عهد البطالمة وأخذت فيها شكل "ثالوث إلهي".

***

وأهم من ذلك أن الأديان اصطحبت بالمعجزات واعتمدت عليها في اكتساب إيمان المؤمنين فكان لموسى معجزاته التي نقرأ عنها في التوراة، وكان للمسيح معجزاته التي نقرأ عنها في الأناجيل، بل إن هذه المعجزات لم تقتصر على الرسول المؤسس للديانة، ولكنها امتدت إلى أتباعه كالحواريين المسيحيين، وبقية أنبياء بني إسرائيل بحيث اعتبر أن المعجزة الحسية سواء كانت إحياء للموتى أو شفاء للمرضى أو غير ذلك من الخوارق جزءًا لا يتجزأ من الدين، وسبيلاً إلى التصديق به.

***

ونلحظ كذلك اقتران الأديان بالمؤسسة الدينية: كالمعبد الفرعوني وكهنته والهيكل اليهودي وأحباره والكنيسة المسيحية وأكليروسها. ولم يكن يتصور أن تستغني هذه الأديان عن "المعبد" أو عن السدنة كان اعتمدت عليها في إكتساب إيمان المؤمنين فكان لموسى معج فأوقع به كبير الآلهة زيوس عقاباً مروعاًلأن شئون الدين كانت من الطقوسية والكهنوتية والتعقيد بحيث يفترض وجود هذه الواسطة بين عامة الناس وبين الدين بأسراره وطقوسه.. إلخ. فضلاً عن أن وجود هذا التركيب كان مريحًا للجميع فالكهنة كان من مصلحتهم قيامه لأنه يعطيهم صفة الوساطة بين الناس والله والقوامة على شئون المعابد، وما يوقف عليها أو يخصص لها من أموال.. إلخ. وعامة الناس رأت في مواكب الكهنة وطقوسها ما يتجاوب مع فكرهم عن منزلة الدين وعجزهم عن تصور الإله المجرد والمطلق. أما الملوك والحكام فإنهم عقدوا صفقة مع الكهان والأكليروس للهيمنة على الجماهير والناس، ولم يكن يضيرهم أن ينزلوا عن جزء من ثرواتهم أو اختصاصاتهم لهؤلاء الكهنة لأنهم يستطيعون التأثير على الناس بما لا يستطيعون هم.

واستقرت هذه الصورة في أذهان المفكرين ودارسي الأديان، وكانت من أكبر الأسباب التي دفعتهم إلى إصدار أحكامهم القاسية على الدين. كما كان من شأنها أن تبعد الدين عن "العقل" لأن صورة الله لاهوتية معقدة، ولأن الإيمان يقوم على معجزة، ولأن المؤسسة الدينية تحتكر الدين وتحول دون أي محاولة للتطرق إليه أو إعمال العقل فيه.

وظلت هذه المقومات الثلاث، وأعني بها: الصورة المعينة للألوهية، واعتماد الدين على المعجزات والخوارق أول مرة لاكتساب الإيمان، ووجود المؤسسة الدينية بشقيها: الهيكل والسدنة. تصطحب في أذهان المفكرين بمعنى الدين، بحيث اعتبرت مكونات أصيلة للدين لا يتصور دين بدونها. وكان هذا التصور في أصل الأحكام القاسية التي صدرت على الأديان من المفكرين والفلاسفة "والعقلانيين".

***

اختلفت الصورة تمامًا مع ظهور الإسلام:

كان الإسلام ثورة جذرية في عالم الأديان قضت على المقومات الثلاثة التي اعتبرت هي مكونات الدين:

الفكرة اللاهوتية الغامضة، أو المجسمة أو المحدودة لله تعالى.

قيام الإيمان على أساس معجزة.

وجود "المؤسسة" الدينية التي تحتكر التأويل والتفسير، وتملك سلطة التحريم والتحليل والحكم على المعارضين وظهور "المصالح المكتسبة".

وكان الناس الذين ألفوا حتى ذلك الوقت أن يأتي كل دين بمعجزة تحمل الناس على الإيمان حملاً، يطالبون الرسول بهذه المعجزة ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام 37

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء 90 – 93)

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (الرعد 27)

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا* أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان 7 -8)

أمام هذه المطالبات بالآيات والمعجزات يرد رسول الله بقوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

وهو موقف يختلف عن موقف عيسى عندما دعا الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المائدة 114)

نعم إن مؤرخي السيرة يذكرون معجزات عديدة للرسول، ولكن لم يرد نص واحد عن إيمان بالإسلام بحكم معجزة. والصورة التي تتكرر هي الرسول يقرأ القرآن فيؤمن الناس.. والقرآن نفسه صريح في هذا كما هو واضح من الآية 51 سورة العنكبوت وقالوا ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولعائشة رضي الله عنها كلمة جميلة قدر ما هي عميقة "فتحت المدينة بالقرآن" وقد كان هذا الفتح الذي قاده قارئ هو الفتح الأعظم، وهو الذي كسب المدينة للإسلام وأرسى فيها جذوره.. فمعركة الكلمة سبقت معركة السيف. إذ لو لم يكسب القرآن المدينة لما كانت غزوة بدر.. وما تلاها..

إن اليد العظمى للإسلام على البشرية أنه استنقذ الإيمان من قبضة المعجزات عندما جعل الوسيلة إليه كتابًا. وبعد أن كانت المعجزات هي التي تصنع الإيمان أصبح الإيمان هو الذي يصنع المعجزات. وبعد أن كان النهج المقرر في الأديان أن يخضع العقل للنقل، أصبح النقل يخضع للعقل. وفي تلك اللحظة الفريدة في التاريخ: لحظة نزول جبريل برسالة "اقرأ". حدث تلاق ما بين الإسلام والفكر. وانقدحت الحياة في الإسلام كدعوة تقوم على الفكر، لأنه ما دامت معجزته "كتاب يتلى" فلا بد من وجود صلة وثيقة، بينه وبين عالم الفكر.

وهكذا انتفت المعجزة كمبرر للإيمان، بل وجعلت كتابًا وكان هذا في سلبه وإيجابه خطوة كبرى على طريق العقل...

***

وخلصت الصورة التي قدمها الإسلام للألوهية من التجسيم الوثني والتعقيد اللاهوتي والافتراض الفلسفي (كما لدى أفلاطون وأرسطو) وليس معنى هذا أنها أصبحت مسألة حسابية مثل 1 + 1 = 2، لا يتطلب إدراكها عناء. إذ جعلها الإسلام كالمثل الأعلى الذي تصوره الفلاسفة. ولكن بعد إضفاء الحياة والإرادة والكمال عليه. وكان هذا أمرًا تتقبله العقول حتى وإن لم تستطع إثباته بأدلة حسابية أو براهين حسية لأن الصورة التي قدمها لا يمكن أن تنكرها العقول فهل يُتصور مثلاً إله يخلق دون أن يكون هو نفسه حيًا.
أو يهدي إلى الكمال دون أن يكون هو نفسه الكمال. إن الإختلاف في التصوير الإسلامي لله تعالى عن التصوير المسيحي أن المسيحية تأثرت بفكرة الثالوث المصري الذي كان موجودًا في الديانة المصرية القديمة وروج له البطالمة الذين كانوا يونانيين يحملون رواسب الهلينية والأولمب، حيث يكون بعض الناس آلهة وبعض الآلهة ناسًا. وفي هذه الفترة بالذات ظهرت المسيحية وتأثرت بها على يدي "بول" اليوناني الروماني خصم المسيحية أولاً ثم قديسها وبانيها ثانيًا، فاصطنعت ثالوثًا يعود إلى أصول مصرية، هلينية، وإساغة هذا الثالوث وتفهمه أمر يصعب على العقل البشري للخلط ما بين عناصر الطبيعة البشرية وعناصر الطبيعة الإلهية خاصة عندما تتولى الكنيسة الشرح فلا تزيد الأمر إلا تعقيدًا.

أما في حالة الإسلام فإن الأمر لا يكون عدم الاستساغة، ولكن قصور العقل البشري عن سبر غور الألوهية، أو كنهها، أو ماهيتها. لأنها الأصل والمصدر والغاية التي لا غاية وراءها والمثل الأعلى الأعظم المطلق الذي لا تلحقه أي صفة من صفاتنا المحدودة.

وهذا التصوير حتى وإن لم يحط العقل بأعماقه وأطرافه، فليس فيه ما يرفضه العقل. بل هو ما يوجبه العقل. وإن لم يصل إلى كنهه وسره، فالعقل يلمس جانب

الحق فيه. وواجب وجوده، وضرورة كماله. ولكنه لا يلم بالكنه أو الماهية. وجاء النظم القرآني المعجز فعرض صورة للألوهية دون تعسف أو تكلف بحيث تتشربها النفوس وتطمئن إليها وتستلهم منها معاني الحرية والرحمة والحق والعدل والجمال. وهو ما يتضح عند مقارنته بالأسلوب الفلسفي اليوناني المعقد في إثبات وجود الله.

وهكذا حل الإسلام تلك القضية الصعبة الحساسة حلاً مثاليًا فعرض الصورة التي تستسيغها العقول لله تعالى كأفضل ما تصوره الفلاسفة في المثل الأعلى زائدًا عليه الحياة والقدرة والإرادة والكمال. وفي الوقت نفسه فإنه لم يجعله "معلومة" تفهم فهمًا يقضي عليها.. لا، إن الإيمان بالغيب فيما يتعلق بصفات الله وذاته.. وعالم السمعيات هو مما لا يمكن للعلم الإنساني أن يدركه، وعدم إدراك الإنسان له يطلق روح الاستشراف والاستطلاع والشوق والقربى.. لنتلمس في تقوى وبكل تواضع شعاعًا من أشعة شمس الألوهية بين سطور القرآن الملهمة.

وبهذا وجد القدر المطلوب من المعلوم، والقدر المطلوب من المجهول الذي لا يناقض العقل ولكن يُبقي على روح الاستطلاع والاستشراف. ووجدت الوسيلة للانتقال من المعلوم إلى المجهول في القرآن الكريم ومطالعته.

***

ولم يعد الإسلام في حاجة إلى إقامة "مؤسسة" أو تنصيب "رجال دين" أو احتكار التفسير والتأويل، وجعل العلاقة بين الفرد والله مباشرة دون واسطة، بل لقد حارب الإسلام سلطة الأحبار والرهبان ورأى أن قيامهم بالتحليل والتحريم شرك. ورفض فكرة التوسل والشفاعة وأن يكون لأحد ما سلطة أن يقرب الآخرين إلى الله زلفى، وتتبع هدمًا وتدميرًا كل ما يمكن أن يذكر بالوثنية من تماثيل أو نصب أو قبور مشيدة. فالإسلام كان في حقيقته هدمًا شاملاً لفكرة "المؤسسة الدينية".

وكان مما يتفق مع هذا ألا يكون بيت العبادة "كنيسة" لها تقاليد، لا يمكن أن يقربها إلا أحد أفراد الأكليروس المؤهلين، لأن ممارسة العبادة لها طقوس وأساليب وأسرار لا يستطيع أي واحد الإلمام بها. ولكن لا بد أن يتعلمها في مدارس تتبع الكنيسة، ولا بد أن تعتمدها سلطات الكنيسة الأدنى، فالأعلى. ولا يقف الأمر عند هذا، بل يقوم هرم ممرد قاعدته الشمامسة والقسس في القرى وقمته "البابا" في روما، الذي يسيطر على العالم المسيحي، والذي يتوج الملوك، والذي يصدر المراسيم الملزمة لأنه رأس الكنيسة وحامل مفاتيح السماء، والذي يملك الحرمان" وهو نوع من الموت الروحي، وكانت العادة عند إعلانه أن توقد الشموع وتدق النواقيس حتى يتلى أمر الحرمان. وما إن يتلى حتى تطفأ الأنوار وتقف الأجراس إشارة إلى الموت الروحي لمن وقع عليه الحرمان، ووصل هذا الحرمان إلى الدرجة التي نالت أقوى الأباطرة عندما اضطر الإمبراطور هنري الرابع إلى اللواذ بمقر البابا في كانوسا 1077 والوقوف على بابه ثلاثة أيام حافيًا حتى تنازل البابا وعفا عنه. وأصبح "الذهاب إلى كانوسا" مثالاً لأسوأ صور الخضوع والإذعان.

المسجد الإسلامي يختلف تمامًا عن الكنيسة، فالأرض كلها مسجد طهور ولا يشترط لبنائه شروط معينة، والشيء الوحيد الذي قد يميزه وهو المنبر ليس إلا ثلاث درجات خشبية يقوم عليها الإمام حتى يراه المصلون فلا تحجبه الصفوف الأولى عن الأخيرة. وكل واحد يمكن أن يكون إماما مادام يحفظ بعض سور القرآن، ولا تكون له قبل الإمامة أو بعدها سلطة، ولما كانت الصلوات خمس فيغلب أن يؤديها الناس في بيوتهم أو أعمالهم. ومنظر القروي المصري الذي يصلي على ساحل النيل، والأعرابي الذي يركع ويسجد وسط الصحراء من المناظر التي لا يمكن أن تتكرر في الأديان الأخرى.

***

وهكذا قضى الإسلام على المقومات التي اصطحبت بالأديان السابقة عليه. وكانت في أصل مقاومتها للفكر والعقل أو على الأقل عزوفها عنه. وأصبح الإسلام دينًا مفتوحًا، لا يرفض فكرًا، ولا يرفضه فكر، كان نقلة من الظلمات – أي الجهل – إلى

النور – أي العلم. وهو التفسير لكلمتي الظلمات والنور الذي ارتآه الغزالي في كتابه "ميزان العمل".

كان إيذانًا بأن البشرية بلغت سن الرشد.

***

قد يقول قائل لماذا تجعل الإسلام إيذانًا بالعقل، ولا تجعل الفلسفة اليونانية في عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو هذا الإيذان؟. لا جدال أن ظهور الفلسفة في اليونان في هذا الوقت يمكن أن يعد إيذانًا بعهد العقل.. لكن لأثينا وحدها وليس للبشرية كلها. إن الإسلام قد حمل دعوة "الكتاب والميزان" إلى الجماهير وتوجه بهما نحو شعوب كسرى وقيصر المستعبدة فأنقذها من الظلمات إلى النور. ولكن فلسفة أثينا كانت مقصورة عليها. بل كانت مقصورة على الأحرار الذكور دون الإناث والرقيق.. وعندما أسس البطالمة مكتبة الإسكندرية امتدادًا لفلسفة أثينا فإنها كانت يونانية خالصة، وحرم على أهل الإسكندرية الوطنيين المصريين وهم أصحاب البلاد الاقتراب منها، وأخيرًا فإن الفلسفة اليونانية لم تتنكر تمامًا لعالم الأولمبي الخرافي، بل وقف سقراط عند عرافة دلفي يستنبئها فأين هذا من عالمية العقل التي حملها الإسلام إلى كل الشعوب بحيث لم تمض مائة سنة حتى كانت علوم الإسلام. من تفسير وحديث وفقه في أيدي "الموالي". وحتى ما يظن أنه بعيدًا عنهم كاللغة العربية. فقد كان سيدها من الموالي. ويحمل اسمًا غريبًا على الجرس العربي "سيبويه" وظهر من أئمة اللغة من لا يحسن – بحكم جنسه – النطق ببعض حروف اللغة العربية كالراء أو الحاء. وما من مثل كهذا يوضح انفتاح الإسلام، وكيف أنه أذن بالعقل وحمل "الكتاب" دون حدود، أو قيود إلى الشعوب قاطبة، فاستفادت.. وأفادت..

وهذا هو أحد الفروق بين عقلانية الإسلام وعقلانية أثينا، وهو السبب في أن الإسلام وليس أثينا كان إيذانًا بالعقل للبشرية، فالعقلانية الإسلامية التي تعود جذورها – كما تعود كل جذور الإسلام – إلى الله تعالى – اكتسبت صفة موضوعية ومطلقة وتقبلت البشرية كلها. ولكن عقلانية أثينا – وبعدها العقلانية الأوربية – انبثقت من الإنسان الأوربي وظلت دائرة في دائرته، محكومة بمحدداته.

الفصل الثاني
بين العقل والنقل
ميراث أوربي – كنسي

التعارض بين العقل والنقل ميراث كنسي – أوربي، ولا يمكن فهمه إلا في هذا الضوء، لأن إفراد النقل بطبيعة خاصة، والعقل بطبيعة أخرى لا يعني بالضرورة التعارض أو التناقض، فنحن لا نقول إن العين تناقض الأذن، أو أن السمع يعارض النظر، وإنما نرى أن لكل واحدة وظيفة خاصة تتميز عن الأخرى، ويمكن أن يكونا مكملين. ولكن صفحات متوالية ودامية توالت عبر التاريخ الأوربي وتغلغلت عميقا في الفكر الأوربي أبرزت النقل والعقل كما لو كانا متناقضين وقد حدث هذا قبل أن يظهر الإسلام بثلاثة قرون، واستمر حتى مشارف العصر، أي قرابة خمسة عشر قرنًا. وهي سحابة التاريخ الأوربي، ولهذا أصبحت هذه الفكرة من مسلمات الفكر الأوربي ولم يعد من السهل تغييرها أو تقبل ما يخالفها.

وقد يكون مما ييسر فهم تلك الظاهرة أن الصراع لم يكن بين المسيحية والعقل، ولكن بين الكنيسة وحرية الفكر. وكانت الواقعة التي سمحت بها، بل وأدت إليها هي ظهور الكنيسة باعتبارها الممثلة الوحيدة للمسيحية. فإن المسيحية تتطلب رجل دين متخصص أو محترف يقوم بمهام دينية اجتماعية عديدة بدءًا من تعميد الأطفال بعد الولادة، حتى دفن الرجال والنساء، مرورًا بعقد الزواج وتنظيم الصلاة وتقديم القربان وتلقي الاعتراف.. إلخ. بحيث لم يكن متصورًا عدم وجود كنيسة، وأصبح من الطبيعي أن يقول عنها المسيحيون. "أمنا الكنيسة" وأدى ذلك إلى احتكار المهنة الدينية وتبلور المصالح في الكنيسة: وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية عام 323 رزقت الكنيسة تأييد السلطة وبدأ اضطهاد المخالفين، وفي عام 385 أعدم الملحد الإسباني بريسليان بأمر الإمبراطور مكسيموس، وبرر القديس أوغسطين (430) ممارسة الاضطهاد على أساس مبدئي متذرعًا بكلمة تنسب إلى يسوع المسيح "أجبروهم على اعتناق دينكم" وتمشيًا مع هذا المنطق سلم "أوغسطين" بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات، ووضع للكنيسة دستورًا تلتزمه إزاء كل حركة عقلية، فصرح في كتابه "تعليقات على سفر التكوين" بأن "ليس في الوسع التسليم برأي لا تؤيده الكتب المقدسة، لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشري"([1]).

وفي عام 390 حطم تيوفيلوس وهو أحد المطارنة إحدى مكتبات الإسكندرية، وبعد ذلك بقرن ضاق القديس سيريل "Cyril" وهو ابن أخت تيوفيلوس بالنشاط الذي كانت تقوم به هيباثيا ودروسها في الرياضة والفلسفة في الإسكندرية، وكانت قاعة دروسها تكتظ بالمستمعين، فأثار عليها الدهماء فانقضوا عليها وهي في طريقها إلى قاعة دروسها وجردوها من ثيابها ومزقوا جسمها إربًا. وفي عام 529 أمر جستنيان بإغلاق مدارس الفلسفة جميعًا.. واستمر هذا المنهج بل وازداد مع انتعاش الدراسات اليونانية وتعرف المجتمع الأوربي على فلسفة ابن رشد، وظهور حركة الإحياء، وحرمت الكنيسة على "جون بابتيست بورتا" John Baptist Porta أبحاثه الكيميائية والطبيعية التي كان يقوم بها في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وتعرضت جمعيات البحث العلمي والأكاديميات التي ظهرت وقتئذ في باريس ولندن ونابولي وفلورنسا وبوجه خاص أكاديمية "دل شيمنتو" التي عقدت أولى جلساتها في فلورنسا عام 1657 تحت رئاسة الأمير ليوبولد دي مدتشي، وكانت تضم الممتازين من أهل البحث العلمي الذين اتخذوا شعارهم "دحض كل مذهب فلسفي وإن كان حبيبًا إلى

[1] **(1) انظر كتاب قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص 81 (لجنة الجامعيين لنشر العلم) وسيكون عمدتنا في الفقرات التالية.**

النفس، وضرورة البحث في ظواهر الطبيعة في ضوء التجربة وحدها" واستغرقتهم الحماسة في التزام هذا الشعار، وكان لأبحاثهم أطيب الثمرات، وحسبنا أن نشير إلى "بوريلي" Borelli في الرياضيات، و"ريدي" Redi في التاريخ الطبيعي، وكثيرين ممن ساهموا في البحث العلمي الصحيح، ووسعوا من نطاق المعرفة الصادقة فعرضوا لدراسة الحرارة والضوء والمغناطيسية والكهرباء وعلاقة المقذوفات بالجاذبية وعمليات الهضم، وعدم إمكانية انضغاط الماء... والتزموا في بحثهم المنهج العلمي الصحيح، فكانت الأكاديمية على يدهم حصنًا منيعًا للعلم الجديد. ولكن رجال اللاهوت قد ضاقوا بها فضربوا عليها حصارهم، وأعلنوا اتهام الأعضاء بالهرطقة واللادينية، وقدموا لرئيسها قبعة الكردينالية ثمنًا لخذلانها وخيانة مبادئها، واستدعي هذا الرئيس إلى روما، ولكن القلعة قاومت خصومها عشر سنوات طوال، سقطت بعدها، وخر أعضاؤها صرعى من عناء الجهاد، فاضطهد "بوريلي" وحورب في رزقه حتى اضطر إلى التسول وأكره "أوليفا" Oliva على أن ينتحر فرارًا من عذاب محكمة التفتيش[1]".

وقبل هذا أعدم برونو عام 1600 لإيمانه بمذهب كوبرونيكوس الذي قاومه الكاثوليك والبروتستانت، وكان أول من مهد للرأي السديمي الحديث. ولما كان حكم المحكمة يقضي بقتله دون أن تراق قطرة من دمه، فقد أحرق، وفي فلورنسا أعدم سافونارولا. وبدأ مع ظهور الطباعة نشاط الكنيسة في مراقبة المطبوعات فأصدر البابا إسكندر الخامس أمرًا بابويًا عام 1501 ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبع شيء لم يصرح بطبعه، وقرر الملك هنري الثامن في فرنسا عقوبة الإعدام جزاء الطبع من غير إذن رسمي، وأدخلت ألمانيا الرقابة على المطبوعات منذ عام 1529، وكانت الكتب لا تطبع في إنجلترا – في عهد اليصابات. من غير ترخيص، ولا يرخص بوجود مطابع إلا في لندن وإكسفورد وكمبريدج، وتتولى الإشراف على شئون المطبوعات محكمة النجمة Star Camper ولم تتخلص الطباعة من هذه القيود إلا في القرن الماضي[2].

وبدأت مع ظهور الأبحاث الحديثة في علم الفلك جولة جديدة من الاضطهاد باضطهاد كوبرنيكوس، ومحاكمة جاليليو، وتمسكت الكنيسة لأسباب لا يمكن أن تبرر إلا بالتعصب، والغباء، وضيق الأفق بما جاء في العهد القديم عن تكوين الله للأرض بصورة معينة تفهم أنها مبسوطة ثابتة، وإنها مركز الكون وخلق آدم وأبنائه ابنا ابنا حتى موسى وبقية الأسباط، وهي أمور ليست من صميم العقيدة، أو على الأقل ليست مما جاء به المسيح أو الحواريون. وكانت هذه القضايا هي محور أكبر حركة اضطهاد للعلم والعقل، ولا شيء يمثل عناد الكنيسة مثل ما نقل عن أحد آباء الكنيسة "إن ثبات الأرض أمر مقدس ثلاثًا thrice sacred وإن التدليل على فناء النفس وإنكار الله وعدم تجسيده، يمكن أن يلقى تسامحًا قبل أن يظفر بهذا التسامح التدليل على أن الأرض تدور[3] "وحدد آخرون تاريخ خلق العالم، بأنه بدء في التاسعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام 4004 ق. م[4].

وكان إصرار بعض آباء الكنيسة على هذه القضايا في الوقت الذي تفتحت آفاق المعرفة في الجيولوجيا، وفي الفلك، وفي الطبيعة وظهور نظرية التطور والانتخاب الطبيعي، التي يصعب تفنيدها، وأدت نتائجها إلى ما يخالف دعوى الكنيسة، هو مما انتهى بهزيمة الكنيسة وإقصائها عن المجتمع بحيث لا يكون لها وجود إلا ساعة واحدة يوم الأحد، أو في المناسبات الاجتماعية، وفقدت دورها باعتبارها الموجهة السياسية والاجتماعية والعلمية للمجتمع. واعتبر ذلك وضعًا طبيعيًا، بل اعتبر الشرط الأول للتقدم الحديث وظهور الدولة العلمانية التي تميز العصر الحديث.

وانسحبت هذه الفكرة ذات الأصل الكنسي – الأوربي الضارب في القرون الوسطى على كل الأديان كقاعدة مقررة، مع أن المفروض أن المسيحية شيء،

---

(1) المرجع السابق ص 147 - 148.
(2) المرجع السابق ص 152.
(3) المرجع السابق ص 197.
(4) المرجع السابق ص 233.

والكنيسة شيء آخر، وأن المسيحية نفسها شيء، وبقية الأديان شيء آخر، وأن أصول القياس تتطلب شروطًا لم يلحظها الذين أطلقوا الأحكام وعمموها على الأديان الأخرى بما فيها الإسلام، ونقلها دون وعي المفكرون الإسلاميون الذين استلهموا الفكر الأوربي على علاته، في حين أن هذه القضية بالنسبة للإسلام ليست ذات موضوع.

العقل في الفكر الإسلامي:

مع أن الإسلام كبقية الأديان يعترف بالوحي، فإن الإسلام يتميز بالتحرر من الخصائص الثلاث التي أوجدت هوة ما بين الدين والعقل، وأشرنا إليها في الفصل السابق، فلم ينشأ تصوره للألوهية عن "لاهوت" ولا اعترف بنظام كنيسة، ولا أقام الإيمان على أساس معجزة، ومن هنا فلم تكن لدى الفقهاء المسلمين الأوائل حساسية بالنسبة لمضمون العقل ووجد من قال "كل ما حكم به العقل حكم به الشرع. والعقل رسول في الباطن، والشرع عقل في الظاهر". وقد اتفق المسلمون تقريبًا على أن الاعتقاد بالله متقدم على الاعتقاد بالنبوات. فلا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله. فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل، ولا من الكتب المنزلة. فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله، وبأنه يجوز أن ينزل كتابًا ويرسل رسلاً ومن أجل هذا قال علماء الكلام إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والذكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتب – فمن قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل كالعلم بوجوب الله وقدرته على إرسال الرسل، فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي[1].

وقال الشيخ محمد عبده: "لا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسول، أو من الكتب المنزلة، وإنما لا بد أن يصل الإنسان إلى معرفة الله أولاً بعقله ثم يصل إليه في الإيمان بالرسل". وقال الشيخ مصطفى المراغي: "لا يجوز الاستناد إلى التقليد في أصول العقائد. وإن إيمان المقلد لا يعبأ الله به، وهو إيمان لا عمل لصاحبه فيه". ومن المعروف والمقرر أن العقل هو الشرط المسبق للإيمان، وأن التكاليف الشرعية تسقط عن المجنون، ولا تلزم الطفل الذي لم يبلغ الحلم وقيل إن سلطان العقل هو ميزان الله في أرضه.

ولقد ألف ابن تيمية في موضوع العقل والنقل كتابين من أفضل الكتب. هما "درأ تعارض العقل والنقل" و "بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول". أثبت فيها أنه لا يوجد مطلقًا تعارض ما بين صحيح المعقول وصحيح المنقول، وأن الخلاف إنما يكون بين الظنيين منهما، وهذا أمر مفهوم وتسمح به الاجتهادات.

وكل المذاهب الإسلامية تضع العقل هذا الموضع، بيد أن أشدها إقرارًا وأكثرها اعترافًا بمنزلة العقل هو المذهب الزيدي الذي وضع أصوله الإمام زيد بن علي "زين العابدين" بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو المذهب الذي جنت عليه شبهات الشيعة، فعزف عنه أهل السنة، وكان جديرًا بالتقدير.

ففي المذهب الزيدي تقدم قضية العقل المبتوتة على القرآن الكريم.

وجاء في "الفصول اللؤلؤية للأصول الزيدية لصارم الدين الوزير"، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية:

وكيفية الاجتهاد في الحادثة أن يقدم المجتهد عند استدلاله قضية العقل المبتوتة، ثم الإجماع المعلوم، ثم نصوص الكتاب والسنة المعلومة، ثم ظواهرها كعمومها، ثم نصوص أخبار الآحاد، ثم ظواهرها كعمومها، ثم مفهومات الكتاب والسنة على مراتبها، ثم مفهومات أخبار الآحاد، ثم الأفعال والتقديرات كذلك، ثم ضروب الاجتهاد الأخرى، ثم البراءة الأصلية ونحوها.

---

[1] **(1) انظر مقالًا عن "مصادر التشريع الإسلامي" بقلم الشيخ عبد الله مصطفى المراغي المفتش بالأزهر – نشر في مجلة منبر الشرق في 4 شعبان 1375 هـ، 16 مارس 1956، ص 3.**

ويبدد الشيخ أبو زهرة في كتابه "الإمام زيد" ما قد يعلق بالذهن من شكوك، لعدم وضوح هذا الإجمال فيقوم:

"وإن هذا الكلام يستفاد منه أن قضايا العقل القطعية، هي في المرتبة الأولى، كما أن الإجماع المتواتر المعلوم به مقدم على نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة والمعلومة وقد يبدو الأمران غريبان، ولا بد أن نزيل الغرابة فيهما.

فالعقل الذي يقدم على النصوص هو القضايا العقلية المقطوع بها، من حيث معرفة الله تعالى وإثبات نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله تعالى، وأن محمدًا جاء بهذا الدين، وأن ما يقوله عليه السلام، هو من تبليغ رسالة ربه، فإن ذلك مقدم من حيث الترتيب المنطقي على الاحتجاج بالقرآن والسنة، لأنه يقوم عليه إثبات صحة الاحتجاج بهما.

فالعقل يرجع إليه في الشرع إذا لم يكن ثمة أي طريق شرعي يرجع إليها. وليس هذا داخلاً في قضية العقل المقدمة على النصوص والفرق بين حكم العقل في الموضعين من ثلاث نواح. أولاها أن قضية العقل المقدمة على النصوص هي: قضية العقل المبتوتة، أي المقطوع بها التي لا تقبل نقضًا، وحكم العقل بحل أو تحريم، إنما هو أمر ظني وليس بأمر قطعي.

الثانية: أن قضية العقل المقدمة، هي ما يقوم عليه أساس الخطاب الإسلامي، وهو الإيمان بالله ورسوله النبي الأمي، الذي جاء بهذا الكتاب والإيمان بالمعجزة، وأما حكم العقل في التكليف، فهو متأخر عن الخطاب بشرع الإسلام، إذ هو بناء على ما جاء به الشرع، فحكم العقل عندئذ غير خارج على ما جاءت النصوص، بحيث لا يكون غريبًا عنها – فمثلاً إذا رأى بعقله أن في أمر فسادًا، ولم يجئ نص بالتحريم أو بالتحليل، كان العقل حاكمًا بالتحريم لأن الله تعالى لا يجيز الفساد ولا يرضاه لعباده، وإذا رأى العقل في أمر مصلحة ولا نص عليها، فإنه يحكم بأن الله تعالى، يطالب بها لأن الله تعالى رحيم بعباده، وكل مصلحة فيها رحمة ما دامت خالية من الفساد، ولا يترتب عليها فساد، ولا موضع فيها لنهي.

الثالثة: أن موضوع قضية العقل المقدمة هي ما يقوم عليه شرع الشرائع عامة، أما حكم المتأخر فهو حكم العقل في الوقائع الجزئية".

كما يفند المؤلف ما قد يظنه البعض من شكوك حول تقديم الإجماع على ما يقضي به القرآن الكريم والسنة النبوية فيقول:

لقد ذكر صاحب (الفصول اللؤلؤية) أن الإجماع الذي يبتدأ به هو الإجماع المعلوم، وهو الإجماع الذي ثبت في حقائق الإسلام الأولى، التي ثبتت بالتواتر من النبي ﷺ تواتر عليها إجماع المؤمنين في عهد الصحابة، لأنهم تلقوا ذلك عن النبي ﷺ، وإجماع التابعين من بعدهم لم يشذ أحد في العصر الأول الصحابي، ولا أحد في العصر التابعي، كإجماعهم على أن الصلوات خمس، وكإجماعهم على أن صلاة الفجر ركعتان والظهر أربع والعصر والعشاء كذلك والمغرب ثلاث، وإجماعهم على أن الصلاة المفروضة هي على هذه الهيئة التي وردت عن النبي ﷺ، وكإجماعهم على الصوم وأشكاله وإجماعهم على الزكوات وعلى مناسك الحج، وغير ذلك من الأمور التي تلقاها الصحابة بالإجماع، فإن هذه موضع تسليم لا موضع اجتهاد، وهي الحقائق التي لا يصح لمجتهد أن يخالفها، معتمدًا على ظاهر نص أو متعلقًا بظاهر أثر.

وليس تقديم الأخذ بهذه المسلمات على الاجتهاد في القرآن والسنة تقديمًا للإجماع في حد ذاته على القرآن والسنة، بل هو تقديم لأمر ثابت عن النبي ﷺ، بطريق ليس لأحد أن يشك في نسبتها، فهو أخذ بأقوى سنة، وأخذ بأحكم ما يدل عليه القرآن من أحكام [2].

ولاحظ مؤلف "الزيدية" عندما كان بصدد الحديث عن القاسم الرسمي "ما من مفكر – فيما أعلم – قدم العقل على الكتاب، بحجة أن الكتاب والرسول يعرفان

---

[2] (?) الإمام زيد للشيخ محمد أبو زهرة ص 331 – 335 بتصرف.

بالعقل، بينما لا يعرف العقل بهما – وقد أصبح تقديم العقل نهج الزيدية في أصول الفقه، ومع أن النزعة العقلية نهج المعتزلة، إلا أني لا أعرف معتزليًا قدم العقل على هذا النحو من الصراحة، حقيقة لقد قالوا: إن صدق الرسول إنما يعرف بالعقل إذ به يتميز النبي الصادق عن المتنبئ الكاذب، ومن ثم فالعقل مقدم على الرسول وعلى ما جاء به النبي من كتاب منزل، وحقيقة لقد ذهب المعتزلة بل وبعض الأشاعرة كالرازي، إلى ترجيح العقل على النقل، ولكن لا أظن أن مذهبًا فقهيًا سواء الحنفي، مذهب معظم المعتزلة، أو الشافعي، مذهب كثير من الأشاعرة، قد قدم العقل على الكتاب، كمصدر للتشريع، وإنما ذلك عند الزيدية ابتداء من القاسم الرسي"[3].

وقال القاسم الرسي في وصف العقل "العقل آمن أمين وأفضل قرين فاستأمنه على أحوالك وجميع خلالك".

ومع أن المذهب الزيدي هو أكثر المذاهب الإسلامية صراحة في تقديم العقل على النقل حتى لو كان هذا النقل هو القرآن الكريم نفسه، فإن مضمون المذاهب الإسلامية الأخرى لا يختلف عنه كثيرًا. وقد ظهر ذلك في معالجة قضية احتمال وجود تعارض بين العقل والنقل. واستشهد كاتب معاصر هو الشيخ محمد سعاد جلال بكلام الرازي فقال:

وإنما يكون الإشكال إذا تعارض حكم قطعي من العلم بنص قطعي من القرآن.

فذهب الرازي إلى الجزم بتأويل نص القرآن حينئذ – كما في قوله تعالى: "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة" وتأويله إن ذلك يكون بحسب رأي العين – لأن العقل أصل والشرع فرع عنه. فلو غلبنا العمل بالشرع على العمل بالعقل لعاد الفرع على أصله بالنقض، وذلك باطل، وإنما يفهم ذلك مما قرره علماؤنا أن العقل يستقل بإثبات وجود الله ووحدانيته واتصافه بالحياة والعلم والإرادة والقدرة وجواز إرسال الرسل عليه، ثم يعزل العقل نفسه – فلا يتوقف العقل على الشرع في مثل هذه الأمور لأن الشرع متوقف عليه فيها، فلو توقف عليه العقل لزم "الدور" والدور باطل.

ويشرح الشيخ محمد سعاد جلال حكاية "الدور" وتوضيحه ببساطة " لا يصح أن تقول علم ثبوت القرآن متوقف على وجود الله وعلم وجود الله متوقف على علم ثبوت القرآن، لأن هذا دور باطل لا يؤدي إلى صحة ثبوت القرآن ولا إلى صحة وجود الله وإنما نكسر هذا الدور بأن نقول علم ثبوت القرآن متوقف على علم وجود الله، لكن علم وجود الله ثابت بالعقل وحده لا بالشرع. فمن هذا يصح الشرع من حيث صحة إنبائه على دليل العقل وحده"([4]).

الفكر الإسلامي والفلسفة:

ولكن من المؤسف أن معظم المفكرين الإسلاميين استثمروا تشجيع الإسلام للفكر العلمي، وإعمال العقل أكثر ما استثمروه في المجال الوحيد الذي نهى الإسلام عن إعمال العقل فيه، لأن العقل يعجز عن استيعابه وهو صفات الله تعالى وما يتعلق بذاته – ففي هذا المجال بالذات انصبت معظم أبحاث العلماء المسلمين، بحيث أنهم أوجدوا علمًا جديدًا، هو الذي يطلق عليه "علم الكلام" الذي يقوم على أصول الفلسفة اليونانية.

كما استعاروا لعلم الأصول، أو أصول الفقه من المنطق الأرسطي مقدمات كمباحث الدلالات اللفظية وأقسامها وانقسام اللفظ إلى نسق وتصديق، والحاجة إلى الكلام بناء على ذلك على مبادئ التصورات من الأقوال الشارحة، والتعريفات وانقسامها إلى حدود ورسوم ومبادئ التصديقات، والكلام على البرهان وكيفية استخدامه في إثبات دعوى المستدل ونقض الكلام المعارض ونحو ذلك([5]).

---

3 (?) **الزيدية بقلم الدكتور أحمد محمود صبحي – الزهراء للإعلام – ص 137.**
4 (?) **مجلة الهلال – عدد يناير سنة 1980 ص 43 – 44.**
5 (?) **انظر بحث أصول الفقه منهج بحث ومعرفة الفقه الإسلامي – الدكتور جابر العلواني جاء في: Islam: Source and Purpose of Knowledge P. 216..**

وقد نلحظ في كتاب مبسط لعلم الأصول آثار المناطقة "وشرط ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود وعدم لذاته. كالطهارة بالنسبة للصلاة، لأن مجرد الوضوء ليس كافيًا في تحقق الصلاة ولا في عدمها إلخ..".

ولما كان الخط السلفي قد تبنى علم الكلام وتقريراته فقد تسلل الأسلوب الفلسفي، المنطقي إلى عقر العقيدة، وسلم بذلك معظم علماء السلف، وليس ابن رشد أو ابن سينا، أو المعتزلة وحدهم.

وقد بدأ ذلك من أبي الحسن الأشعري نفسه، الذي حاول أن يجمع ما بين النص ومذهب أهل العقل وعلماء الكلام وتقصى أحد المؤلفين تطور تسلل علم الكلام إلى الفكر الإسلامي فقال: "ومن بعد الأشعري في بناء مدرسته واتجاهه كان القاضي أبو بكر الباقلاني. وينسب إليه وضع المقدمات العقلية (الفلسفية)، كالجوهر الفرد، في تأليف علم الكلام الأشعري.

ومن بعده كان إمام الحرمين؛ أبو المعالي عبد الملك الجويني النيسابوري الملقب ضياء الدين (ولد سنة 420هـ - وتوفي سنة 478هـ). درس في المدرسة النظامية بنيسابور علوم التوحيد والفقه والمنطق ثلاثين سنة، وله كتاب (نهاية المطلوب)، مخطوط بدار الكتب المصرية. وهو صاحب كتاب (الشامل) وتلخيصه (كتاب الإرشاد). وينسب إليه زيادة عن سلفيه. استخدام المنطق الإغريقي في تأليف علم الكلام الأشعري.

ومن بعد إمام الحرمين كان تلميذه الغزالي حجة الإسلامي المتوفى سنة 505هـ. وينسب إليه في بناء المدرسة الأشعرية أنه في التأليف على طريقتها أدخل الفلاسفة للرد عليهم، بعد أن كان الرد قبله من أئمة هذه المدرسة قاصرًا على المعتزلة وحدهم.

والإمام ابن الخطيب تابع الغزالي في نهجه في الرد على الفلاسفة والمعتزلة في التأليف على النمط الأشعري. والبيضاوي صاحب (الطوالع) زاد من خلط مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة. وعلماء الأعاجم: كسعد الدين التفتازاني والإيجي، تابعوا البيضاوي في نمطه في التأليف[6] ".

ويمكن القول إن تجربة الفكر الإسلامي في هذا المجال لم تكن موفقة، وإن النقل في هذه النقطة كان أجدى من العقل، لأن العلماء المسلمين الذين درسوا الفلسفة اليونانية على أساس استخدامها في إثبات وجود الله وتنزيهه، أخذوا بها ودفعهم ذلك إلى عالم من التفريعات والافتراضات، لم يكن لهم بها عهد. وبعد فترة تحولت أهدافهم إلى محاولة التوفيق بين العقيدة والفلسفة ورأوا أن الحكمة مولدة الديانة... والديانة متممة للحكمة. وقال إخوان الصفا إن الشريعة قد دنست بالجهال، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها إلا بالفلسفة، كما قال السجستاني. وماذا يجدي الفكر الإسلامي كتاب (الجمع بين رأيي الحكيمين) للفارابي والذي قال فيه "ولولا ما أنقذ الله أهل العقول والأذهان، بهذين الحكيمين – أفلاطون وأرسطو، ومن سلك سبيلهما ممن وضحوا أمر الإبداع بحجج واضحة مقنعة، وأنه إيجاد الشيء لا عن شيء، وإن كل ما يتكون من شيء ما، فإنه يفسد لاستحالته إلى ذلك الشيء، والعالم مبدع من غير شيء فمآله إلى غير شيء.. فيما شاكل ذلك من الدلائل، والحجج والبراهين، التي توجد كتبهما مملوءة منها، وخصوصًا ما لهما في الربوبية، وفي مبادئ الطبيعة – لكان الناس في حيرة ولبس.." فأين الإسلام هنا، وأين رسالة محمد، وأين نور القرآن وبراهينه التي غرس بها الإيمان غرسًا يفوق غرس الفلسفة بمراحل.

إن كلام الفارابي، ومن ذهب مذهبه، يصدق تمامًا على المجتمع اليوناني أيام أفلاطون وأرسطو، هذا المجتمع الذي لم يعرف قرآنًا، ولم يحظ برسالة، وقام الفلاسفة فيه بدور الأنبياء. ولكنه لم يعد ذا موضوع بعد رسالة الرسول ونزول القرآن بأسلوب جديد وببراهين تتمشى مع الرسالة الدائمة والعامة للبشرية ولكن أصولهم الأعجمية، وغربتهم عن المنطق القرآني. وغلبة الرواسب القديمة، أعلت المنطق

[6] **(?) د. محمد البهي – الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ج 2 ص 4.**

الأرسطي. ولو تعمق الفارابي وابن سينا وأمثالهما في القرآن، كما تعمقوا في فلسفة "الحكيمين" لما اشتروا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولكن قد يلتمس لهم عذر بهيمنة الفقهاء التقليديين على الفكر الإسلامي وقتئذ – وحيلولتهم دون أي تأصيل.

وعرض الدكتور محمد البهي لتفسير ابن سينا للآية ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. فقال:

"... فالنور إما ذاتي أو حقيقي، أو مستعار، والمستعار إما الخير وإما السبب الموصل إلى الخير. وفسر السماوات والأرض بأنها الكل. والمشكاة هي العقل الهيولاني ومفتاح العقل المستعار والزجاجة بالواسطة، وشجرة مباركة بالقوة الفكرية، والنار بالعقل الكلي المدبر للعالم المشاهد. وهو النفس الكلية عند أفلاطون([7]) ".

ولا جدال في أن هذا التفسير أبعد ما يكون عما أراده القرآن، وتصوير القرآن لله تعالى تتشربه النفوس ويعطي الأثر المطلوب دون تكلف أو إغراب. في حين لا يقدم تفسير ابن سينا الذي تعلم على أرسطو وأفلاطون إلا خبطاً في عالم غريب. ومثل هذه المحاولات هي "تلغيز" وليس تفسير القرآن. فالقرآن واضح مؤثر مقنع بذاته، بلفظه وجرسه ونظمه.

أو خذ مثلاً هذه الصفحة من كتاب الطبيعة لأرسطو الذي ترجموه:

".. فإن كان الذي هو الموجود ليس هو مما يعرض لشيء أصلاً، بل إنما له بالحري يعرض ما يعرض، فالموجود إنما يدل على الذي هو الموجود، أو يكون يدل على غير الموجود. وذلك أنه إن كان الذي هو الموجود أبيض، فلأن معنى أبيض ليس هو الذي هو موجود. لأنه ليس يمكن أن يكون الموجود يعرض له، من قبل أنه ليس موجودًا إلا الذي هو الموجود، فليس الأبيض إذا بموجود لا على أنه ليس هو الذي هو الموجود، بل على أنه غير موجود أصلاً. فيجب إذن أن يكون الذي هو الموجود غير موجود، وذلك أن القول فيه بأنه أبيض حق، فقد وجب من ذلك أن الأبيض أيضًا يدل على الموجود، فالموجود إذن يدل على معان شتى"!؟

ويقول مؤلف (رأي في الفكر الإسلامي): ولنا أن نتصور أي جهد تبدد في هذا الهراء، وأي ضرر لحق بالأمة عندما أعرض علماؤها عن كتاب ربهم الواضح، وسنة نبيهم السهلة ليتفرغوا لشرح النص السابق لأرسطو على النحو التالي:

"... إن الموجود إن لم يدل على معان شتى حتى يدل على الشيء العارض على الموضوع وعلى الشيء الذي هو الموجود، يعني الذي هو أولى بالوجود، وهو الموجود على الحقيقة لا يعرض وجوده على غيره وهو الجوهر وهو الواحد على الحقيقة لأنه الواحد بالعدد. بل إن كان الموجود هو الشيء العارض على الجوهر فإنه يلزم منه أن يكون الجوهر موجودًا، لأن الموجود قد عرض له. ولا يجوز أن يعرض الموجود لما ليس بموجود!!([8]).

وأسوأ من هذا أنهم زجوا في مجال الفقه الإسلامي بمشكلات للأديان والعقائد الأخرى. لم توجد في الإسلام، أو آثر الإسلام أن يتجاهلها. وجعلوا هذه القضايا مدار بحثهم ومحور دراستهم وألفوا فيها المجلدات التي لوثت صفاء الفكر الإسلامي وطريقته السهلة السائغة التي تعتمد على الفطرة والبديهة والملكة.

---

7 **(?) مرجع سابق ص 20.**

8 **(?) سعيد محمد حسن – رأي في الفكر الإسلامي – القاهرة 1976 ص 43، 44 (دار ممفيس للطباعة 1976) ومن المؤسف أن الكاتب فيما نظن لم يتابع كتاباته – التي أشار إليها في المقدمة فقد كان يرجى منها خير كثير.**

وفي نهاية كتابه (الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي) عرض الدكتور البهي مأساة المفكرين المسلمين الذين أرادوا أن يتخذوا من الفلسفة وبالذات الفلسفة اليونانية دليلاً على وجود الله.

"إن ما أفاده فلاسفة المسلمين المشائيون في الشرق من الاستدلال على وجود الله من "الوجود" نفسه، جانب ما في الدين من دليل عليه مشتق من العالم الواقعي – نتيجة قبولهم فكرة واجب الوجود الإغريقي، لا يتكافأ مع مجهودهم العقلي في التوفيق بين الإسلام والفلسفة فيما أثاره واجب الوجود في هذه الفلسفة من إشكالات، وعلى الأخص في وصف الله بصفاته التي وردت له في القرآن الكريم، وفي علمه لما يجري في ملكوته.

ثم بعد هذا كله لا يصلح تفلسفهم أن يكون أساس توجيه ديني، لأنه لا يلتئم مع طبيعة الدين كدين، كما لا يصلح أن يكون أساسًا لتوجيه عقلي لما فيه من كثرة التعاريج والالتواءات، نتيجة الخلط من عدة مذاهب وآراء.

ولو درى فلاسفة المسلمين المشائيون قيمة الفكر الإغريقي، وأنه لم يخلص تمامًا من الشعر والخيال، لآثروا أن يكون لهم منطق خاص بهم.

ولو علموا نتائج قبولهم آراء أفلاطون وأرسطو في شرح العقيدة، على العقيدة من حيث هي عقيدة، لتركوا للقرآن الكريم وحده كما هو الطريق إلى قلوب المصدقين وعقول الخاصة من الناس"([9]).

ولو أن هذه العقول العبقرية ركزت بحثها في العلوم الطبيعية كما فعل ابن الهيثم، والبيروني، والخوارزمي.. إلخ، لتحقق في بغداد ما تحقق في أوربا عهد الأحياء. ولكسبت المعرفة عشرة قرون ولجاءت من مصدر قد يلحظ في استخدامها، أو يضع لها أدبيات الإسلام، أو لو أن المعتزلة الذين عالجوا قضية العدل بالنسبة لله تعالى، عالجوها بالنسبة للخليفة أو طبقوها على أنفسهم عندما سنحت لهم فرصة الحكم، لحال ذلك دون تدهور النظام السياسي ولظفر أدب الحوار بنماذج أفضل من نماذج إجبار الناس على القول برأي واحد دون تقدير لآرائهم الخاصة.

وما معنى قضية الصفات التي أصبحت محورًا من محاور الصراع في الفكر الإسلامي ودارت حولها معارك وأدت إلى انقسامات.. سوى جدل لا يخطر لرجل سليم القلب سوي الطوية آمن بآيات القرآن الكريم، كما آمن الصحابة، فلم يخطر له أن يسأل أو يستقصي.. لأن المعنى المطلوب وصل قلبه فأدفأه بالإيمان وأسعده باليقين، وأصبح كل ما عدا هذا فضولاً، بل افتياتًا وتلويثًا، إننا في هذا الاتجاه نتفق مع الذين رفضوا أصلاً الحديث في هذه القضية ورأوا أنها من محدثات الأمور، ونتفق مع ما يقوله ابن الجوزي في كتابه "فضل علم السلف على الخلف" وإن كنا نختلف معه في قضايا أخرى. وقد قال ابن الجوزي في كتابه هذا (ص 17 دار الطباعة المنيرية – القاهرة).

"ومن ذلك أعني محدثات الأمور – ما أحدثه المعتزلة، ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول وهو أشد خطرًا من الكلام في القدر. لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله، وهذا كلام في ذاته وصفاته".

***

وكان رد فعل تجربة الفكر الإسلامي مع الفلسفة اليونانية وما تورط فيه المعتزلة وعلماء الكلام من سخف وجدل، أن اندفع الفكر الإسلامي إلى التصوف. كما انتهى إلى ذلك الغزالي، أو إلى السنة وبالذات الحديث. ولم يكن في هذين ما يشجع العقل بوجه خاص. ومن هنا تهيأ المناخ لحدوث المأساة التي انتصر فيها النقل على العقل، والتي توضحها الفقرة التالية.

بين المتن والسند:

---

[9] (?) د. محمد البهي – مرجع سابق ص 260.

كان الملاذ الأول للفكر الإسلامي بعد أن ظهر عقم تجربته مع الفلسفة هو الحديث. وقد يصور ذلك تصويرًا رمزيًا انتصار أحمد بن حنبل على المعتزلة. والحديث هو أكثر المواضيع نقلية لأن محور البحث يكون عادة السند لا المتن. فمع أن المحدثين أقروا أن سلامة السند لا يمكن أن تكون مبررًا لقبول متن معلول. وأن من سمات الوضع في الحديث أن يكون المتن مخالفًا لصريح العقل. إلا أنهم عمليًا ركزوا الاهتمام على السند دون المتن وعلم الحديث شاهد على ذلك. فإن كل فروعه تقريبًا تدور على السند، وأبرزها علوم الرجال من جرح أو تعديل وثقات وضعفاء. والأسماء والكنى. ثم علم أصول الرواية الذي يطلق عليه مصطلح الحديث. وهو يبحث عن حقيقة الرواية وشروحها. وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف الروايات وما يتعلق بها.

ولا بد أن نشهد لهم وهم أجيال تلو أجيال أنهم أوفوا على الغاية وحاولوا أن يسدوا كل المنافذ ويلموا بكل الطوارئ، ولهم في هذا أفانين واصطلاحات وضوابط وحدود يضيق عنها المجال. ولكنها كلها في مجال السند والرجال، وليس المتن والمعنى. وأبسط ما يمكن أن يقدم هنا كمثال هو ما اشترطوه في الحديث الصحيح الذي تبنى عليه الأحكام:

اتصال الإسناد، وبهذا يخرج المنقطع والمفصل والمدلس.

أن يكون رواته عدولاً، والعدل من استقام دينه وحسن خلقه وسلم من الفسق وخوارم المروءة.

أن يكون رواته ضابطين.

أن لا يكون المروي شاذًا، والشذوذ هو مخالفة الثقة مع من هو أرجح منه.

أن يسلم المروي من علة قادحة كإرسال موصول أو وصل منقطع أو رفع موقوف.

والخلاصة:

أن الحديث الصحيح يجب أن تتحقق فيه هذه الشروط الخمسة:

عدالة رواته من أول السند إلى منتهاه.

تمام ضبطهم من أول السند إلى منتهاه.

اتصال السند.

سلامته عن الشذوذ.

سلامته من العلة([10]).

وكأن علماء الحديث وقد استغرقوا الجهد في التثبت من صحة السند والرواية بمختلف الضمانات، لم يجدوا حاجة حتى لإلقاء نظرة على المتن وفاتتهم عشرات الأسباب يمكن أن تطرأ على الحديث، مع وجود ضماناتهم تلك، وتكون مبررًا لعدم الأخذ به.

وكانت نتيجة هذا التركيز على السند إهمال المتن، فلم يروا أن مجافاة المتن للعقل أو الطبع السليم، أو حتى ما ينبغي للقرآن الكريم ولرسوله من قداسة، مبررًا لنبذه، وهكذا أقروا أن النبي قد سحر سحره يهودي، وأن الرسول قال بعد تلاوته "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى". "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى".

---

[10] (?) المختصر في علوم الحديث. عبد المنعم المبارك حسن ص 22 دار الفكر – الخرطوم.

ومعالجتهم للروايات التي نقلت هذا الزعم الأثيم توضح هيمنة الإسناد. فمع أن الروايات التي رويت كلها ضعيفة أو منقطعة، سوى رواية لسعيد بن جبير، فقد قال الحافظ بن حجر".. ولكن كثرة الروايات تدل على أن للقصة أصلا، على أنها لها طريقين صحيحين أخرجهما ابن جرير. أحدهما عن طريق الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. والآخر عن طريق هند عن أبي العالية، ولا عبرة بما يقول ابن العربي وعياض إن هذه الروايات لا أصل لها".

ولا شيء كهذا يمثل إستعباد السند للمحدثين، فلا ذكر قطعًا للمتن، ومدى اتفاقه، أو اختلافه للمبادئ أو للمعقولية التي يفترض أن تكون هي المعيار في الحكم.

وبالإضافة إلى استخذاء المحدثين أمام السند، وعدم محاولاتهم إعمال العقل في متن الحديث، فإنهم قدموا ألوف الأحاديث التي تغطي ليس فحسب كل المجالات، بل كل التصرفات الشخصية والحركات والسكنات التي يمكن لأي فرد أن يقوم بها.

وتلقف الفقهاء هذه الأحاديث وصنفوها في خانات تصنيفاتهم، التي لم تدع عملاً دون أن تودعه إحداها، ما بين حلال أو حرام، مباح أو مندوب أو مكروه، وأصبح هذا كله جزءًا من الشريعة التي تتبع. وبذلك فرضوا على المسلم التقليد والاتباع في أي عمل حتى وإن كان خارجًا تمامًا عن إطار العبادة أو الشريعة، وأصبحت عقلية المسلم المعاصر عقلية "نقلية" وحيل بينه وبين أن يفكر أو يختار أو يقوم بمبادأة وأصبح "التقليد" "والاتباع" سياسة عامة وموقفًا مقررًا، وتعطلت بقدر ذلك ملكة التفكير.. وعلاها الصدأ. بحيث أصبح المسلم نوعًا من الروبوت يسير تبعًا لروموت كونترول هو "السند"، وهذه في الحقيقة هي مأساة العقل الإسلامي الذي غلبه النقل والتقليد، رغم أن توجيهات القرآن الكريم صريحة تمامًا في مناقضتها لهذا المسلك، ومقاومتها لجعل الأحبار والرهبان آلهة يحللون ويحرمون، وتنديده بالذين يسيرون تبعًا لما سار عليه الآباء والأجداد. وبالمخالفة الصريحة أيضًا لتوجيه الرسول الذي كان يؤثر للناس العافية. وأن يكونوا في حل وأن لا يسألوا، بل وأمره الصريح "ذروني ما تركتكم" فإن المحدثين لم يتركوا شاردة أو واردة حركة أو سكنة للرسول إلا سجلوها وأوردوها على سبيل الاسترشاد أو الإلزام، وفاتتهم حكمة الرسول في توجيهه.. إن من الخير أن يُعمل الناس عقولهم وأفكارهم. فإن صادفوا الصواب فهو المطلوب ونالوا حسنتين وإن أخطأوا نالوا حسنة إعمال الفكر، دون حسنة التوفيق إلى الصواب.. أما التقليد في كل شيء حتى لو كان للرسول فإنه يخالف ما أراده الرسول للناس عندما قال "ذروني ما تركتكم" وما أراده الله عندما إستحث المسلمين على الفكر وإعمال العقل وحذرهم من الرهبان والكهان.. والآباء والأجداد.

***

وغني عن الذكر أن الملاذ الثاني الذي لاذ به الفكر الإسلامي بعد فشل تجربته مع الفلسفة اليونانية. وهو التصوف. لم يكن ليضيف شيئًا إلى العقل. وعلى نقيض هذا. فإن التصرف الذي تنعدم فيه الضوابط يشطح ويبعد ويتوغل في متاهات عاطفية وقد صدر عنه معظم خرافات الأولياء وأحاديث قدراتهم الخارقة من السير على الماء أو الطير في الهواء أو طي المسافات.. إلخ. ومواعظ القصاص في المساجد والزوايا، وإقامة الأضرحة للمشايخ والأولياء وشيوخ الطرق. وتكوين هيئات منظمة لكنها تقوم على الطاعة العمياء للشيخ. وتقديسه وأن يكون المريد منه كالميت بين يدي المغسل.. فكانت جنابة التصوف مضاعفة لأنه استعان بالطرق التربوية والتنظيمية. ولكن لتحقيق غايات تقوم كلها على غرس الطاعة العمياء، وتعميق التقليد وسلب الإرادة وطمس الشخصية واستبعاد التفكير.

بين التقليد والاجتهاد:

أخذت الموازنة ما بين المتن والسند صورة أعم في الموازنة ما بين التقليد والاجتهاد، وغلبة التقليد وسيادته طوال عشرة قرون مستمرة، وقد أغلق باب الاجتهاد أساسًا، لأن فتح بابه دون وجود وسائل تنظيمية أدى إلى الفوضى والتضارب. وعندما

يتعلق الأمر بأحكام تطبق على المصالح وشئون الحياة، فإن هذا مما لا يمكن أن يحتمل. وكان المفروض أن توجد أداة أو وسيلة تنظيمية كمجلس أعلى، أو محكمة.. إلخ. ولكن مثل هذه الأجهزة لم تكن مألوفة في المجتمع العربي الإسلامي، فلما لم يوجد التنظيم لم يعد مناص من إغلاق باب الاجتهاد والاقتصار على المذاهب التي أثبتت سلامتها على مر السنين، كما كان هناك أسباب أخرى تقوم على مصالح مكتسبة أدت إلى غلبة مذهب مالك على الأندلس والشمال الأفريقي، ومذهب أبي حنيفة على العراق بفضل نفوذ "أبي يوسف" وفيما بعد الدولة العثمانية.. إلخ.

ما يهمنا هو أن الأمر استقر على التقليد، والتقليد هو كما قالوا "قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة" فحاصل التقليد أن المقلد لا يسأل عن كتاب الله، ولا عن سنة رسوله. بل يسأل عن مذهب إمامه فقط. ووصل الإيمان بالتقليد أن المذهب الذي حرم التقليد، وتميز بفتح باب الإجتهاد، وهو المذهب الزيدي استسلم المعتنقون له(أو بعض دعاته) لدعوى التقليد. قال الشوكاني في رسالته "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد" "وما ذكرنا فيما سبق من أنه كان في الزيدية والهادوية في الديار اليمنية إنصاف في هذه المسألة بفتح باب الاجتهاد، فذلك إنما هو في الأزمنة السابقة. كما قررناه فيما سبق، وأما في هذه الأزمنة فقد أدركنا منهم من هو أشد تعصبًا من غيرهم، فإنهم إذا سمعوا برجل يدعي الاجتهاد ويأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قاموا عليه قيامًا تبكي عليه عيون الإسلام، واستحلوا منه ما لا يستحلونه من أهل الذمة من الطعن واللعن والتفسيق والتنكير والهجم عليه إلى دياره ورجمه بالأحجار إلخ". فإذا كان هذا يحدث بالنسبة لأتباع المذهب الذي يقرر الاجتهاد، فما بالك ببقية المذاهب التي أنس شيوخها إلى التقليد وسلموا به تسليمًا..

وكانت نتيجة إغلاق باب الاجتهاد هي إغلاق باب العقل والأخذ بأقوال الشيوخ، ونبذ كتاب الله وسنة رسول، وإيثار الآباء والأجداد عليها، فكيف يمكن أن ينهض المسلمون، وقد نبذوا سر قوتهم ورمز هدايتهم. القرآن.. وآثروا عليه أقوال الكهنة والمتكسبين بالدين أو تقليد آبائهم وأجدادهم.

***

ومن الإنصاف الإشارة إلى أحد الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة ولا يقتصر على الإسلام وحده، ولكنه يوجد في كل الأديان أن الأديان لما كانت موغلة في القدم. ولما كانت قد ظهرت قبل أن يبلغ العقل البشري نضجه، وتعرضت لصور عديدة وعميقة من سوء الفهم والاستغلال فقد علقت بها رواسب قوية وكادت أن تصبح جزءًا لا يتجزأ منها. ومع أن الأديان السماوية ما نزلت إلا لتخلص الناس من هذه الانحرافات والتشويهات، إلا أن هذه الرواسب في كثير من الحالات كانت أغلب، أو على أقل تقدير، احتفظت بقدر كبير من الوجود داخل الدين السماوي. وهذا ظاهر في اليهودية والمسيحية والإسلام، وقد نراه في "الكاثوليكية" أكثر منه في "البروتستانتية" ولكنه على كل حال موجود، والذي قلل من أثره السيئ بالنسبة للمسيحية أن المجتمع الأوربي لم يأخذ المسيحية مأخذًا جادًا، ولم يعض عليها بالنواجذ، ولهذا ضعف أثر المسيحية: الأثر الأصيل أو الأثر المشوه. أما بالنسبة للإسلام، فإن المسلمين يرون في إسلامهم المقوم الأول لهم ولا يفرطون فيه. ومن أجل هذا ظهرت آثار الإسلام الحق، وآثار ما علق به من غشاوات على المسلمين في شكل قوي. وعندما قال القرآن "إن الدين عند الله الإسلام" فكأنه أراد أن يجعل من الإسلام نموذجًا فريدًا يتحرر مما يعلق عادة بالدين وأن يوجد نمطًا جديدًا من الدين هو الإسلام. ولكن المسلمين عكسوا الآية فجعلوا الإسلام هو الدين، ودخل إلى الإسلام من هذا المدخل الرواسب العديدة للخرافة التي اصطحبت بالدين طوال العصور القديمة، وقبل أن يحرره الإسلام.

وقد رأينا كيف أن الإسلام، أكثر من أي دين آخر حارب الوثنية وحارب التقليد، وحارب الخرافة والخوارق. وجاء برسالة العلم والعدل، ومع هذا تغلبت شرعة الآباء والأجداد، وحذا المسلمون حذو غيرهم وتطلب الأمر أن يوجد على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها بنسب متفاوتة من النجاح تبعًا للملابسات والظروف.

مناطق الاختصاص:

ليس معنى كل ما قدمنا أن العقل وحده هو الأداة الحاكمة في مجال الدين، فالدين يتميز بأن واسطة العقد فيه، وهي الألوهية، تأتي عن طريق الوحي عن الله، وهو – أي الوحي – قضية.. لا يستطيع العقل أن يثبتها بوسائله الخاصة كما لا يستطيع أن ينفيها، أولاً: لأن وجود الله هو بدهية عقلية، إذ هو القصد والغاية والحكمة. وهي مكونات العقل. فليس مستغربًا إذن أن يوحى الله تعالى إلى بعض البشر فليس في هذا الوحي ما يمس اتفاق صفات الله تعالى مع العقل، بل إن ذلك هو ما يجعل الصلة بين الله والناس تؤدى عن طريق الوحي، لأن الاتصال المباشر قد يوحي برؤيته تعالى، وقد استبعد القرآن هذا وقال "لا تدركه الأبصار" وثانيًا: لأن بعض صفات الله تعالى وما يتعلق بذاته لا يمكن للعقل أن يصل إليها، ولا بد أن يكشف الله تعالى بعض ما يشاء منها.

وهذا أيضًا أمر لا يخالف العقل، بل إنه يتفق معه. فكل محاولات الفلاسفة للوصول إلى ذات الله تعالى كانت خطوطًا عريضة لم تستطع أن تتعداها، كما لم تستطع أن تصل إلى هذا العالم الغامض، المجهول، المستتر، عالم ما بعد الموت، فجاء الوحي ليكمل هذا للعقل.

وعجز العقل عن الوصول إلى ذلك لا يعني أن يستسلم لمعطيات تناقض أصوله، لأن الاتفاق على العقل، أو على الأقل عدم مخالفته، هو أصل لا يمكن التنازل عنه. ومن ثم فيفترض ألا يكون فيما يأتي به الوحي ما يصادم العقل وقد عرضنا فيما سبق لموقف الإسلام في هذه القضية وأن افتراض مخالفة الوحي للعقل هو بالنسبة للإسلام فرض جدلي، لأن ما جاء به الوحي الإسلامي يتفق مع أصول العقل، وليس أدل على ذلك من أن تكييفه للألوهية يوافق تكييف ديكارت وبقية العلماء والمفكرين والأوربيين الذين حاولوا أن يتوصلوا إلى بعض صفات الله تعالى.

ولا يجوز للعقل أن ينكر قضية لأنه لا يوجد دليل "عقلاني" جازم يثبتها به. إذ حسبه أنها لا تتناقض معه. وقضايا وجود الله، والبعث والحساب والعقاب.. إلخ[11].. لا تتناقض مع أصول العقل. بل إنها تتفق مع أفضلية مبدأ الوجود على العدم.. والعدل على الظلم.. ولكنها وبوجه خاص "البعث بعد الموت" والثواب والعقاب في جنة أو نار – تبدو شديدة الغرابة، ومخالفة "للحسية" التي تسيطر على بعض العقلانيين. ولكن الغرابة والابتعاد عن المحسوس لا يمكن أن يكون دليل بطلان. فلو تنبأ أحد منذ مائتي سنة أنه سيمكن صنع مركبات تحمل مئات الناس وتطير بهم فوق السحاب بسرعة 800 كم في الساعة، أو أنه سيمكن صنع صندوق من معادن وأسلاك وزجاج ينقل الأخبار من أقصى الأرض إلى أقصاها لحظة وقوعها.. أو أنه سيمكن للناس التحدث بعضهم لبعض من أقصى الشمال لأقصى الجنوب.. لقيل إنه مجنون فإن شيئًا من هذا كان يبدو مستحيلاً، ومخالفًا كل المخالفة لما ألف الناس وما تصوروا أنه "عقلاني" وقتئذ. وأقصى ما يمكن للعقلانية أن تدعيه بالنسبة لهذه القضايا هو "اللاأدرية" وأفضل منها أن ترى أن الدين يكشف لها جوانب تعجز عن الإلمام بها بوسائلها الخاصة. وبهذا يشترك معها في كشف أبعاد الحقيقة.

وكما لا يجوز للعقلانية الافتيات على الدين أو رفض الوحي لمجرد أنها تعجز عن التدليل عليه بوسائلها الخاصة، فكذلك لا يجوز للدين أن يفتات على العقل بأن يفرض وقائع تتناقض مع أصول العقل والعلم، وقد كان تضمن العهد القديم لوقائع محددة عن خلق الأرض، وعن خلق آدم وأبنائه تتناقض مع المعطيات المؤكدة للعلم الحديث، هو أكبر أسباب الصراع بين العقلانية والمسيحية. فإذا تضمنت الكتب السماوية شيئًا أقل صراحة من هذا في مخالفته لمقتضيات العقل فيجب تأويله.

وهذا لا يستتبع إمتناع الدين عن أن يتناول بطريقته الخاصة مشاهد الطبيعة وظواهرها من رياح وأمطار وشموس وأقمار.. إلخ.. أو المجتمع البشري أو النفس الإنسانية ما دام لا يخالف ذلك الأساسيات العقلية، لأن من الممكن أنه يكشف عن أبعاد لا يصل إليها العلم. ويمكن أن يعد هذا تعزيزًا من الدين لمنزلة العلم وليس

[11] (?) سيكون هذا موضوع فصول الباب الثالث من الكتاب.

افتياتًا عليه، ويكون مستحقًا للشكر من العقلانية. وخير ما يمثل هذا هو إشارات القرآن إلى كثير من ظواهر الطبيعة والنفس الإنسانية، وما يعرض للمجتمع الإنساني من عوامل القوة والضعف.. فإنها فتحت لكثير من العلماء آفاقًا جديدة بالمرة.

حقًا أن القرآن تضمن إشارات إلى خلق الأرض في ستة أيام، ولكن القرآن يذكر أن أيام الله تختلف عن أيام الناس، وأن منها ما يقدر بألف عام ومنها ما يقدر بخمسين ألف عام. وذكر أعدادًا أخرى، ثم ذكر أن هذه الأعداد ليست إلا فتنة للذين كفروا، وتحدث عن "العرش"، و"الكرسي"، وهذه كلها ليست إلا رموزًا لتقريب معنى معين أراد القرآن أن يقربه للناس بما يألفون. والنظم القرآني نظم فني يختلف عن "السرد" الذي يتسم به أسلوب "التوراة"، ولا يدع للإنسان سبيلاً للتأويل، على حين أن النظم الفني للقرآن يسمح بالتأويل، بل يوجبه إيجابًا فيما يتعلق بصفات الله تعالى. لأن الله تعالى – كما قرر القرآن – ليس كمثله شيء، وهذا يستتبع أن تكون إشارات القرآن إلى اليد والوجه، والاستواء بالنسبة لله غيرها بالنسبة للناس، وهذا لا يعني سوى التأويل ونحن لا نقبل أن يحملنا الورع أو الخوف على تجاهل الحقيقة والإحجام عنها.

وعلى كل حال فيمكن القول إن لكل من الدين والعلم مجال اختصاصه الذي يفترض ألا يتعداه، إلا على سبيل الاستثناء، أو الاستئناس.

فكل ما يتعلق بالله تعالى، وعالم ما وراء الموت، فهو مجال اختصاص الدين ولا يجوز للعلم أن ينكره، لأن العلم مهما بلغ من تقدم فإنه يعجز عن أن يحيط بأطراف الكون وما وراء عالم المشاهدة.

وكل ما يتعلق بالعلوم الرياضية والحسابية والهندسة والطبيعة فهو مجال العقل يصول ويجول فيه ويقدم لنا هذه الصور الرائعة عن التقدم المادي.

وهذا التخصص الأصولي في الموضوعات يرتكز على تخصص أصولي آخر في الملكات ذلك أن منبع الفكر الديني يمكن أن ينبع من العقل والقلب معًا في حين أن منبع الفكر العلمي المجرد هو العقل أصلاً ولكل واحد منهما طبيعته الخاصة التي تجعله أقرب إلى مجاله بحيث يمكن له أن يعالجه بوسائله وينتهي فيه إلى النتائج. وهذه النقطة سنشير إليها في الفصل القادم بنوع من التفصيل..

يبقى بعد هذا أمران:

الأول: أن الإسلام يلحق العلوم الإنسانية بنطاق اختصاصه، فالاقتصاد والاجتماع والسياسة هي مجالات يمكن أن تعالج على أسس علمية، ولكن بأهداف "دينية" فالمعالجة العلمية محايدة، وهذه الصفة تسمح باستغلال المعالجة والنتائج لغير مصلحة الناس، أو بغير ما تتطلبه المثل والقيم، ومن ثم يتعين أن تستهدف المعالجة العلمية العقلية للموضوعات الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية الأهداف الإسلامية. أي العدالة، والخير، والصلاحية.. إلخ. مما تتميز به العقلانية الإسلامية، على العقلانية المجردة، وما سنشير إليه في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب.

الثاني: أن هناك مجالاً عريضًا بجانب العلم والدين هو الفنون والآداب. وهذا المجال أقرب إلى الدين منه إلى العلم، لأن قاعدته هي القلب الذي يمثل نبعًا مشتركًا للأديان وللفنون والآداب... ولكن له طبيعته الخاصة، فهو دين بلا وحي، ومن ثم يهيم في أودية الخيال ويفترض أن يسمح له بهذا وأن لا توضع الكوابح – بقدر ما يمكن – عليه، لأن ضبطه بالكوابح يفقده طبيعته الخاصة دون أن يعطيه طبيعة الدين. وكما لا ينبغي للدين أن يكون فنًا، فكذلك لا يفترض في الفن أن يكون دينًا.

الفصل الثالث
أثر القلب على العقل

مما يلفت انتباه كل واحد يقرأ القرآن، أنه يستخدم كلمة "القلب" كأداة للفكر والفقه فهو لا يحصر ملكة الفكر في العقل، ولكنه يُشرك به القلب، ولا يورد هذه الظاهرة مرة واحدة، ولكن مرات عديدة:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (179 الأعراف)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (46 الحج)

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (24 محمد)

﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ (87 التوبة)

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (93 التوبة)

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (46 الإسراء)

ففي هذه الآيات كلها جعل "الفقه" و "العلم" من خصائص القلب.. وجعلت القلوب التي لا تفقه كالعيون التي لا تبصر.

كما يصف القرآن القلوب بأنها أوعية الإيمان والتقوى والسكينة.. والزيغ والشك والمرض.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ (4 الفتح)

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (27 الحديد)

﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (7 الحجرات)

﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (14 الحجرات)

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ﴾ (5 فصلت)

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ﴾ (93 البقرة)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ (7 آل عمران)

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ﴾ (49 الأنفال)

﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (45 التوبة)

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ (125 التوبة)

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (53 الحج)

﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (22 المجادلة)

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (14 المطففين)

وهذه الإشارات العديدة لوظائف القلوب في الفقه والعلم والإيمان والكفر تثير التساؤل عن مدى خلوص عقلانية الإسلام من المؤثرات التي تنال من نقائها وموضوعيتها، إذ هي تثبت أن للقلوب نصيبًا في عملية الفهم، والفقه.. التي عادة ما تنسب إلى العقل وحده.

لقد خلص بعض المفسرين من هذا التساؤل بالقول إن مقصود القرآن من كلمة "القلب" هو العقل، وبهذا لا يكون هناك إشكال، ولكننا لا نسيغ هذا، فلو أن القرآن

يريد العقل لما كان هناك مبرر للتعبير عنه بالقلب[12]. والقرآن الكريم لا يستخدم الكلمات اعتباطًا. بل إن المترادفات فيه يكون لكل منها معنى خاص، فما بالك إذا كان مفهوم كلمة ما يختلف صراحة عن مفهوم كلمة أخرى؟ إن الخلط بينهما لا يجوز.

في نظرنا أن القرآن أراد أن يفصل في قضية تفاوتت فيها الآراء، تلك هي الاختلاف ما بين العاطفة التي جرى العرف أنها تستقر في القلب، وبين العقل الذي يتصل بالمخ، والصراع بين "العاطفيين" و "العقليين" وما يذهب إليه كل منهما من سبق معتقده. "وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن العاطفة هي أساس الحضارة". فأراد القرآن أن يوضح أن لكل من العاطفة والعقل مجاله وأنهما في الإسلام يتكاملان لا يتناقضان، فالعقل يتجاوب مع الصواب والخطأ الذي تبنى عليه العلوم، والعاطفة تتجاوب مع منطق الخير والشر، الجمال والقبح الرحمة والقسوة.. إلخ وأن العاطفة (القلوب) عندما يتولاها الدين بالتوجيه والضوابط فلا يكون هناك بأس أو خطر من تفاعلها مع طبيعتها، لأن الدين الذي تتفاعل معه العاطفة، بحكم تنزيله من الله يتعالى على أهواء العاطفة، وما يمكن أن تنتهي إليه ما لم يوجد ما يكبح جماحها ويستخدم زخمها وتفاعلاتها في سبيل الخير والجمال، وليس الشر والقبح وبهذا تتلاقى مع العقل، حتى وإن جاءت من منطلقها الخاص. وقدمت إضافتها المتميزة. ويمكن بالتالي القول إن القلوب "تفقه" "وتعقل" حتى وإن كان فقهها لا يستخدم أداة العقل، ولكن حس القلب – ويمكن القول إن الإنسان يستشعر ويتجاوب بحكم وجدانه أولاً ثم يأتي دور العقل لكي يمحص هذه المشاعر، فيقر بعضها، ويرفض البعض الآخر ويقف عاجزًا أمام قسم ثالث. وفي كثير من الحالات يكون الوجدان أهدى سبيلاً وأرهف حسًا من العقل، خاصة إذا خضع هذا العقل لمران وتعسف اتجاهات فكرية معينة. ومع أن القلب – عضويًا – ليس إلا مضخة للدم. فإنه أكثر من أي عضو آخر يرتبط بالدم. وقد يكون في الدم من أسرار التأثير على الإنسان. وتصرفاته وسلوكه – ما لم يكتشفه العلم بعد.

والإنسان أشبه بقارب – القلب منه هو الشراع ما إن يمتلأ بالعواطف والأحاسيس حتى ينتفخ ويندفع القارب على صفحة الماء بقوة وسرعة أو بهدوء واتزان طبقًا لدرجة انفعال القلب بالعواطف، والعقل هو "الدفة" في هذا القارب التي تحول دون أن يتجه نحو الصخور ويتحطم عليها أو يتيه وسط خضم الماء دون أن يهتدي إلى شاطئ النجاة.

وقد يستغرب بعض العقلانيين أن يكون للقلب دخلاً في عملية الفهم والعلم. وإن كان آخرون قد استشعروها دون أن يفهموا سرها أو يحلوا مغاليقها. ولعل خير من يحدثنا عن هذا هو أحد أعلام الطبيعة الحديثة، وصاحب نظرية "الكوانتم" العالم الألماني "ماكس بلانك" في كتابه "إلى أين يذهب العلم" الذي عالج فيه مبدأ "السببية" العريق بعد نظرية "الكوانتم" وكان البعض قد ذهب إلى أن هذه النظرية عطلت مضي "السببية" ودارت فكرة ماكس بلانك حول ضرورة فهم مضمون "السببية" كما فرق بين نشاط نفسي.. ونشاط علمي. وأن الحقائق التي تسود عالم العلم ليست إلا جانبًا من جوانب المجال الكبير الذي يغطيه الفكر الإنساني. ولاحظ أن الخيال الإنساني، وإن كان يبدأ من حقيقة، إلا أنه كثيرًا ما يجاوزها. وأن هذه الحقيقة هي الأصل في الفنون والموسيقى، وقال إن العلوم نفسها تحتاج إلى دفعة من الخيال وإن هذا شرط لازم لإقامة الفروض والتنسيق بينها. وإن المخيلة تضع فرضًا ثم يأتي دور التجريب لاختبارها. وقد يثير هذا الاختبار رؤية أخرى، أو ينتهي إلى فرض معين.

ومرة أخرى قال إن الخطوة الأولى التي يأخذها كل فرع متخصص من العلوم تتكون من قفزة إلى عالم الميتافيزيك[13]. "ما وراء الطبيعة".

---

12 **(?) على أنه قد يكون لهذا التفسير – الذي ذهب إليه ابن عباس – بعض الوجاهة إذا أريد به الفص الأمامي من المخ الذي يضم التفكير والإدراك والإحساس والعاطفة معًا.**

13 **)? (I have said that the first step which every specialized branch of science takes consists of a jump into the region of metaphysics. where is science going by max Planck p 138..**

وفي القيام بهذه القفزة، فإن الباحث يكون واثقًا في الأساس الذي يقوم عليه الفرض الذي انتهى إليه. إن أي تفكير عقلاني مجرد ما كان يمكن أن يهديه لذلك. خاصة وأن الاكتشافات الكبرى اتصفت بالتجرد التام من أي غرض نفعي، أو هدف تطبيقي. وبعبارة أخرى فإن المبادئ الأساسية والفروض التي لا غناء عنها في كل فرع من الفروع المثمرة للعلم لم توضع على أساس منطق خالص ولكن على افتراض ميتافيزيقي لا يمكن لأي منطق أن يفنده. هو أنه يوجد عالم خارجي مستقل عنه تمامًا([14]). وعبر وعينا فحسب نعرف أن هذا العالم موجود. وهذا الوعي يمكن أن يسمى إلى حد ما "حاسة خاصة". ويمكن للمرء أن يذهب حتى إلى درجة القول إن وجود العالم الخارجي يطرق وعي كل واحد بطريقة خاصة. وإن علينا أن نضع هذا في الحسبان عندما نتعامل علميًا مع أي ظاهرة طبيعية. إن الصفة الأولى والأكثر أهمية لكل طرق التفكير العلمية هي التمييز بين الهدف الخارجي للملاحظة، والطبيعة الداخلية للملاحظ.

ومن النقط التي يعرضها بلانك – ويعود إليها في أكثر من موضع من كتابه هو أن الروح التي تدفع رجل العلم الحقيقي للبحث روح التجرد.. والتفاني والاستشفاف والشوق.. وهو بالطبع يفرق هنا ما بين كبار المكتشفين وبين رجال الأبحاث في المصانع والشركات الذين يقومون بأبحاث نفعية تطبيقية بحتة تخضع لمصالح الشركات – فالأولون يبحثون بروح البحث.. وفي أعماقهم إحساس بالمطلق الذي يكافحون لا للوصول إليه – ولكن للاقتراب منه.

وكان من النتائج التي أشار إليها في ثلاثة أو أربعة سطور قاطعة، أن نظرية النسبية لا تهدم فكرة المطلق، بل على العكس إنها تثبتها، لأنه لا يمكن أن تكون هناك نسبية إلا قياسًا على المطلق([15])، كما أنه من ناحية أخرى أثبت استحالة الوصول إلى المطلق، لأنه مثال نضعه أمامنا دائمًا، وبالتالي لا يمكن الوصول إليه، ولكن هذا ليس مخيبًا – لأنه كما قال ليسنج: "ليس الحصول على الحق" ولكن الكفاح للوصل إليه هو ما يضرم الفرح في قلب الباحث".

ونقد بلانك النظرية الوضعية التي لا ترى مصدر المعرفة سوى الإدراك الحسي فقال إن هناك حقيقتين تدور عليهما كل علوم الرياضة. الأولى أن هناك عالمًا حقيقيًا خارجيًا. مستقلاً عن مداركنا. والثانية أن هذا العالم غير معلوم مباشرة، أو تمامًا. وهاتان الحقيقتان تسمحان بدخول عنصر غير عقلاني، أو صوفي يلتصق بعلم الطبيعة، كما يلتصق بأي فرع آخر من فروع المعرفة البشرية، إن الحقائق المعروفة للطبيعة لا يمكن أن تستكشف عن طريق أي فرع من فروع العلوم. وهذا يعني أن العلم لن يكون في وضع يستطيع معه أن يحل تمامًا المشكلات أمامه، وأن حل أي مشكلة إنما يعرض مشكلة أخرى.

وعند حديثه عن الحرية الفردية وعلاقتها بقانون السببية (الذي يعد رمزًا للعقل والعلم) رأى أن هناك نقطة تقف عندها السببية ولا تستطيع تجاوزها تلك هي الذات أو الأنا ego، وهي مصدر آلامنا وآمالنا، وهو يقول إنه من ناحية المبدأ فقد لا يكون هناك ما يمنع من أن نستكشف العلاقات السببية لتصرفاتنا وسلوكنا، ولكنه لا يحدث عمليًا، لأن الملاحظ، وموضوع الملاحظة واحد، وهذا مستحيل فالعين لا ترى نفسها.

وقد يظن البعض أن هذا العجز يعود إلى نقص مداركنا، ولكنه خطأ، وهو يشبه أن ننسب عجز رجل يجري للحاق بظله إلى نقص قدرته في العدو. وحقيقة إن التصرفات الحية والآنية لا يمكن أن تخضع لقانون السببية تعود إلى أساس منطقي سليم تمامًا، مثل مبدأ أن الجزء لا يمكن أن يكون أكبر من الكل. وحرية الذات بين حين وآخر واستقلالها عن قانون السببية هي حقيقة يمليها علينا الوعي الإنساني.

---

14)? **(In other words, the fundamental principles and indispensable postulates of every genuinely productive science are not based on pure logic but rather on the metaphysical hypothesis- which no rules of logic can refute-that there exists an outer world which is entirely independent of ourselves. Ibid p. 138.**

15)? **(Ibid – p 195.**

ويستبعد بلانك في أكثر من موضع من كتابه تمامًا التعارض ما بين العلم والدين، لأن أحدهما يكمل الآخر، فالعلم يضعنا على أبواب النفس – ليتلقفنا الدين، وكل شخص جاد ومفكر يتبين أن العنصر الديني في طبيعته يجب الاعتراف به – وتهذيبه – إذا أريد لكل قوى النفس الإنسانية أن تعمل بتوازن وتناسق.. وليس من الصدفة أن كل المفكرين في كل العصور كانوا مؤمنين.. حتى وإن لم يظهروا عاطفتهم الدينية.. وقد ظهرت أروع ثمار الفلسفة نتيجة تعاون الفهم مع الإرادة. أعني بها القيم المعنوية.

وختم المؤلف كتابه بحوار أجراه مع بلانك وإينشتين وضعه تحت عنوان "حوار سقراطي" أشار فيه إلى الشك الذي يسود الناس في العلم والدين، فرد بلانك "لقد عجزت الكنيسة عن أن تقدم الملاذ الروحي ولهذا اتجه الناس اتجاهات أخرى". فسأله – هل تعتقد أن العلم يمكن أن يكون بديلاً عن الدين؟ فقال: كلا ليس بالنسبة لعقل ثائر. إن العلم يتطلب روحًا مؤمنة. إن كل واحد يعمل بجدية في مجال العلم. من أي فرع. يتبين أن على مدخل معبد العلم يعلو شعار "يجب أن يكون عندك إيمان".. إنها صفة لا يمكن للعالم أن يستغني عنها.

إن الفرد الذي يتعامل مع مجموعة من النتائج حصل عليها من إحدى التجارب، لا بد أن يتوفر له رؤية imaginative picture عن القانون الذي يتابعه، وعليه أن يجسم ذلك في إفتراض خيالي. إن الملكات العقلية وحدها لن تدفعه خطوة لأنه لا يمكن أن يظهر أي نظام وسط فوضى التناحر، ما لم يكن هناك خاصية بناءة تقيم النظام. بإبعاد عناصر الفوضى. وقد تتحطم الرؤية المتخيلة التي يراد إقامة المشروع عليها ويكون عليه أن يحاول مرة أخرى وهذه الرؤية المتخيلة، والإيمان في الملاذ الأخير هي مما لا يمكن الاستغناء عنه. إن العقلاني الخالص ليس له مكان هنا([16]).

ويضرب بلانك المثل على ما ذهب إليه بحياة "كبلر" الذي عانى غصص الفاقة والظروف القاسية. وتوضح دراسة حياته أن العامل الذي أعطاه الصلابة والقوة، وحال دون تسلل الوهن أو الضعف هو إيمانه، في وجود نظام مرسوم وراء الخلق وهذا الإيمان أضاء حياته البائسة، وجعله يضع أبحاثه في إطار فسيح، لانهائي، فإذا قارنت "كبلر" بتكوبرا هي Tycho de Brahe الذي توفر له ما لم يتوفر "لكبلر"، وجدت أنه لم يرتفع عن مستوى الباحث، لأنه لم يكن عنده إيمان في وجود القوانين الخالدة وراء خلق الكون على حين أصبح "كبلر" خالق علم الفلك الحديث.

وسأله المؤلف: لقد كنت دائمًا تقول إن تقدم العلم يتكون من اكتشاف سر جديد في اللحظة التي يظن المرء فيها أنه قد حل سرًا آخر.. وقد فتحت نظرية الكوانتم مشكلة أمام مبدأ "السببية" وتطلبت إعادة النظر فيه.

قال بلانك إن هذا صحيح. إن العلم لا يستطيع أن يحل السر الكامل للطبيعة. وهذا يعود إلى أننا في الملاذ الأخير جزء من الطبيعة. إن الفنون والآداب محاولتان للتفسير، ونحن نجد أنفسنا دائمًا في مواجهة "اللاعقلاني". وإلا لم يكن لدينا إيمان – وإذا لم يكن لدينا إيمان، أو إذا استطعنا أن نحل كل مشكلة باستخدام العقل البشري. فما أثقل أعباء الحياة عندئذ إذ لن يكون لدينا فن ولا موسيقى. ولا دهشة، ولن يكون لدينا أيضًا علم. ليس فحسب لأن العلم سيفقد جاذبيته العظمى أمام أتباعه – وأعني بها ملاحقة المجهول – ولكن أيضًا لأن العلم سيفقد حجر الأساس في بنائه. ألا وهو الإدراك المباشر للوعي بوجود الحقيقة الخارجية. وكما قال أينشتين فإنك لن تكون عالمًا ما لم تعلم أن العالم الخارجي موجود حقيقة. وأن المعرفة لا تكتسب بأي عملية من العمليات العقلية، ولكنه استبصار مباشر – ولهذا فإن طبيعتها قريبة مما نسميه "إيمان. إنها عقيدة ميتافيزيقية([17])".

---

16)? (This imaginative vision and faith in the ultimate success are indispensable. The pure rationalist has no place here. Ibid p. 215..

17)?) As Einstein has said, you could not be a scientist if you did not know that the external world existed in reality; but that knowledge is not gained by nay process of reasoning. It is a direct perception and therefore in its nature akin to what we call Faith. It is a

وكلام بلانك قريب جدًا مما ذهب إليه القرآن الكريم فهو يرى أن العقلانية الجافة لم تكن نقطة البداية للمستكشفين والعلماء، ولا هي تملك الصفة النظامية التي تجعل البحث يدور حول محور ولا القوة التي تجعل الباحثين يتابعون بحثهم رغم أن ما يصلون إليه من حلول، يعرض لهم في الوقت نفسه مشاكل جديدة. وأن الروح الرسالية، والروح الإيمانية لا بد أن تتملك الباحث أولاً، وأن هذه الروح لكي تكتسب قوة الدفع، والقدرة للتغلب على الصعاب لا بد أن ترتبط بالكون كله. بالعالم الخارجي الرحب الفسيح المستقل عنا. فإذا لم يكن العقل المجرد، العقل الرياضي يملك هذه القوة، فإن القلب الذي جعله القرآن وعاء للإيمان وأداة للإحساس والشعور يملك هذه القوة.

ومع أن بلانك لم يذكر القلب صراحة فإن كل كلامه يؤدي إليه ويصب فيه.

وقد يكون مما يستحق الإشارة أن علماء الطبيعة هم أقرب العلماء إلى الدين، لأن رجل الدين ورجل الطبيعة ينظران إلى السماء: الأول عبر القرآن الذي وصف السموات والأرض والشمس والقمر والرياح والأمطار والسحب، وكلها دليل على وجود الله. والثاني عبر التلسكوب الذي يريه هذه كلها رأي العين وينتهي به إلى اليقين الذي انتهى إليه رجل الدين وكلام أينشتين في هذا لا يختلف عما يقول رجل الدين وهو خير ما يدلل به على أثر القلب على العقل وقد كان في أواخر عمره يقول "إن الافتراضات التي أمكن التوصل إليها بالطرق المنطقية الخالصة كانت فارغة من الحقيقة تمامًا" واستطرد: "أؤكد أن الإحساس الديني الكوني هو أقوى وأنبل محفزات البحث العلمي"([18]).

وقبل بلانك وأينشتين أوصى جيته تلميذه أيكرمان "أن نفكر بالقلب".

وهناك رؤية أخرى ليست هذه المرة، من أحد علماء الطبيعة ولكنها للمفكر البريطاني C.E.Joad الذي رزق خلال الخمسينات جانبًا من الشهرة، وأصدر عددًا كبيرًا من الكتب عن الفلسفة، ووجهة نظره تلك نشرتها له المجلة العقلانية Rational Review عام 1946 تحت عنوان "لم أعد بعد عقلانيًا" On Being No Longer a Rationalist قدم لها بأنه لم يكن عقلانيًا بالمعنى الحاد، فإنه لم يؤمن أبدًا بأن المادة هي الصورة الوحيدة للوجود، ولم يكن حتميًا determinist أي يؤمن أن حالة العالم، أو أي جزء منه، في لحظة ما، إنما هي نتيجة توزيع وتفاعل القوى التي سبقت هذه اللحظة، أو طبيعيًا naturelist - بمعنى أن يؤمن بأن كل ما هو موجود إنما يعود إلى النظام الطبيعي الذي يمكن أن يكتشف بالعلم. وحصيلة هذا أنه لم يكن يؤمن أن العلم وبالتالي العقل هو الصورة الوحيدة للمعرفة، أو أنه المعيار الوحيد لمعرفة الحق.

ومع هذا فإن "جود" يعترف بقدرة العقل الإنساني لأن يصل بإعمال الفكر إلى النتائج التي تتفق مع الواقع، مع تحفظ هام، هو أنه يرى أن العقل ليس حرًا، أو مجردًا، فهو لدى الماديين وظيفة جاءت من المخ. وطبقًا لهم فأفكارنا انعكاسات مخنا. والمخ ليس إلا عضوًا يتكون من ملايين الخلايا. فأفكارنا التي يفرزها المخ لا يمكن أن نقول إنها خطأ أو صواب، ولكن يمكن القول إنها سليمة كيميائيًا بقدر ما تكون عمليات المخ سليمة. فإذا كانت النظرية المادية هي وليدة فكر المخ، فلا يمكن القول إنها حقيقية.

---

metaphysical belief. Ibid p 218.

18 **(? (Even Einstein toward the end of his life, claimed that propositions arrived at by purely logical means were completely empty of reality. He went on to say, It is very difficult to explain this feeling to anyone who is entirely without it. I maintain that cosmic religious feeling is the strongest and noblest incitement to scientific research. Quoted in Dancing in the Light by Shieley Mac Laine P. 353.**

ورأى Joad أنه من الضروري وجود عنصر له نشاط مستقل أو قوي، وظن أنه وجد ذلك في "الوعي الإنساني" الذي يجمع الحياة والمادة، ويمكن أن يكون قد بدأ في صورة غير واعية، ثم استكمل الوعي عبر الحياة العضوية، والخبرات، التي مرت بها الأجيال. خاصة وأن الخصائص المكتسبة لا تفقد بالموت، ولكنها تنتقل للأجيال التالية.

وهذا الوعي لا يقتصر على العقلانية ولكنه يضم أيضًا الحق والطبيعة، والجمال، باختصار القيم. وعند هذه النقطة وجد جود نفسه مدفوعًا لأن يقول إن هذه القيم ما لم تكن موحدة فإنها تفقد الكثير من وزنها وأثرها وفعاليتها.

ويدفع Joad بعنصر جديد إلى الحلبة وهو "الشر"، وهو يرى متأثرًا بما حاق بالبشرية من ويلات الحرب العالمية الثانية وسوءات النظم الشمولية. أن الشر أصيل في النفس الإنسانية. وأن هذا هو ركيزة فكرة الخطيئة في المسيحية، وكل الذين نبذوه أو عاملوه كعامل طارئ أو سطحي وقعوا ضحية المناخ العقلاني للتفاؤل الساذج، وفكرة أن العالم سيدخل العهد الذهبي تحت لواء الشيوعية أو المحللين النفسيين، وهو أمر يتناقض مع الوقائع والحقائق. وما لم يعالج معالجة حاسمة فإنه يهدد البشرية بالتدهور والانحطاط.

وكلمة جود توضح مواقف كثير من المفكرين الأوربيين، فلا يمكن أن يكون في العقلانية وحدها، وبالمعنى الضيق والمجرد أو في الحتمية أو الطبيعة رضا ومقنع لأي مفكر يستوعب الحياة والفكر والكون، إذ العقلانية وحدها فقيرة وجزئية وعاجزة تمامًا عن الإشباع والإقناع.

والإضافة التي جاء بها جود هي إبراز قوة "الشر" أو الخطيئة وهذا أمر عنيت به كل الأديان بصور متفاوتة. وقد أبرزه الإسلام بصورة متوازنة، فإنه لم يقلل من أثر الشر، ولكنه كذلك لم يتجاهل الخير ووضعهما متقابلين: إغراء الشياطين وهداية الأنبياء، الضعف البشري والمدد الإلهي، وقد يكون إبراز جود لقوة الشر أمر أكثر جدوى في إظهار نقص العقلانية، وإنها تعجز عن أن تقود العالم، ولا بد من قوة أخرى تقف للشر بالمرصاد. ولكن جود كمسيحي لم يعن كثيرًا بأن يلحظ أن فكرة الفداء المسيحية قد تقلل من تقدير أثر الشر والخطيئة.

واستشهد جود في كتابه "انتعاش الإيمان" الذي نشر عام 1951 أي بعد خمس سنوات من تاريخ الفقرات السابقة بفقرة جاءت في كتاب برتراند رسل "المنطق والإيمان" نصها:

".. إن التعارض ما بين العقل والملكات الغريزية هو في الحقيقة تعارض وهمي. لأن هذه الملكات هي التي تؤدي إلى الأفكار والعقائد، ويكون على العقل بعدئذ تفنيدها أو تأكيدها. وحتى هذا فإنه يتم بالتوفيق ما بين أفكار وعقائد سابقة. فالعقل هو عنصر تنسيق وتواؤم أكثر مما هو عنصر خلق وإبداع. وحتى في المجالات المنطقية الخالصة، فإن البصيرة هي التي تصل أولاً إلى الجديد.

ومن رأي رسل أن التعارض ما بين العقل والعقيدة إنما يحدث لدى بعض الناس عندما يضعف العقل أو عندما تكتسب العقيدة قوة أحادية مفردة. لا تلحظ الجوانب الأخرى. فالتعارض ليس أصلا بين العقل والعقيدة[19]".

وبناء على هذه النتيجة، انتهى جود إلى أن الدين ثمرة لاقتران العقل بالحدس أو البصيرة، وأن من الخطأ إعادة العلم إلى العقل وحده.. وإعادة الدين إلى البصيرة وحدها.

***

واستعراض الآيات القرآنية للقلوب مع الاستئناس بما جاء بالأقوال السابقة التي بينت بعض ما كان غامضًا في هذا الصدد، يظهر لنا أن القرآن الكريم يخص القلوب

[19])? **(The Recovery of Faith by C.E.Joad. Faber & Faber. London pp 114-115.**

أكثر من العقول بالجانب الإيماني في عملية الفكر، بمعنى أنه يفترض وجود إيمان يستلهم أصلاً من القلب، لكل من يتصدى لمعالجة قضية فكرية وعلمية.. إلخ، حتى لو كان هذا الإيمان هو الإيمان بالحقيقة الموضوعية.. والمجردة، بل إن هذا الإيمان هو أرقى مستويات الإيمان. لأنه بقدر ما يصَّاعد ويرتقي، بقدر ما يقترب من فكرة "الله" وبهذا يتلاقى مع الدين في أبرز معانيه. وهذا الإيمان هو ما يكفل للباحث العلمي استمرار دفعته لمواصلة البحث، وما يحول دون تراخيه، أو تغلب عوامل القصور والانتهازية. وبدونه يصبح البحث العلمي عملاً روتينيًا يتطرق إليه ما يتطرق إلى الروتينية والوظيفية من نقص، أو تتغلب النفعية وتفقد العقلانية موضوعيتها.

وتوضح إشارات القرآن إلى القلوب أنها أوعية للإيمان أو الكفر، الخير أو الشر، الرحمة أو القسوة. ومن ثم جاء تمثيل القرآن الكريم للإيمان والكفر بأربعة نسوة (امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ومريم) وأنزل الله الأديان على القلوب نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المرسلين ووكل حملها إلى الأنبياء، وليس الفلاسفة، وجعل حجتها التأمل والتفكير وهو صعيد مشترك يتلاقى عليه العقل والقلب ويتفاعلان. واعتبر المبرر الأكبر للنجاة يوم القيامة، "القلب السليم" يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ* إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89-88 الشعراء).

وأكد هذا المعنى الرسول في كثير من الأحاديث "التقوى ها هنا يشير إلى صدره ثلاث مرات" جزء من حديث رواه مسلم "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس" وكذلك "استفت قلبك. وإن أفتوك وإن أفتوك" وكذلك "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهي القلب" ويمكن تطبيقا لهذا – أن يفهم ما روي عن الإمام أحمد بن حنبل عندما أخبر عن شخص أفتاه فقيهان برأيين مختلفين فقال "لا يجوز له العمل بأيهما شاء، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع ما يطمئن إليه قلبه" ففي كل هذه الشواهد جعل اطمئنان القلب دليل الإيمان.

وقد رأى الفقهاء أن النية هي شرط كل طاعة بها تصير كل عادة عبادة" والنية هي "قصد القلب إلى عمل" فقصد القلب وراء كل الأعمال، وهذا هو الأصل في الحديث "الأعمال بالنيات" فالنية هي روح الأعمال.

ولا نكران أن العقل ووسيلته العلم، نور يكشف الصواب والخطأ، الخير والشر، الهدى والضلال، ولكن النقطة الهامة هي أن العقل وحده لا يجعل الإنسان يؤثر الخير على الشر والهدى على الضلالة.. والصواب على الخطأ. أن ما يملك هذا هو القلب المؤمن. إن شحنة الإيمان هي وحدها التي تستطيع أن تغلب نوازع الشهوة والضعف وبدون هذا الإيمان، فلا شك أن زينة الحياة الدنيا وجاذبيتها من جمال أو مال أو سلطة، ستستحوذ على النفس البشرية وستطمس نور العقل، فالشهوات لها بريق ووهج أقوى من نور العقل الهادئ المستكن.

وهذا الجانب هو من خصائص العقلانية الإسلامية. إن الإسلام يفترض في عقلانيته "الخيرية" فكل ما يوحي به العقل انسياقًا وراء الشر وخضوعًا للشهوة. فإن العقلانية الإسلامية لا تعتد به – كما سيلي في الفصل السادس من هذا الكتاب.

وجعل القرآن القلوب أوعية للإيمان، يجعلها بالتبعية أوعية للعاطفة وبالتالي مصادر الفنون والآداب. وتلك نقطة لم ترد بهذا التحديد في القرآن، ولكنها النتيجة المترتبة على جعل القلوب أوعية الإيمان وإشراكها في الفكر، فإنها لا يمكن أن تحل معادلة رياضية ولكن أن تنظم قصيدة أو تلحن أغنية.. وهذا الجانب له وسيلة وهدف يختلفان عن وسيلة وهدف العقلانية، ولكنه يوجد نوعًا من التوازن في الحياة ويستكمل جانبًا هامًا لا يمكن للعقلانية الجافة أن تقوم به، وبهذا يوجد المجتمع السوي الذي يجمع ما بين علوم العقل وفنون القلب وهداية الإيمان..

وخلاصة إشارة القرآن إلى القلوب، ودفعها للإسهام في عملية الفكر والفقه ثلاثة أمور: الأول: إعطاء الفكر دفعة الإيمان والرسالية، وبهذا يكفل له البقاء والاستمرارية، والثاني: الخيرية وعدم اتجاه العقلانية المحايدة للشر، والثالث: إثراء

الحياة بصور من النشاط لا تنبثق عن العقل، ولكن عن "فقه" القلب.. وهي الفنون والآداب.

الباب الثاني
مقومات العقلانية الإسلامية

قد يتساءل البعض هل هناك عقلانية إسلامية وهل تختلف هذه العقلانية الإسلامية عن عقلانية أخرى، إن العقلانية لا تعني بالضرورة العقلانية الرياضية والحسابية التي لا تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان. فالعقلانية عندما تتصدى لعلاج المشكلات الكبرى بالنسبة للإنسان والمجتمع والكون تتفاوت فيما تنهجه من طرق.. وما تسلكه من مداخل، وما تنتهي إليه من نتائج. وقد لا يكون تعبير "أسلمة المعرفة" دقيقًا أو لا ينم عن طبيعة موضوعية، ولكن هذا لا ينفي أن للعقلانية الإسلامية مقومات متميزة عن غيرها فالعقلانية في مجتمع بورجوازي تضع أصولا اقتصادية وسياسية، وعلاقات تتلاءم مع الفكر البرجوازي، ولا يمكن القول إنها تتنافى مع أصول العقلانية.

كما تقيم العقلانية في مجتمع اشتراكي أوضاع الاقتصاد والسياسة فيها على مقدمات وأصول مختلفة، ولها مع هذا حظها من العقلانية.

والعقلانية الإسلامية تختلف عن العقلانية البرجوازية والاشتراكية، ولها مقومات تميزها وقد تتفق في بعض هذه المقومات مع غيرها، ولكنها تتميز بمقومات خاصة، لعل أبرزها "غائية" العقلانية الإسلامية، وأنها ليست "محايدة" أو "مجردة" إذ هي "خيرية"، وهي ترفض أي شيء يؤدي إلى الشر.. وهي صفة أخذتها العقلانية الإسلامية من مبدأ المسئولية ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾.. فالعالم والمفكر المسلم يؤمن أنه مسئول أمام الله عن ثمرة فكره وإبداع عقله.

وقد يقال إن "الالتزام" ليس مقصورًا على العقلانية الإسلامية، إن العقلانية الاشتراكية أيضًا ملتزمة، وهذا صحيح، ولكن التزام العقلانية الإسلامية هو أمام الله تعالى وهو ينبع من الإيمان الخالص. دون أي مؤثر من ترغيب أو ترهيب، ولكنها في المجتمع الاشتراكي تلتزم بالسلطة وبالفكر الذي تمثله السلطة.. والفرق شاسع..

ويعالج الباب مدخل الإسلام إلى العقلانية باعتبار إعمال الفكر سبيل الإيمان، ثم يناقش فكرة الإسلام عن "الموضوعية" و"السنن" ويختمها بالصفة "الخيرية" للعقلانية الإسلامية.

الفصل الرابع
المقوم الأول: إعمال الفكر سبيل الإيمان

لما كان الإسلام يؤذن بالعقل على ما أوضحنا، ويستبعد المعجزة الحسية كوسيلة للتوصل إلى الإيمان، ويتخذ من الكتاب آيته، ومن "اقرأ" وسيلته، فلا عجب إذا جعل إعمال الفكر سبيل الإيمان، لأنه ليس من طريق آخر.

وسلك القرآن لإبراز هذا الأصل مداخل متعددة تؤدي في النهاية إلى النتيجة المنشودة.

من هذه المداخل:

أ- استثارة الفكر:

فهناك مثلاً الدعوة للتفكير صراحة كأن يأتي الخطاب ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (184 الأعراف).

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (8 الروم)

أو تأتي الدعوة للتفكير ضمنية ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (191 آل عمران)

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (24 يونس)

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (219 البقرة)

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (44 النحل)

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (21 الحشر)

وقد يستخدم القرآن تعبير (يفقهون).

﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (65 الأنعام)

أو يستخدم تعبير (يتدبرون).. ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أم على قلوب أقفالها﴾. (82 النساء)

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (29 ص)

أو يستخدم (اعتبروا) ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾. (الحشر)

أو يستخدم كلمة (يتذكرون) على أساس أن التذكر نقيض الغفلة ﴿ أَفَمَن يَّعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (19 الرعد)

﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. (44 طه)

﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (221 البقرة)

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (25 إبراهيم)

﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (43 القصص)

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (51 القصص)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (27 الزمر)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ (41 الإسراء)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (50 الفرقان)

وقد يستخدم القرآن كلمة تذكرة.

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (12 الحاقة)

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (19 المزمل)

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ* فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (53 المدثر)

وكما هو معروف فإن من أسماء القرآن الذكر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (9 الحجر)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (41 فصلت)

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (6 الحجر)

وأهم من هذا كله إلحاح القرآن صراحة على اللواذ بالعقل واستفهامه الإنكاري على الذين يرفضون رسالات الأنبياء دون تفكير "أفلا تعقلون" وهو تعبير متكرر وروده في القرآن. ويفهم سببه من أن الله تعالى أنما أرسل رسله بالبينات ليكون ذلك حافزًا لهم على استعمال عقولهم أو بتعبير القرآن المتكرر (لعلكم تعقلون) فرفضهم وعدم تجاوبهم دليل على إهمالهم هذه الأداة الثمينة في الإنسان وبالتالي إصرارهم على الكفر ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (1 الملك)

وأكثر من استخدام مادة (العقل) استخدام القرآن لمادة (العلم) بدءًا من تلك الآية ذات المغزى البعيد التي صور فيها القرآن حديث الملائكة إلى الله عن آدم وصرح بأفضلية آدم على الملائكة وجعله خليفته رغم ما سيقوم به أبناؤه من سفك الدماء والإفساد، لعلمه الأسماء التي علمها الله إياه.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (34 – 30 البقرة)

وما من تسجيل لأهمية وقداسة العلم مثل هذه السطور لأنها توضح كيف أن الله تعالى جعل آدم خليفته وأمر الملائكة بالسجود له لأنه (يعلم الأسماء) وتقارب هذه الآيات الآية﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (18 آل عمران)

فهنا نجد أن الله تعالى أشرك مع الملائكة أولي العلم في الشهادة له بالقسط كما تدل الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ إن القرآن خص العلماء بمعرفة ما في خلق الطبيعة والجبال والنبات والحيوان، والجبال من دلالة بخشية الله.

ويمن الله تعالى على سيدنا محمد ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (113 النساء)

كما من من قبل على عيسى ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ (110 المائدة)

أما بالنسبة لعامة المؤمنين فإنه تعالى ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (11 المجادلة)

وقد أقسم الله تعالى بالقلم ﴿والقلم.. وما يسطرون﴾. (1 القلم)

﴿الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (1-4 الرحمن)

وبالطبع فلا يمكن أن ننسى أولى آيات القرآن نزولاً والتي دارت محاورها حول العلم والقلم والقراءة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (1-5 العلق)

ب- الشك مرحلة نحو اليقين:

ولأن الفكر والنظر والتدبير.. إلخ هي مداخل الإيمان بالله في القرآن الكريم كما أوضحنا فإن القرآن لم ير في الشك نقيضًا لليقين ولكن مرحلة نحوه. والقرآن بالطبع يفرق بين شك يستهدف الوصول إلى الحقيقة وتشكيك يراد به هدم الإيمان أو يستخدم من قبل أعدائها للنيل منها. ويصفه القرآن عادة بأنه مريب، والشك الأول بالطبع هو ما لا يرفضه القرآن وقد ضرب أمثلة له من النبيين أنفسهم.

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (75 – 79 الأنعام)

فهنا نرى كيف أن أفول الكواكب والشمس والقمر جعل إبراهيم يكفر بها كاله ويتخذ الذي خلقها إلهًا.

ولم يجد القرآن حرجًا في أن يذكر سؤال إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وقد استجاب الله تعالى له ولم ير في سؤاله انحرافًا أو ضعفًا أو كفرًا.

وكذلك لم يرفض القرآن طلب موسى أو يرى فيه مروقًا. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (143 الأعراف)

ولم يرفض المسيح طلب الحواريين إنزال مائدة وتعليلهم ذلك "تطمئن قلوبنا".

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ* قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(112 – 113 المائدة)

***

ولا نجد إشارات عديدة إلى الشك في الكتابات الإسلامية. رغم تقبل القرآن الكريم. ولكننا أيضًا لا نجد منهجًا يجعل الشك مدخلاً للتوصل إلى النتائج قبل منهج ديكارت في القرن السابع عشر. على أننا نجد نصين من أجمل وأكمل النصوص في جعل الشك منطلقًا لليقين وضعهما عالمان من أكبر علماء المسلمين، هما الغزالي، وابن الهيثم.

ومعظم القراء يذكر ما قاله الغزالي في "المنقذ من الضلال" عندما أراد أن يصف مسيرته الفكرية..

"ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ – قبل بلوغ العشرين إلى الآن. وقد أناف السن على الخمسين – أقتحم هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة. وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع

على باطنيته ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته. ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطله وزندقته.. إلخ.

وقد انتهت مسيرة الغزالي بإيثار التصوف باعتباره صورة للصفاء الروحي، وآثره على جدل علماء الكلام، وحيل فقهاء السلاطين، وهو الاختيار الجدير برجل يريد الحقيقة.. ويرفض الدنيا. لو لم تشب التصوف تلك اللوثات التي شانته..

والنص الثاني أقل شهرة، ولكنه أكثر دلالة في المضمون، وفي النتيجة، وفي جعل الشك منطلقًا لليقين.

وقد جاء في مذكرات ابن الهيثم الخاصة عام 417 هجرية..

".. إنني لم أزل منذ عهد الصبا مرتابًا في اعتقادات هذه الناس المختلفة، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي، فكنت متشككًا في جميعه، موقنًا بأن الحق واحد، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه. فلما كملت لإدراك الأمور العقلية، وانقطعت إلى طلب معدن الحق ووجهت رغبتي وحرصي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون، وبعثت عزيمتي إلى تحصيل الرأي القريب إلى الله جل ثناؤه المؤدي إلى رضاه الهادي لطاعته وتقواه، فكنت كما قال جالينوس في المقالة السابعة من كتابه "في حيلة البرء" يخاطب تلميذه "لست أعلم كيف تهيأ لي منذ صباي إن شئت قلت باتفاق عجيب، وإن شئت قلت بإلهام من الله، وإن شئت قلت بالجنون، أو كيف شئت أن تنسب ذلك، أني ازدريت عوام الناس واستخففت بهم واشتهيت إيثار الحق وطلب العلم واستقر الرأي عندي أن ليس ينال الناس من الدنيا شيئًا أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين".

فخضت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الديانات، فلم أحظ من شيء منها بطائل، ولا عرفت منه للحق منهجًا،ولا إلى الرأي اليقيني مسلكًا مجددًا، فرأيت أني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية. فلم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات، التي هي ذات الفلسفة وطبيعتها حين بدأ بتقدير الأمور الكلية والجزئية والعامية والخاصية، ثم تلاه بتقدير الألفاظ المنطقية وتقسيمها إلى أجناسها الأوائل، ثم أتبعه بذكر المعاني التي تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم، ثم أفرد من ذلك الأخبار التي هي عنصر القياس ومادته، قسمها إلى أقسامها، وذكر فصولها وخواصها التي تميزها بعضها من بعض ويلزم منه صدقها وكذبها ويعرض ومعه اتفاقها فاختلافها وتضادها وتناقضها، ثم ذكر بعد ذلك القياس، ثم ختم ذلك بذكر طبيعة البرهان وشرح مؤداه، ثم أخذ بعد ذلك في شرح الأمور الطبيعية، فبدأ في ذلك بكتابه في السماع الطبيعي، ثم أتبع ذلك بكتابه في "الكون والفساد"، ثم تلاه في كتابه "في الآثار العلوية"، ثم اتبعه بكتابه "في السماء والعالم"، ثم والاه بكتابه "في النفس".

فلما تبينت ذلك أفرغت وسعي في طلب علوم الفلسفة وهي ثلاثة علوم: رياضية وطبيعية وإلهية فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادئ التي ملكت بها فروعها، ثم إني لما رأيت طبيعة الإنسان قابله للفساد، متهيئة إلى الفناء والنفاد، شرحت ولخصت واختصرت من هذه الأصول الثلاثة ما أحاط فكري بتصوره، ووقف تمييزي على تدبره، وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الإيضاح والإفصاح عن غوامض هذه الأمور الثلاثة إلى وقت قولي هذا وهو ذو الحجة سنه سبع عشرة وأربع مئة لهجرة النبي "([20]).

---

[20] **(?) ابن أبي صبيعة عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص 552 – 553 طبع بيروت. استشهد بها في كتاب "القرآن ومعرفة الطبيعة " دكتور مهدي كلشني – طهران 1985 ص 42 – 43.**

فهذه النصوص توضح كيف أن بعض علماء المسلمين لم يكونوا بعيدين عن منهج الشك واتخاذه منطلقًا لليقين.

ج- الأنبياء كمعلمين:

ومما يتفق مع جعل الفكر والعلم طريق الإيمان أن يكون الأنبياء والرسل "معلمين" ورغم أن المعجزة كانت موجودة واستخدمت في حالات الأنبياء السابقين على الإسلام إلا أن هذا لا يحدث إلا بعد المكابرة المتأتية من "المصالح المكتسبة" والأوضاع القائمة التي تريد الأديان تغييرها بالذات ويريد هؤلاء الإبقاء عليها.. أما المهمة التقليدية والدائمة والتي يحقق بها الأنبياء رسالتهم فهي الدعوة والهداية طريق الإقناع والحوار والتعليم.. إلخ وقبل أن تظهر المطبعة ووسائل الاتصال الأخرى ووسط الأمية الضاربة أطنابها فإن مهمة الرسول المعلم كانت هي أن "يتلو" عليهم الكتاب وما يصطحب بهذا ضرورة من إيضاح وبيان وأخذ ورد.. ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. (151 البقرة).

وهذه الآية تكررت بحروفها تقريبًا في الآية 129 البقرة والآية 164 آل عمران والآية 2 الجمعة.

ومن أجمل الآيات وأكثرها وقعًا في تصوير دور رسول الإسلام﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ (164 آل عمران)

ففي هذه الآيات كلها يبرز القرآن الأنبياء كمعلمين يتلون الكتاب على الجماهير ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون ويستخدمون كبقية المعلمين الوسائل التعليمية والسيكولوجية المختلفة كاستثارة الفكر والاعتماد على العقل والمنطق السليم والرد – ردًا مقنعًا – على الأسئلة التي يتقدم بها الجماهير.. وهناك العديد من الآيات التي تبدأ بكلمة (يسألونك) وتتضمن السؤال والرد – وهي تضم السؤال عن الأهلة 189 البقرة والشهر الحرام 217 البقرة والخمر والميسر 219 البقرة و"ماذا ينفقون" 219 البقرة واليتامى والمحيض 222 البقرة والروح 85 الإسراء والجبال 105 الكهف إلخ...

ويدخل في دور الأنبياء التبيين والشرح والإيضاح ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾. (19 المائدة)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (4 إبراهيم)

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ (39 النحل)

ويعرض القرآن في آيات عديدة لا يمكن أن يتسع مجال البحث لإيرادها([21]) صورة للحوار ما بين الأنبياء وأقوامهم وكيف يدعونهم برفق. حتى فرعون الطاغي ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (44 طه).

وحتى يقول شعيب لقومه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (88 هود)

ويوجه القرآن النبي ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (125 النحل)

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (96 المؤمنون)

﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (34 – 35 فصلت)

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (199 الأعراف)

---

[21] **(?) انظر على سبيل المثال لا الحصر الآيات من 95 إلى 95 سورة الأعراف التي تتضمن "حوارات" نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.**

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (130 طه)

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ (60 الروم)

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (17 لقمان)

وبمثل تطبيق هذه التوجيهات ورحمة الله لهم استحق النبي ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (159 آل عمران)

وقد يُجمل القرآن دور الأنبياء كمعلمين في أنهم ينقذون شعوبهم من الظلمات إلى النور وهو ما يرمز به إلى الانتقال من الجهالة التي العلم والمعرفة. ففي الظلمات لا يمكن أن نرى شيئًا، ولكن النور يجعلنا نرى، ونعرف، وبقدر ما كان الأنبياء يعلمون، بقدر ما كانوا يدعون النور يبدد الظلمات.

د- الخلق دليل وجود الخالق:

ومن أبرز المداخل التي يسلكها القرآن ويجعل بها التفكير طريق الإيمان اعتباره الخلق أكبر الأدلة على الخالق وقوته وكماله. وقد يسوق القرآن الخلق كمجرد ظاهرة أو آية تثير التفكير ضمنًا وتبعث على إنعام النظر، وقد ينبه إلى هذه الإثارة صراحة ويربط ما بينها وبين الخلق وأن من المستحيل وجود هذه المخلوقات دون خالق، وتتضمن هذه المخلوقات كل شيء من أكبرها حتى أصغرها من الشموس والسماوات والأقمار إلى النمل والنحل والذباب والبعوض.. وهكذا تقرأ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (164 البقرة)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (190 آل عمران)

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (1 الأنعام)

﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (95 الأنعام)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (29 الشورى)

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (77 فصلت)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (20 الروم)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (22 الروم)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (14 – 12 المؤمنون)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (26 الحجر)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ (67 الحجر)

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (71 يس)

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (3-1 الأعلى)

وبالإضافة إلى أن هذه الآيات تثير الفكر وتدل على إعجاز الخالق فإنها تورد الحل لأكبر المشكلات.. الحياة والموت.. خلق الكون والشمس والقمر.. خلق الإنسان.. وتقصي مراحل هذا الخلق بدءًا من صلصال من حمأ مسنون أو تراب أو سلالة من طين أو صلصال كالفخار أو طين لازب تُبث فيه الحياة بنفثة من الله ليدخل بعد هذا في مراحل التطور البيولوجية من نطفة فعلقة فمضغة ثم العظام ثم اللحم، وهي إيضاحات تتفق تمامًا حتى مع الذين يرون نشأة الإنسان من "مادة" ويتفوق عليهم في أنه يحل اللغز الذي لا يزال قائمًا "من أين جاءت شرارة الحياة" ثم هو في بعض مراحل الحمل يتفق مع آخر الاكتشافات العلمية مما آثار عجب أساتذة الأجنة ودفع ببعضهم إلى الإسلام فتكرر بالنسبة لهم في القرن العشرين وبفضل الكشف العلمي ما حدث للعرب الأميين في القرن السابع.

ويوجه القرآن نظر المؤمنين إلى روعة الشمس والقمر.. الليل والنهار.. الموت والحياة.. الظلمة والنور.. الذكر والأنثى، وتلك الدقة التي يسير بها كل الكون كل يجري لأجل مسمى لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وحديث القرآن عن هذه الآيات يفوق أشد كتب الشعر غرامًا بالطبيعة وإعجازًا في وصفها فنظم القرآن فن وحكمة..

 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33 الأنبياء)

 ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61 الحج)

 يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13 فاطر)

 سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ* وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ* لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40 -36 يس)

ويتحدى القرآن المشركين والكافرين أن يخلقوا أو تخلق آلهتهم المزعومة شيئًا..

 يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73 الحج)

ومن النادر أن نجد صيغة مركزة مكثفة صادعة في التحدي مثل هذه وهي مع هذا صادقة كل الصدق فالعلم الإنساني بأسره يعجز عن صنع ذبابة أو حتى طائرة في حجم الذبابة وفي مرونة حركتها وطيرانها، فضلاً عن نفخ شرارة الحياة فيها الذي يجعل طيرانها ذاتيًا وإراديًا.

هـ- استبعاد عبثية الحياة وتأكيد غائيتها:

ويتقدم القرآن ليعزز ويدعم بذرة الإيمان التي لا بد وأن تنمو في الإنسان نتيجة للتفكير فيما بين يديه من (آيات) و (مخلوقات) بما فيها وجوده نفسه باستبعاده عبثية الحياة وتأكيده أن هذه الحياة لم توجد عبثًا أو تخلق سدى وأنها إنما وجدت لغاية وحكمة وبهذا يغرس القرآن فكرة الغائية ويفسح المجال للتفكير المنظم المنطقي المسئول قدر ما يستبعد العبثية واللامسئولية والعشوائية.

 أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ (115 المؤمنون)

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى* أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (36-40 القيامة)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (16 التوبة)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ (27 ص)

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (2 الملك)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ (16 الأنبياء)

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (3 الأحقاف)

ففي هذه الآيات كلها يستبعد القرآن العبثية، ويؤكد الغائية. والعبثية تعني العشوائية، والتلقائية والتخبط، باختصار الفوضى، في حين أن الغائية تعني الإرادة والفكر والنظام والتسلسل المنطقي من وسيلة إلى غاية، وقيام النتائج على مقدمات، وارتباط الأسباب بالمسببات. باختصار "العقل"، والشكل الكلي والأعظم والحي لهذا العقل يعود إلى الله تعالى، الذي خلق ونظم هذا الكون طبقًا للسنن التي وضعها له.

و- استخدام درجة أولية من المنطق:

يستخدم القرآن درجة أولية من المنطق تعتمد على البداهة والفطرة السليمة دون التطرق إلى صور من التعقيد المنطقي أو الترتيب الذي تقوم عليه طريقة المقدمات والنتائج.

ومن أمثلة (منطق القرآن).

﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ (81 يس)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (33 الأحقاف)

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (28 لقمان)

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (79 يس)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (22 الأنبياء)

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (91 المؤمنون)

ومقارنة هذا المنطق بمنطق الفلاسفة الذي استخدمه العلماء المسلمون نقلاً عن اليونان لإثبات وجود الله وحدانيته، يوضح الاختلاف الكبير بين منهج القرآن، ومنهج المناطقة التقليديين، ويبرز مدى بساطة وإحكام منطق القرآن وأن كل النفوس تسيغه وتفهمه وتقتنع به دون أدنى صعوبة.

ز- ضرب الأمثلة:

وقريب من هذا أن يستخدم القرآن الأمثال ليصل إلى الأفهام وليقرب إليها المعاني والأفكار بأشياء محسوسة وملموسة ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (26 البقرة)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ (89 الإسراء)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (54 الكهف)

ومن أمثلة القرآن:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَّشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (261 البقرة)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ* وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (26 -24 إبراهيم)

﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (35 النور)

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (75 – 74 النحل)

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (5 الجمعة)

ح- التنديد باتباع الآبـاء:

ومما يتفق مع دعوة القرآن لاستثارة الذهن وإعمال الفكر تنديده باتباع الآباء والأجداد إما من باب التقليد والاستراحة من عناء التفكير وتحمل مسئولية أو اعتزازًا ذاتيًا بهؤلاء الآباء..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (170 البقرة)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (104 المائدة)

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (28 الأعراف)

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ* قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (24 – 22 الزخرف)

ط- توظيف الحواس لاستثارة الفكر:

ويدعو القرآن لتوظيف الحواس لاستثارة الفكر ويوجه الناس لاستخدام حواسهم لاستشفاف الحقيقة.. فالله تعالى خلق لهم هذه الحواس ليتعرفوا على الحقيقة وليتوصلوا إلى درجة من الفهم والمعرفة يستوي في ذلك استخدام العيون أو الآذان أو الأقدام.. فهناك دائمًا توجيهات قرآنية انظروا.. استمعوا.. سيروا.. ويربط القرآن بين هذه التوجيهات والتوصل إلى الحقيقة أو إلى شاطئ الحقيقة.. وقد يأتي التوجيه القرآني في صيغة الاستفهام الانكاري "أو لم يروا.. أو لم ينظروا.. أو في صيغة الأمر للرسول "قل انظروا"...

﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (185 الأعراف)

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (101 يونس)

﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (50 الروم)

وقد يجمع في آية واحدة النظر والسير..

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (11 الأنعام)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (109 يوسف)

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (9 الروم)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآَخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (20 العنكبوت)

والربط ما بين "السير" و "النظر" و "السمع" وبين المعرفة والفكر أحد المناهج القرآنية الإسلامية.. فالمعرفة المحمودة في الإسلام هي المعرفة التي تفيد الناس أما إذا كان مجرد شقشقة من اللسان أو جدلاً شكليًا أو تفكيرًا دون هدف فإن الإسلام لا يحبذه تمامًا وأسوأ منه أن تستخدم المعرفة في المراء والجدل العقيم، والإسلام يتفق في هذا مع الدرجة الأولى والبدائية من العقلانية، درجة استخدام الحواس وتوظيفها للوصول للمعرفة.

ي- حرية الاعتقاد:

من القسمات التي يعنى القرآن بإبرازها خلال استثارته للفكر حرية الاعتقاد، ومن الغريب أن هذه الفكرة – رغم صراحة القرآن وتشديده وتكراره لها بعبارات قاطعة لم تجد تجاوبًا، بل نقول إنها نبذت تمامًا لأنها تخالف مخالفة حادة ما يدعو إليه السدنة وذوو المصالح الذين نصبوا أنفسهم قضاة على الناس وحكامًا في شئون إيمانهم. ونجحوا فعلاً في إيجاد رأي عام يستبعد حرية الاعتقاد، وانقلبت الآية فأصبح الحق باطلاً والباطل حقًا وبدلاً من أن يثير أي قيد على حرية الاعتقاد العجب والاستنكار أصبحت حرية الاعتقاد شيئًا يعاذ منه ويتعجب له...

ذلك لأن الاعتقاد ما دام يقوم على الإيمان القلبي فلا بد أن ينشأ بفضل الحرية والمبادأة في التفكير ولا يمكن أن يؤمن الناس قسرًا، وأي إيمان قسري لا قيمة له لأنه يتجرد من النية وهي أصل في الإيمان والعبادات ولأنه لا يقوم على تفكير ولأن صاحبه يكون مكرهًا فلا عقاب ولا ثواب.

من أجل هذا كله، فإن القرآن يقرر في آيات لا يتسع المجال لحصرها حرية الاعتقاد وأن الأنبياء أنفسهم لا سلطان لهم على قلوب الناس وأنما أرسلهم الله مبشرين ومنذرين ومبلغين ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ (99 المائدة)

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (35 الأنعام)

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (41 يونس)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (108 يونس)

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (82 النحل)

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (253 البقرة)

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (272 البقرة)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (119 – 118 هود)

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (256 البقرة)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (100 – 99 يونس)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ* إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ* إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (26 – 21 الغاشية)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ* وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (6 – 1 الكافرون)

كل هذه الآيات وهي قليل من كثير تقرر حرية الاعتقاد وتقصر مهمة الرسل على التبليغ والتبيين وتكل إلى الله تعالى يوم القيامة الفصل فيما يختلف فيه الناس وهذه الآيات لا تدع الضالين في ضلالتهم يعمهون لأن تبليغ الأنبياء رسالتهم وأداءهم لأماناتهم وقيامهم بدور المعلمين فيه ما يكفي لإقناع كل من ينشد الحقيقة، ولكنها لا تستخدم وسائل القسر والإكراه في هذا المجال فإذا كان ذلك سيخسر الإيمان عددًا من المصرين على الضلال فإنه سيفسح المجال لكل ذوي القلوب السليمة والضمائر الطاهرة للإيمان عن هدى وبصيرة واقتناع.

وكانت هذه التوجيهات ملحوظة في الأيام الأولى للإسلام وقد ذهب الرسول في سماحته مع المنافقين والمخالفين حدًا عاتبه القرآن عليه ولم تكن ردة المرتدين ردة عقيدة لأن معظمهم كانوا يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولكنهم ثاروا على حكم الخليفة الأول ومنعوا الزكاة وكانت ردتهم سياسية واقتصادية ولم يكن ثمة مناص من قتالهم وقد ذكر القرآن الردة أكثر من مرة ولم يرتب عليها عقابًا دنيويًا وإنما أوكل أمرها إلى الله كما سادت بيئة الحرية الفكرية اجتهاد الفقهاء والأئمة حتى وصلت الفتاوى إلى درجة التضارب.

أما ما يتصف به الفقهاء عادة من ضيق. بحرية الاعتقاد فهو داء كل الخبراء الذين يغلب التخصص والتعمق فيهم رحابة الصدر وسعة الأفق، وهو الداء الذي يصطحب ببلوغ العقيدة درجة "المؤسسة" بحيث تقترن الغيرة على الدين بالحرص على المصلحة، والحفاظ على التصور التقليدي. وهي ظاهرة لا تمس الإسلام بالذات ولكنها تصور بعض المآزق التي تتعرض لها الأديان. والفرق بين الإسلام والأديان الأخرى في هذا، أن الإسلام عندما استبعد الكنيسة التي تكون لها بحكم العقيدة سلطان على الإيمان، وعندما ائتمن الفطرة فإنه أوجد صمامات الأمان التي تحول دون أن ينتهي تعرض الإسلام لهذا المأزق بالوقوع فيه.. كما حدث بالنسبة للأديان الأخرى.

الفصل الخامس
المقوم الثاني: الموضوعية والسنن

مع أن القرآن يتقبل الشك كمرحلة في الطريق إلى اليقين، ويعتبر أن التفكير مفتاح التوصل إلى عقيدة الألوهية واستبعاد ما علق بها من شوائب وأوهام، إلا أن القرآن يوجه الناس إلى أن هناك "سننًا" وضعها الله لقيام المجتمع وسيره وتطوره، وأن هذه السنن ثابتة لا تتغير، كما أنه يوجه الناس لأن يسلكوا مسلكًا موضوعيًا وأن يبنوا أحكامهم على أساس موضوعي يبعد كل البعد عن "الذاتية"، وهو أمر طبيعي لأن القرآن ينبثق عن أصل، وأعم ما يتصور عن موضوعية: "الله" تعالى، وليس شرطًا أن يتحدث القرآن عن الموضوعية بهذا اللفظ، لأن للأديان لغتها الخاصة ومسمياتها التي تعطي المضمون نفسه باسم مختلف.

أ- الموضوعية:

يعبر القرآن الكريم عن الموضوعية تعبيرًا خاصًا به وهو "الحق". وهو تعبير يفضل كثيرًا تعبير الموضوعية للأسباب التي سترد. والقرآن يدعو المؤمنين للإيمان بالحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق. وفي هذا السبيل يحرم القرآن كل صور الهوى والغرض والأنانية والذاتية كائنة ما كانت وفي كل المجالات.

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ (2 المائدة)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (8 المائدة)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (135 النساء)

وتطبيقًا لهذا المبدأ في عدم الاعتداد إلا بالحقيقة وحدها واستبعاد العواطف والمشاعر التي تؤثر عليها أو تنقص منها أو تغيرها رفض الإسلام مبدأ التبني وأن يعطي الإنسان اسمه لابن ليس له﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (5 الأحزاب)

ورفض دعوى "الظهار".

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (2 المجادلة)

والتوجيه بالتزام هذا المسلك هو تطبيق لأصل عام عظيم هو (الحق) الذي نزل به الكتاب ودعا إليه الأنبياء ويعد المحور الذي تدور عليه قضايا المجتمع قاطبة. وقد يستخدم القرآن كلمة "العدل" والعدل هو الحق مطبقًا لأنه ليس إلا إعطاء كل ذي حق حقه ووضع كل شيء موضعه، ومن ثم جاء الربط بين – الوزن والحق ﴿ والوزن يومئذ الحق﴾ (8 الأعراف)

﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (81 الأعراف)

فالحق أعم من العدل ولهذا فإن ذكره أكبر في القرآن (227 مرة على حين ذكر العدل على أهميته الكبرى 27 مرة).

وتعبير "الموضوعية" فقير، مجرد، متهافت، أمام التعبير القرآني الحي القوي "الحق" ومن مثل هذه الآية وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42 البقرة) اشتقت الشهادة التقليدية "الحق وكل الحق ولا شيء إلا الحق" لأن الله تعالى هو أصل "الموضوعية الإسلامية"، وهو الأصل الذي تتساقط أمامه كل الذاتيات..

وفي آيات عديدة جدًا يكرر القرآن أن الغرض من إنزال الكتاب هو أن يكون لدى الناس الحق الذي يحكمون به ويفصلون به في خلافاتهم وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (213 البقرة).

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ (105 النساء)

على أن القرآن يستخدم الكلمة ليعبر بها عما هو أكبر من المعيار للحكم. أن خلق السموات والأرض ما تم إلا بالحق وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ (85 الحجر).

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3 النحل)

مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ (8 الروم)

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ (3 الأحقاف)

وكلل هذا بأن أطلق القرآن اسم الحق على الله تعالى:

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25 النور)

فذلكم الله ربكم الحق (32 يونس)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ (30 لقمان).

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ (71 العنكبوت).

وهذه الآية قمة الموضوعية، فبالإضافة إلى تسمية الله تعالى بالحق، فإنها أوضحت أن اتباع الأهواء – وهي رمز الذاتية – سيفسد، ليس فحسب المجتمع الإنساني ولكن السماوات والأرض أيضا.

وأدى حرص القرآن على الحقيقة – كل الحقيقة وأنه آخر الكتب السماوية المقدسة لأن يعترف بهذه الكتب السابقة ولأن يعترف بالأنبياء السابقين، ولا يحس القارئ أية حساسية في خفايا وغضون النظم القرآني عند إشاراته إلى الأنبياء السابقين والكتب السماوية لأن القرآن من الله والله تعالى هو الذي أنزل كل الكتب المقدسة وأرسل كل الأنبياء فليست هناك حساسية وإنما تكون الحساسية لو أن الإسلام كان من عند غير الله إذن لنزع النزعة الذاتية وحتى لو أراد العدل والحق لكان عدله وحقه مشوبًا بالحساسية ولظهر ذلك في لحن القول وهو أمر لا أثر له في القرآن سواء بالنسبة للكتب السابقة أو الأنبياء السابقين والقرآن يأمر المؤمنين أن يؤمنوا بها جميعًا دون تفريق.

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136 البقرة)

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84 آل عمران)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا* وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164 – 163 النساء).

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ* إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (43 – 44 المائدة)

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (47 المائدة).

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (66 المائدة)

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (69 – 68 المائدة).

﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ (46 العنكبوت).

فهذه الآيات كلها وهي قليل من كثير لا تنم عن أثارة من التحيز أو الحساسية تجاه الأنبياء السابقين على الإسلام أو الكتب التي أنزلت قبله بل إن فيها إشادة بالتوراة والإنجيل ودعوة للمسلمين لعدم التفريق بين أنبياء الله وهو أمر قلما نجده في دين آخر بالنسبة للأديان السابقة عليه وإنما اختص بها الإسلام لغلبة الموضوعية والحرص على الحقيقة.. كل الحقيقة.

وما يؤكد أن هذا المسلك جزء من طبيعة العقلانية الإسلامية أننا نجده في كل المجالات كالشهادة على ما عرضنا. وعندما كان القرآن بصدد تحريم الخمر قال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (219 البقرة)

وهو ما يصور حرص القرآن على إبراز كافة الأبعاد حتى ما صغر منها أو ما يميل الناس عادة لإغفالها.

وأكدت السنة النبوية هذا المعنى عندما جعلت الحكمة ضالة المؤمن، ينشدها أنى وجدها، وحثت على طلب العلم، "ولو في الصين" وعندما أمر رسول الله ﷺ من حلف على يمين، فوجد خيرًا منها أن يأخذ بالتي هي خير، ويكفر عن يمينه. ووجه عمر بن الخطاب قاضيه أبي موسى الأشعري ألا يستنكف من الرجوع عن حكم، إذا استبان له أن الحق في غيره، "فإن الحق قديم".

ففي هذه الشواهد كلها نجد التوجيه هو نحو "الموضوع" ليس نحو الذات.. فالمهم هو الموضوع نفسه، وليس أي عامل آخر.

ب- السنن:

وبالإضافة إلى التوجيه القرآني في التزام "الحق" فإن القرآن يبرز "سننًا" وضعها الله لتطور المجتمع الإسلامي، وأن هذه السنن ثابتة لا تتغير، وأنها بمثابة "علامات" ومؤشرات وقوانين يمكن للفكر الإسلامي أن يهتدي بها، وأن يستفيد منها، ولكن لا يستطيع تغييرها أو القضاء عليها لأن الكون لا بد له من قوانين تمسكه وآلية تحدد سيره. والمجتمع لا بد له من ضوابط تحكمه وتربط ما بين السبب والمسبب إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.

والقرآن يدعو المؤمنين لاحترام هذه السنن وملاحظتها، والتعرف عليها والإفادة منها بطريقة لا تخل بها أو تسيء إليها.

﴿ قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ (38 الأنفال).

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (13 الحجر)

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (77 الإسراء)

﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (38 الأحزاب).

﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (62 الأحزاب)

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (43 فاطر)

﴿ سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (85 غافر).

﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (23 الفتح)

ومن السنن الإلهية أن كل شيء من ناحية القدر والحجم والكم "بقدر" مضبوط موزون. ومن ناحية الزمان بأجل. لا يمكن أن يتغير، وأي محاولة للإنسان للتغيير هي جهد ضائع، أو إخلال بالموازين التي وضعها الله يبوء الإنسان بوزرها، فالإنسان قد يستعجل وقد يستأخر، وقد يستقلل وقد يستكثر، ولكن الله تعالى وضع سننه على أساس قد لا يلم الإنسان بحكمته ولكنه يتلاءم مع أوضاع الكون والمجتمع، واقرأ إذا شئت.

﴿ لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾ (34 الأعراف)

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ (53 العنكبوت)

﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾. (5 الحجر)

﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾. (43 المؤمنون)

﴿ ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها﴾ (11 المنافقون)

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾. (45 فاطر)

﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾. (4 نوح)

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجلٍ مسمى لقضي بينهم ﴾ (14 الشورى).

﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ (11 يونس)

وكذلك:

﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (21 الحجر)

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض﴾ (18 المؤمنون)

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (49 القمر)

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (8 الرعد)

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا﴾ (38 الأحزاب)

وهذه السنن تتناول الفرد الإنساني والحياة الدنيا كما تتناول الأسس التي يقوم عليها المجتمع والسنن التي تحكم الأكوان. والقرآن يضع خطوطًا عريضة لكل منها. فهذه السنن تعرض الإنسان، كما جبله الله مخلوقًا خاصًا ليس بالملاك ولا بالشيطان. وقد هداه الله النجدين ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ (12 يونس)

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (10-9 هود).

﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ (11 الإسراء).

﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ (54 الكهف).

 لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً (50 -49 فصلت)

 وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51 فصلت)

 إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ* جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (19 20 – المعارج)

 فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16 – 15 الفجر)

وهذه صورة دقيقة للإنسان وللطبيعة البشرية وكيف يحب المال حبا جمًا، ويأنس إلى الراحة والعافية وينفر من الفاقة والابتلاء، وينسى أيام الفاقة عندما يغتني وتتملكه الأثرة والأنانية والحرص والشح. والشيء الوحيد الذي ينقذه من سيطرة هذه العوامل هو الإيمان. فبعد كل آية تصف استسلام الإنسان لهذه القوى نجد الاستثناء "إلا المصلين" أو "إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات" فالإنسان ليس ملاكًا طاهرًا ولا هو شيطان أثيم، ولكنه الكائن الذي تتوفر فيه ملكات القوة والضعف، العفة والشهوة.. وتتيسر له هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

ويتسق مع هذا التصور للإنسان التصور الذي يقدمه القرآن للحياة الدنيا.. فليست هي نسكًا وصلاة وابتعادًا عن مناشط الحياة الدنيا، وليست أيضًا استغراقًا في الشهوات، إنها اختيار دقيق فيمكن للإنسان أن يقبل التحدي وينتصر، ويمكن أن يستسلم لضعفه وهواه. وهي مسابقة ما بين الآخرة الآجلة. والدنيا العاجلة. الادخار. والاستهلاك. وليس هناك قوة تحجر على الإنسان أو على حق خياراته.

 وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145 آل عمران)

 مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا* وَمَنْ أَرَادَ الآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا* كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء من 18 – 20)

 مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (20 الشورى)

وهذا تصوير منصف للحياة الدنيا لا يصدر إلا عن الإسلام في تحريه الحقيقة الكاملة، وهو يتفق مع تصوره للإنسان، كما يتفق أيضًا مع ما سيورده من سنن المجتمع البشري.

فالمجتمع البشري كالفرد، وكالحياة، يمكن أن يكون مجتمعًا صالحًا، متماسكًا، إذا التزم بما وضعه الله من توجيهات.

 الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (41 الحج)

 فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22 محمد)

ويمكن لهذا المجتمع أن يسقط ويتحلل إذا سمح للمترفين بأن يحكموه، ولا بد أن يكون حكم هؤلاء المترفين نوعًا من الفسق أي الخروج عن الأصول. وعندئذ يحق عليها القول وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا

ولئن كانت المسئولية الأولى في هلاك هذا المجتمع تعود إلى الأمراء المترفين، فإن جزءًا من المسئولية يقع على الجماهير، لأنهم سلموا للأمراء، وأطاعوهم، ولم يعارضوهم بمختلف الوسائل.

 وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا (75 النساء)

 قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا (97 النساء)

وصور القرآن الكريم حوار الجماهير والقادة.. الأتباع والمتبوعين...

 وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (21 إبراهيم)

 وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48 – 47 غافر)

أما السنن التي وضعها الله تعالى لهذا الكون.. لكي يسير سيرًا محكمًا ومنظمًا... ولكي تؤدي دورها وتتماسك مع غيرها فإنها ذات أهمية خاصة في كتاب عن عقلانية الإسلام، لأنها بلغت الغاية من الإحكام الذي جعل كثيرًا من كبار علماء الطبيعة يقفون ذاهلين أمامها، ودفعت بعضهم لاعتناق الإسلام، فالقرآن يتكلم عن الحركة المستمرة الدائمة "السباحة" التي تعم هذا الكون الذي يبدو جامدًا دائمًا. وكل شيء يسبح ويسبح كل في فلك يسبحون.

 وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرجُونِ الْقَدِيمِ* لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (37 – 40 يس)

فإذا قارنا هذه الآيات بما تضمنته الديانة المصرية القديمة أو الميثولوجيا اليونانية وضح الفرق بين عرض يقوم على الخرافة والتصورات الساذجة وعرض آخر موضوعي يستبعد الخرافة ويقوم على العقل. وهذه هي أهمية "السنن" التي عرضها القرآن إنها لا تتحدث بلغة العلم الاصطلاحي.. ولكنها تهيئ المناخ له باستبعادها الخرافة من ناحية وقيامها على أصول تتفق مع العلم حتى وإن لم تستخدم الأساليب العلمية الإصلاحية فإنها تصب في مجرى العقلانية.

***

ولقد كان مما داعب الفكر الإسلامي حينًا ما فكرة أن الله تعالى وهو خالق هذا الكون، يستطيع بلا شك أن يفعل ما يشاء دون معقب، فيمكن أن يجعل النهار ليلاً والليل نهارًا، ويمكن أن يجعل الشمس تشرق من الغرب وتغرب من الشرق – إلخ.. فظن البعض أن التركيز على السنن فيه نوع من الانتقاص من القدرة الإلهية. وأن هذه السنن لا تؤدي عملها بحكم آليتها. فالنار لا تحرق والسكين لا تقطع إلا بإرادة الله، وإننا إنما نقول تحرق وتقطع مجازًا. ولهم في هذا عجائب وأفانين فأوقعوا الفكر الإسلامي في مأزق كان لهم عنه غنى، لولا التفيهق والتنطع وإيراد الأغاليط، أو لولا التأثر برواسب الديانات السابقة التي تبرز الإله كما لو كان إنسانًا فيه كل نزق الإنسان وإرادته وشهواته مع القوة التي تمكنه أن يفعل ما يشاء. إن الإسلام لا يبرز الله تعالى في هذا الشكل، بل هو يبعد عنه كل صور التجسيم ويراها وثنية. وفي الوقت نفسه يوضح لنا أنه خلق هذا الكون طبقًا لنواميس منحها صفة الثبات، والحق والموضوعية. مما أشرنا إليه، مما يستبعد أقل إثارة للعشوائية أو الهوائية، وإن هذا لا يمس قدرته الكاملة والمطلقة، بل هو الأليق بها. وقد أورد القرآن العديد من الآيات

التي تقرر هذا المعنى كما أشرنا إليه آنفًا، وقد يورد تعبيرًا مثل "كتب على نفسه" ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ (12 الأنعام)

﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾، أو يحيل التغيير إلى إرداة الناس بحيث يتجاوب التغير مع أعمالهم، وكأنه يفوض ذلك إلى الناس أنفسهم، وإلى ما وضعه الله من السنن دون أن يشير إلى إرادته الخاصة، وإن كانت في النهاية هي الحاكمة على كل شيء.

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (11 الرعد)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (53 الأنفال)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ (176 الأعراف)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (10 – 5 الليل)

أو يربط إرادته تعالى بالأجل المحدد ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾.

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال لشهيد (عبد الله بن عمرو بن حزام) شهيد أحد: "يا عبدي تمن عليَّ أعطك" قال: "يا رب تحييني.. فأقتل فيك ثانية"، قال: "إنه سبق مني القول: إنهم إليها لا يرجعون" قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾، وكذلك ما جاء في حديث قدسي آخر: "يا عبدي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا".. إلخ. ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام". لأن تعبير "لا ينبغي له" قد يبدو مجافيًا لما يليق بمقام الألوهية، ولكن الرسول يقيس بعقل ومنطق البشر أمرًا من أموره تعالى، لأنه ليس من معيار آخر يمكن للإنسان أن يعبر به. والرسول في هذا – ينسج على منوال الآيات التي جاءت في القرآن مصدرة بتعبير "وما كان الله" مثل ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (143 البقرة).

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (33 الأنفال)

﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (9 الروم)

فقد أوجب الله تعالى على نفسه هذا اتساقا مع ما وضعه من أسس وسنن ومبادئ".

فهذه كلمات أرادات إلهية أرادها الله ليحقق مشيئته في وضع الأمور في هذه الدنيا على نسق منتظم، ومبادئ مقدرة ثابتة ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (42 الأنفال)

ويمكن للناس أن يقيموا تصرفاتهم وأعمالهم على أسس، وليمكن ثوابهم وعقابهم.

***

وهكذا نرى أن الأصل الثاني للعقلانية الإسلامية هو الحرص على الموضوعية وملاحظتها. وأن هذا يكون بالالتزام بالحق والابتعاد عن كل المؤثرات الذاتية وعدم الاعتداد بها حتى لو كانت تمس الأقرباء أو الأعداء فمحبة القريب وعداوة الغريب يجب ألا تحيف على الحقيقة.

والموضوعية الإسلامية تستقر على الحق الذي يمثل أعلى ما يمكن تصوره من موضوعية لأنه ليس فحسب منزل من الله، بل هو يرمز إلى الله نفسه. إذ الحق من أسمائه تعالى، وطبيعي أن يكون التلاعب في مثل هذه الموضوعية أو الانتقاص من موضوعيتها، أقل مما هو بالنسبة لموضوعية أخرى يضعها الإنسان نفسه أو القوانين التي يخطها وينفسح فيها المجال للتلاعب تبعًا للأغراض أو القصور البشري.

كما يؤكد القرآن أن هناك "سننًا" وضعها الله لتطور المجتمع بمثابة القوانين التي تحكم تطوره وأن هذه القوانين ثابتة وعلى الفكر الإنساني أن يحترمها ويستثمرها دون أن يحاول تغييرها أو القضاء عليها.

ولا يتنافى مع هذا أن يكون لله تعالى قدرة وإرادة أبعد مما يمكن أن نفهمه، وأعظم من أن نحكم عليه، لأن كل منطقنا وعقلنا محكوم بقوانين الكوكب الأرضي. وكما ذكرنا فإن الأرض ليست إلا كوكبًا صغيرًا في المنظومة الشمسية، التي هي بدورها منظومة بجانب ألوف أو ملايين المنظومات الأخرى. ولم يرفض هكسلي، وهو رائد العقلانية، والعدو اللدود للكنيسة أن يوجد عالم لا تنطبق عليه القوانين التي تسري على الأرض وقال.

... وإن كنا على بينة تامة من اطراد النظام الطبيعي، واستمرارية الوضع الراهن للأمور، فإن هذا
لا يستتبع بالضرورة أن نجعل هذا تعميمًا لا نهائيًا أو أن ننكر على وجه الإطلاق أن يأتي وقت لا تتبع فيه الطبيعة النظام الموضوع، وتكون العلاقة ما بين السبب والأثر على غير النحو المحدد، وتتدخل عوامل أعلى من الطبيعة في السير العام لها. إن الحذر يحمل البعض لأن يروا أن عالمًا يختلف عن عالمنا يمكن أن يوجد. ويمكن ألا يكون فيه ناتج جمع 2 + 2 هو أربعة، ويمكن أن يتلاقى فيه خطان مستقيمان([22]).

ولم يستطع أينشتين أن يستوعب ما أثبتته رياضات الكوانتم، ونتائج هيزنبرج من الخروج عن مبادئ الانضباط الدقيق بقوانين عالم الذرات، وما يعنيه هذا من تسلل عنصر من الخلل في آليات النظام الطبيعي، رغم أنه هو نفسه كان الذي وجه ضربة قاتلة لفكرة "ميكانيكية" النظام الطبيعي التي جاء بها "نيوتن"، ولكن عدم استيعابه أو عدم ترحيبه بنتائج الكوانتم وهيزنبرج جاء لأنه يؤمن على حد تعبيره "أن الله
لا يقامر بالنرد" كما جاء في رسالته إلى بورن بتاريخ ديسمبر سنة 1926، وبالطبع فإن الله تعالى لا يقامر بالنرد وقد وضع أسس النظام الطبيعي الراسخ الثابت الذي تمناه أينشتين، ولكن إيمان أينشتين بالله هو إيمان عالم الطبيعة، ويكاد يكون "بللورة" الطبيعة في شكل الإله، أو الإله في الطبيعة – فهما واحد.. ومن ثم يكون كل خروج على آليات الطبيعة "مقامرة بالنرد" ولكنه لو آمن بالله كما يقدمه الإسلام، لما رأى في الأمر "مقامرة بالنرد" ولكن إشارة من الله تعالى ليرينا طرفًا من قدرة أعلى مما نتصور على سبيل الاستثناء، وبغرض التذكر حتى لا يظن الناس أن المبادئ والسنن التي وضعها هو نفسه لتنظيم سر هذا الكون هي – وحدها دون أن تكون وراءها إرادة الله – التي تقوم بذلك ولهذا تظهر المعجزات قديمًا.. أو يظهر في صميم عالم الرياضة مما يجعل علماءها مبلسين. إن السماوات والأرض مطويات بيمينه، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة فلا يمكن أن نقيد إرادة الله تعالى بمنطق بشرى، وقد وضع للكون وللأرض وللمجتمع الإنساني سننًا وأوضاعًا تسير عليها، ولكن يظل الأمر من قبل، ومن بعد، لله رب العالمين.

[22] **(?) Huxley: Essays. Vol IV pp. 49.**

الفصل السادس
المقوم الثالث: الخيرية والصلاح

تختلف العقلانية الإسلامية عن العقلانية التي تنبثق عن الحضارة الأوربية في جانب هام، هو أن العقلانية الإسلامية ملتزمة وليست طليقة، فهي تتوخى الخير والصلاح، وهي تربط ما بين التوصل إلى المعرفة، وحسن استخدام هذه المعرفة، فالإنسان القرآني لا يقدح زناد فكره، ولا يعمل ذهنه بنية سيئة أو لهدف ضار أو لكسب يستتبع أذى وضررًا للآخرين.

والعقلانية الإسلامية تعنى بالنية التي لا تحفل بها عقلانية المجتمع الأوربي، وبوحدة الوسيلة والغاية، وهي ترفض تمامًا المبدأ الذي يبدو عقلانيًا، أو على الأقل يقوم على تبرير منطقي، وهو "الغاية تبرر الوسيلة".

وهذا طبيعي ليس فحسب بالنسبة للإسلام، ولكن أيضًا بالنسبة لكل الأديان والكتب السماوية التي نجت من التحريف، لأن الأديان كلها رسالات هداية وإنقاذ للبشرية من الضلال الذي يؤدي إليه اتباع الهوى والخضوع للإغراء.. إغراء الثروة وإغراء الشهوة وإغراء السلطة، فلا يتصور أن تتضمن مسالكها للتوصل إلى الحقيقة سبلاً تؤدي إلى نقيض ما جاءت من أجله.

قد يقال إن هذا يمكن أن يكون قيدًا على الفكر الذي لا يزدهر إلا في بيئة حرة تمامًا..، ولكن هذا ليس إلا خلطًا بين ما ينشده الإسلام، وما يهدي الناس إليه.. وبين الحرية التي يسمح بها في مجال الفكر، فالإسلام لا يضع قيدًا من أي نوع على الفكر، وهو يدع كل الأفكار تنطلق، لأن الفكر هو سبيل الإيمان فلا يمكن أن نسده، ولأن الفكر هو معيار الدعوات فلا يمكن أن نجعلها معياره. وهو الذي يوضح الحق من الباطل. ويثبت أحقية الحق وبطلان الباطل. ومن هنا فإن الإسلام لا يضع قيدًا عليه، وهو يتعامل مع الفكر بالفكر نفسه. فيدع الفكر السليم يفند الفكر السقيم، ويضع الحق ليذهب بالباطل، وهذا هو مسلك القرآن الكريم مع دعاوى المشركين، فإنه يوردها، رغم أنها كفر مطلق ومساس بالله تعالى، ثم لا يعنى بتسفيه أحلامهم، أو بتوقيع العقوبات عليهم، ولكنه يضع الحجة في مواجهة الحجة، والدليل في مواجهة الدليل.

ولكن الأمر إذا خرج من نطاق الفكر إلى نطاق العمل، فهنا يمكن للقانون ولوازع السلطان أن يتدخل، وهذا أمر طبيعي، فالفكر. والعمل يجابه بالعمل. وإذا لم تتدخل السلطة لأدى ذلك إلى وقوع ضرر لا يمكن إصلاحه ثم استشراء هذا الضرر مع عدم التدخل لدرئه.

والفكر ينتهي بنا إلى الوسائل التي يمكن أن تقوم عليها الصناعة أو الفنون. وهذا الفكر يكون حرًا. ولكن عندما يراد تطبيق الوسيلة التي انتهى إليها الفكر لإقامة صناعة خمور أو مخدرات أو استخدام تكنولوجيا الألوان في عرض صور للحض على الفحشاء أو إشاعة القسوة والجريمة والانحراف أو تمجيد الديكتاتورية والاستعلاء والاستغلال. فيجب بالطبع أن يتدخل المجتمع.

ومرة أخرى فإن الإسلام ليس وحيدًا في هذا المسلك فحتى أشد الدول تحررًا تجد نفسها مضطرة للتدخل لوضع الضوابط عندما تدفع الأهواء أو المكاسب الحرية بعيدًا بحيث تهدد سلامة المجتمع وتهز الأسس التي يقوم عليها – فالفرق في الدرجة.. وليس في النوع.

والفرق الأعظم في هذا الصدد ما بين الإسلام وما بين المجتمعات العقلانية الأوربية أن الإسلام في توجيهه وسياسته يعتمد على وازع القرآن أكثر مما يعتمد على وازع السلطان. وأنه يوجد "القلب السليم" الذي ينأى بطبعه عن الشر.. وأنه يربط

المجتمع برباط من التكافل والأخوة، بحيث يكون الانحراف شذوذًا أو استثناءًا.. وإن كان في المجتمع الأوربي – بدرجات متفاوتة، قاعدة ودأبًا.

وقد عجزت العقلانية الأوربية عن أن تلزم العقل الوقوف عند الخير، وعدم تجاوزه للشر، لأن الحضارة الأوربية حضارة وثنية طليقة جعلت إلهها الإنسان، وهدفها الاستمتاع ووسيلتها الحرية، فلم تستطع بحكم هذه الطبيعة أن تخضع لقوة أعظم من الإنسان الإله.. ومن ناحية أخرى فلا حد لطلعة الفكر البشري وفهمه للمعرفة. وبحق قال الأثر إن طالب العلم كطالب المال، منهوم لا يشبع ولا يقف عند حد. وقد بدأت مخايل العالم الأسطوري الذي يمكن للمعرفة أن تنتهي إليه. فيما انتقل إلينا من الأساطير اليونانية ولكن العلم الحديث هو الذي كشف تلك العوالم التي استشفها الفكر اليوناني، وبفضل هذه الطلعة، ظهرت الآلات والقوى المحركة ووسائل الانتقال، وتحقق للإنسان أن يطير كالطير، ثم ظهر التليفزيون والكمبيوتر.. إلخ.

وكانت هذه في مجملها مجالات خير، وتقدم للبشرية، ولكنها في حالات أخرى جاوزت حدود الخير إلى الشر أو وقفت عند أبوابه...

وفي إحدى الروايات السينمائية في الخمسينات عن "القارة المفقودة" "أطلانتس" صور الفنان الأوربي المدى الذي وصلت إليه المعرفة فيها عندما جعلت حكيمها يمسخ الأسرى إلى وحوش! فيجعل من واحد خنزيرًا ويجعل من آخر ذئبًا ومن ثالث نمرًا ومن رابع حمارًا... ولم يتصور الفنان الأوربي وجود حاجز أخلاقي يحول دون هذا الفعل. ومع أن هذه المقدرة لحسن الحظ لم تتحقق حتى الآن، إلا أن تقدم العلوم إلى بعض أسرار الوراثة وشفرتها مكنه من أن يعربد ويعبث في هذا الهيكل المقدس، وهو لم يدخل حتى الآن علنًا جسم الإنسان، ولكنه يجري تجاربه على الحيوان، وقد يمكنه أن يوجد حيوانات بخمسة أرجل أو ثلاثة عيون.. أو يمكنه مضاعفة قوة حيوان أو تعقيمه أو العبث ما شاء الهوى بخصائصه وملكاته..

ونحن لا نعلم على وجه التحقيق ما إذا كانت مثل هذه التجارب قد أجريت على آدميين، ولكن من المعروف أن الأطباء والعلماء مارسوا خلال الحرب العالمية الثانية وسواء في ذلك أطباء الحلفاء أو المحور تجارب على الأسرى أو المحكوم عليهم بالموت. وقد يمكن القول إنها وصلت إلى آخر المدى بحكم العداوات التي تحكمت في الفريقين المتحاربين وقتئذ وإن الذين أجريت عليهم التجارب كان مقضيًا عليهم بالموت على أي حال.

إن عالمًا يمكن فيه للنزق الإنساني أن يتحكم في الطبيعة البشرية والقلب البشري، والجسم الإنساني.. ويجعل كل هذه المقدسات في خدمة الهوى والأغراض لهو العالم الذي يمر فيه الحي بالميت في قبره.. فيقول يا ليتني كنت مكانك...

ويماثل هذا ما يقال عند قنابل ميكروبات تعيد مرة أخرى عهد الكوليرا أو الجدري وبقية الأوبئة التي كانت لعنة العالم القديم وتخلصت منها البشرية بفضل العلم الحديث، ولكن العلم الحديث نفسه، يعود مرة أخرى، فيعيدها وينشرها.

ومع بداية القرن بدأ علم النفس يتلمس طريقه إلى أعماق النفس، وفي أغوار "اللاشعور" وقدم "فرويد" تحليلات وآراء لا تخلو من وجاهه، ولكنه كبقية أصحاب النظريات يمضي بأفكاره إلى ما يجاوز الاعتدال وأفسحت علوم النفس المجال للعالم الروسي "بافلوف" ليصل إلى صورة من تكييف طبع الحيوان، واستطاع زبانية ستالين الاستعانة بهذه الأبحاث لإفساد النفس البشرية والتأثير على معنويات الإنسان بحيث جعلوا من أبطال الثورة الشيوعية، ورفاق لينين يعترفون على أنفسهم أنهم جواسيس في محاكمات موسكو الشهيرة سنة 1936، والتي صورها بقلم الفنان الروائي المجري الشيوعي المرتد "آرثر كوستلر" في روايته "ظلام في الظهيرة" وكان هذا مفتاحًا تلقفه النازي، ثم تناوله صلاح نصر وأمثاله، وبهذا عادوا بالبشرية إلى إحدى الوصمات التي ظن أن البشرية (أو على الأقل المجتمع الأوربي) تخلص منها مع بداية القرن، وهي وصمة التعذيب، مع إضافة هي استخدام العلم والمعرفة بأعماق النفس البشرية والجسم البشري لزيادة التعذيب والوصول بالألم إلى أقصى حالاته، أو إذلال

النفس بحيث تفقد آدميتها وإنسانيتها، وقد حدث هذا بالفعل في هذا البلد عندما نكبت بصلاح نصر وأمثاله من مسوخ البشر والكتب العديدة التي صدرت عن التعذيب في السجن الحربي والتي كان ضحيتها الإخوان المسلمين والشيوعيين على السواء أكدت هذا المعنى على اختلاف مؤلفيها..

وما دمنا بصدد استعمال العلم لخدمة الخسة والنذالة فلا بأس من الإشارة إلى استخدامه لإشاعة الفحشاء عن طريق الأفلام الجنسية التي توجد في كل المجتمعات الأوربية والأمريكية، وتتفاوت هذه الأفلام بحيث يصبح أشدها عهرًا ما يؤشر عليها بثلاثة علامات من علامة الضرب (×××) ممارسات جنسية متصلة. والغريب أن هذا نفسه يزهد المشاهدين فيها، فإنها مجردة تمامًا من أقل إثارة فنية، وإنما هي ممارسات حيوانية تثير بعد فترة "القرف" والاشمئزاز، ولهذا فقلما يغشاها إلا أفراد معدودون على الأصابع معظمهم من كبار السن، ولا يقاس روادها برواد السينما العادية. وقد حد هذا بالطبع من أثرها السيئ. ولكن يحتمل أن تتطور الأمور، وأن يضفي المخرجون لهذه الأفلام طابعًا من الرومانتيكية على أفلامهم بحيث تجذب أعدادًا أكبر دون أن تتخلى عن طابعها الجنسي.

وإذا كانت أفلام الجنس لا تزال محدودة الأثر في الدول الأوربية، وغير مسموح بها في بقية دول العالم، فإن القسوة تكاد تكون طابعًا دائمًا لمعظم أفلام العالم. فالضرب والركل والصفع وإطلاق النار، ومختلف صور العدوان هي نسيج الفيلم الأمريكي ولا مكان فيه لشيء اسمه "الحلم" أو "التغاضي" أو "التسامي" أو "العفو"، ولا جدال في أن هذا يغرس في نفوس المشاهدين الذين يمكن أن يكونوا أطفالاً. الطبيعة العدوانية والجرأة على المقدسات والكرامات.. وسيادة حكم الباع والذراع واستخدام الأسلحة النارية.

وما يقال على السينما يقال على الصحافة التي كان يمكن أن تكون مدرسة الشعب ونافذته الحرة المفتوحة على الثقافة. إن انعدام عنصر "الخيرية" فتح الباب على مصراعيه لنوازع الربح، أو الشهرة أو السبق فظهرت الصحافة الصفراء، وصحافة الجنس؛ وصحافة الابتزاز وصحافة الاستثارة وحازت على أكبر نسبة في التوزيع وأعلى عدد من القراء. وقد يصور اتجاه وسياسة هذه الصحافة ما نشرته جريدة أخبار اليوم القاهرة يوم 26/9/87 عن "ملكات الفضائح الأمريكية لعام 87" وقدمت ثلاث عشيقات "انهالت العروض عليهن من السينما والتليفزيون والناشرين والصحف" الأولى هي فاون هول سكرتيرة وعشيقة الكولونيل أوليفر نورث بطل فضيحة "إيران جيت". التي عرض عليها 500 ألف دولار لكتابة قصة علاقتها بنورث بالإضافة إلى 500 ألف أخرى لقاء نشر صورة عارية لها! والثانية هي دونا رايس عشيقة السناتور جاري هارت التي أودت فضيحتها معه بمستقبله السياسي وعرض عليها المبلغ نفسه لقاء نشر قصتها وصوره عارية لها! والثانية جيسكا هان عشيقة القس الدعي جيم باركر الذي جمع ثروة طائلة بدجله، وطالما ندد بالإسلام والمسلمين، حتى افتضحت علاقته بعشيقته – فجرد من رتبته الكنسية وقبلت عشيقته أن تروي قصتها معه، وأن تصور عارية لقاء مائة ألف دولار.

فهذا الحرص على إشاعة الفحشاء وإشباع الفضول في أسوأ أشكاله بالكلمة والصورة.. يدل على جريرة الصحافة ومدى ما يمكن أن تنتهي إليه عندما تتجرد من عنصر "الخيرية".

وأخيرًا فإن انطلاقة العقلانية الأوربية التي لا تحد ولا تجد ضابطًا أو هاديًا. عاثت فسادًا في الكون نفسه، في الأرض والسماء.. البحار والأنهار والأشجار. بحيث أصبحت الكرة الأرضية كوكبًا موبوءًا، سممت أرضه وأنهاره وبحاره، ثم تصاعد الإفساد حتى جاوز طبقات الجو وأفسدت طبقة الأوزون، فأصبحت الأرض معرضة لإشعاعات خطرة..

لقد ثبت بما لا يقبل شكًا، وما نشاهده بعيوننا كل يوم أن انطلاقة العقل البشري في مجالات النفس البشرية والجسم البشري، وفي مجالات الموارد الطبيعية، وإضرام العنان لأحط نزعتين في الإنسان: القسوة والشهوة.. كل هذا أصبح

يهدد المجتمع الإنساني، بل وكوكب الأرض نفسها وما عليها من أحياء وما يحيط بها من أجواء.. بالفساد والتدهور وما أصبح المشكلة المستعصية للحضارة الأوربية.

ومما لا يكاد يصدق أن تنفق الدول الكبرى على وسائل الحرب والخراب وإشاعة التعاسة والشقاء أضعاف ما تنفقه على وسائل السلام والبناء وإشاعة السعادة والهناء، وأن تدمر الطيبات من الرزق، فتقذف بها إلى البحر، أو تطعمها الحيوانات، بينما يموت الملايين في آسيا وأفريقيا جوعًا.

إن من المستحيل تبرير مثل هذه الحماقات في عالم عقلاني إلا بسيطرة الشر وسلطان الظلام. ولو تحلت العقلانية الأوربية بضوابط الإسلام وهداياته أو توخت الخيرية كما توختها العقلانية الإسلامية، لتغيرت صورة العالم، ولأصبح عالمًا سعيدًا يعمه الرخاء، لأن كل ما ينفق على التخريب والتدمير، وإشاعة القبح والدمامة والفجر والشهوات سينفق على البناء وإشاعة الخير والسلام والجمال..

إن الفصل ما بين السياسة والدين الذي دعا إليه نيقولا ميكافيللي في القرن الخامس عشر ثم الفصل ما بين الاقتصاد والدين الذي دعا إليه آدم سميث في القرن السابع عشر، ومن خلف هذين المفكرين من مفكرين عمقوا هذه المفاهيم أدى في النهاية إلى اعتبار الخير أو الطيبة في مجالي السياسة والاقتصاد نوعًا من السذاجة أو الغفلة، أو البلاهة – واعتبرت "العاطفية" في دوائر الفكر الشيوعي سبة وضعفًا يستبعد صاحبها من القيادة، وأصبحت كلمة "يوتوبيا" التي أريد بها التوصل إلى دولة مثلى ترادف الخيال العقيم. ووضعها ماركس في مواجهة "الاشتراكية العلمية" التي وإن أسهمت في تقدم الفكر السياسي، إلا أنها جرت الويلات، وأدت إلى ظهور الحكم المطلق في روسيا ثم ألمانيا وإيطاليا وفي النهاية أوقعت بالبشرية أكبر مجزرة في التاريخ، أي الحرب العالمية الثانية، وأخيرًا أعلنت إفلاسها.

إن هذا كله قد لا يكون من العقلانية بالضرورة، وأي عقلانية تستبعد الطيبة والخير من ضوابطها لا بد أن تلقي بأيديها إلى التهلكة، وأن تضع نفسها تحت رحمة سلطان الظلام، ولن تهنأ بما تحققه من فتوح وإنجازات في المجالات الأخرى.

الصلاح.. والبعد عن الفساد:

يوضح تقصي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مدى الأهمية التي تعلقانها على توفر عنصر "الخير"
و"الصلاح" و "الصالحات" و "الطيبات" في كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال أو ما تتسم به السياسات والخطط والنظم. وفي حقيقة الحال فإن الإسلام يقرن ما بين الإيمان والعمل الصالح ويعتبرهما وجهان لعملة واحدة. فلا يذكر الذين آمنوا، وما أكثر ما ترد في القرآن، إلا ويورد معها "وعملوا الصالحات". فالعمل الصالح ثمرة للإيمان، ومن ثم لا بد وأن يكون "صالحًا" طيبًا "طاهرًا".. وفي الوقت نفسه فإن هذا العمل نفسه هو مصداق للإيمان ودليل على حرية إيمان المؤمن.. وهذه العلاقة تكفي وحدها لجعل "الخيرية" والصلاحية أحد مقومات العقلانية الإسلامية بصفة عامة ومطلقة.

وتعد كلمة الصلاح ومشتقاتها من الكلمات القرآنية وقد وردت بمعنى الإصلاح والصلح والصالحات والمصلح والمصلحين، وهي في أصلها اللغوي تعني الكفاية واللياقة والصحة.. وجاء القرآن فأضفى عليها طابع الخيرية.. ويقابل ذلك كلمة الفساد ومشتقاتها.

ولا يتسع المجال لإيراد نصوص القرآن عن ذلك لأنها بضع مئات – وقد ذكرت الصالحات 62 مرة، بينما ذكرت الصلاة 67 مرة، والصالحات ليست إلا إحدى مشتقات مادة الصلاحية والصلاح.

ولكن قد يوضح مقصد القرآن وفكرته عن هذا المقوم من مقومات منهجيته إشارات مثل إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت أو اخلفني في قومي ولا تتبع سبيل المفسدين ،من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون منها بغير حساب ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى

النور﴾ ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾..

وكذلك:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (206 – 204 البقرة)

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (77 – 76 القصص)

وقد يتحدث القرآن عن الخير مرادفًا للصالح والصالحات.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (148 البقرة)

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (114 آل عمران)

﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (104 آل عمران)

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (73 الأنبياء)

﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (61 المؤمنون)

إن أهمية هذه الضوابط ازدادت في العصر الحديث بقدر ازدياد قوة العلم المحايدة والتي يمكن أن توضع في خدمة الخير كما يمكن أن توضع في خدمة الشر.

الباب الثالث
القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان

الفصل السابع: وجود الله تعالى وذاته

الفصل الثامن: خلود الروح والبعث بعد الموت

الفصل التاسع: الدار الآخرة والثواب والعقاب

الفصل العاشر: النبوات وقيامها على الوحي

القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان كانت موضوعات لكتب مستقلة مسهبة. سواء في ذلك وجود الله تعالى أو عالم الروح.. أو الدار الآخرة.

من أجل ذلك حَذِرَ الباب أن يغرق في محيطات التفاصيل والجزئيات التي لا يتسع لها المجال، والتي تؤثر على شمول الصورة الكلية لكل قضية. وفي الوقت نفسه فإنه تصدى لجوانب عديدة فيها أغفلتها معظم الكتب أو آثرت لدواعي الأمان أن تسلك المسلك التقليدي، ومن ثم يمكن القول إن طريقة معالجته لهذه القضايا فريدة من نوعها. وقد تعرض الباب الأول لقضية وجود الله تعالى وأبرز أنها كانت مغروسة في النفس البشرية، والمجتمعات الإنسانية وأن الخلاف كان حول "الذات الإلهية" التي لا بد وأن تضل فيها الأفهام، وأوردت وجهات نظر ديكارت ووليم جيمس وبعض النظريات الحديثة، ثم تحدث عن دليل الجمال، ودليل القرآن وفندت وجهة نظر الشكاكين مثل "رسل" وفرويد وغيرهما...

وفي القضية الثانية الموت – وخلود الروح حلل الفصل عملية الموت.. ثم عرض لوجهة نظر علم الأحياء من الخلية إلى الروح وأورد دليلاً على أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لها أعضاء جسدية. وأن البحث عن العقل في المخ هو كتصور المبرمج نفسه جزءًا من الحاسبة الإلكترونية. وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فإنهما لا يخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ.

وانتقل الفصل إلى الأرواح فعرض لبعض التجارب في هذا المجال. وبعث صفحات مطوية منها محاولة "اديسن" وضع آلة بالغة الدقة يمكن أن تنقل ما قد تريد الأرواح الإدلاء به. كما تحدث عن تجربة "شيرلي ماكلين".

ومع أن معالجة القضية الثالثة الدار الآخرة والثواب والعقاب.. والجنة والنار لم تكن مسهبة كالفصلين السابقين، إلا إنها تميزت بطابع من الجدة والأصالة وأوردت تصورات لم تذكر من قبل، ولم يتردد أمام نقاط يعرضها المستشرقون أو تخطر للبعض دون أن يفصحوا عنها دون أن يجدوا لها تفسيرًا مقنعًا مثل النعيم "الحسي" في الجنة والعذاب "الوحشي" في النار...

أما بالنسبة للقضية الرابعة. إنكار النبوات، فلم يكن هناك إشكال فالأنبياء بلغوا من الامتياز على القادة والفلاسفة والحكام – كما امتازت الأديان على بقية الدعوات والأفكار – بما لا يمكن تفسيره إلا وجود "وحي" خاصة وأن هذا لا يتنافى مع العقلانية وإن كان جديدًا عليها، ومما لا يدخل في أدواتها ووسائلها..

ويتميز الباب عن الأبواب السابقة بتمهيد مسهب له هو الذي يتلو هذه الكلمة

***

تمهيد:

أربع قضايا رئيسية جعلت العقلانية تنعزل عن الأديان وتتخذ منها موقفًا يتفاوت ما بين العزوف.. والهجوم هي:

وجود الله تعالى، وما يتصل بهذه القضية من صفات الله وذاته إلخ...

خلود الروح.. والبعث بعد الموت..

وجود دار آخرة.. ثواب وعقاب.. جنة ونار.

النبوات. وقيامها على "الوحي".

وهذه القضايا الأربع توجد في كل الأديان السماوية على سواء وإن اختلفت درجة التركيز والعناية بقضية منها دون الأخرى أو طريقة معالجة إحداها.. وتصويرها..

أسباب هذا الموقف من العقلانية:

هناك أسباب عديدة لهذا الموقف من العقلانية تختلف في طبيعتها وتتفاوت في دواعيها منها:

أن العقلانية ترتبط بطريقة معينة في الاستدلال أبرز خصائصها أنها حسية – مادية تعتمد على الحقيقة العملية التي يمكن لمسها باليد، أو رؤيتها بالعين أو سماعها بالأذن، أو ترتكز على بدائه لا خلاف عليها، كما هو الحال في الحساب أو الهندسة. ولا تتعدى وسائل العقلانية في الاستدلال ثلاث: الأولى الحواس. والثانية النظر الرياضي/ الحسابي والثالثة التجريب في المختبرات والمعامل. وبهذا يمكن لها أن تنتهي إلى نتائج محددة ومبادئ ثابتة. كأن يكون مجموع 1 + 1 = 2 أو أن المعادن تتمدد بالحرارة.. وأن الماء يتجمد بالبرودة إلخ..

ولا يجدي شيئًا القول إن العقلانيين أنفسهم قد استبانوا قصور الحواس وخداع النظر، وأن وسائلهم العلمية والرياضية تنتهي إلى نتائج تختلف أو تتناقض مع ما تظهره الحواس، لأن المنهج العقلاني ارتبط بالمحسوس منذ نشأته. وأصبح عنصرًا مطبوعًا به. ورد الفعل التلقائي لديها هو رفض كل ما وراء ذلك. وعندما عرض مكتشف الفرملة الهوائية اختراعه هذا على "الكومدور" "فاندربلت" قطب صناعة السكك الحديدية صاح به "هل تريد أن تقول إن الهواء يستطيع أن يوقف قاطرة بخارية تسير بسرعة ثلاثين كيلو مترا؟ ومن قبل طلب فرعون من وزيره أن يبني له برجًا يبلغ به أسباب السماوات ليطلع على إله موسى، وبهذا المنطق نفسه قال رائد الفضاء الروسي إنه لم يجد الله... ولو كان لديه فكرة عن "الجنة" لقال إنه لم يجدها في أي مكان من السماوات العلا.

وما دام "الله" و"الروح" وعالم ما بعد الموت... ليس محسوسًا أو مما يمكن أن يوزن أو يقاس أو يقبض باليد أو يبرهن عليه بمعادلة رياضية، فسترفض العقلانية التقليدية الاعتراف به. وعندما تلتزم الدقة فإنها تقف موقف "اللاأدرية". لأنها لا تستطيع أن تنفي وجوده على سبيل القطع, وسيغلب عليها المقولة التي نقلها القرآن عن أشباه لهم. ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾.

كانت أوربا التي انبثقت منها العقلانية الحديثة – "وثنية" فلم تعرف من أيام اليونان والرومان "الله" الذي تنزلت به الأديان السماوية... وإنما كان آلهتها أناسًا... وأبطالها آلهة. وهي نزعة تتفق مع اتجاه التجسيم الحسي. قدر ما تبتعد عن التجريد المطلق وكانت هذه النزعة في أصل الإضافة التي قدمتها الحضارة الأوربية ألا وهي الحرية لأن تأليه الإنسان يفسح المجال أمام إرادته.. ويجعلها قانونًا ويبعد كل الضوابط أو التوجيهات التي يوجبها الإيمان بالله، والحرية إحدى متطلبات العقلانية التي تحققها الوثنية – بمعنى تأليه الإنسان – أكثر مما يحققها أي دين سماوي.

ويقترن بهذا، ولو في اللاشعور الخفي، إحساس الإنسان الأوربي بأن الدين قيد على حريته في الانطلاق على أهوائه سواء كانت الأهواء استمتاعًا بالشهوات أو الاستخدام الطليق للقوة وهذه وتلك من أبرز سمات الحضارة الأوربية المعاصرة التي نجد جذورها في الحقبة اليونانية/ الرومانية للحضارة الأوربية وتظلل فروعها المجتمع الأوربي في الحديث.

وهذا العامل وإن لم يكن موضوعيًا إلا أنه كان عظيم التأثير على العقلانية – وكاد أن يكون عاملاً وراثيًا في النفسية الأوربية، ينعكس على تصرفاتها وتوجهاتها – ولا تستطيع التحرر منه.

إن ما تضمنته الكتب السماوية لدى الأوربيين، أعني التوراة والإنجيل من تحريفات وادعاءات وقصص كانت كافية وزيادة لكي ينفض العقلانيون الأيدي منها. وتكفي نظرة سريعة على ما تضمنته بعض صفحات "العهد القديم" من مخاز نسبت إلى إله إسرائيل.. أو أنبيائهم للحكم بأنها لا يمكن أن تكون قد صدرت عن إله حكيم، أو حتى إنسان سوي لديه أقل إحساس بالشرف مما جعل أحد الكتاب يقول عن داود إنه رجل "ترفض أن تصافحه". أما ما جاء خاصًا بالتاريخ أو الجغرافيا، فقد يبرر ما قاله فولتير عن أن الله لم يكن قويًا في الجغرافيا!!

حقًا إننا لا نجد هذه المخازي الجنسية والسياسية والخرافات التاريخية والجغرافية في الإنجيل الذي يدور حول أفكار سامية. ولكن العقلانية اصطدمت بعقبة كئود لم تسغها. وجعلتها في النهاية تنفض منه اليدين، تلك هي فكرة الإلة الشخصي وما وضعته من لاهوت غامض مبهم لا يمكن معاملته عقلانيًا لتبرير وجود أو للبرهنة على هذا الإله. ولو قدمت الأناجيل المسيح كرسول ونبي لما كان للعقلانية ما تعترض عليه – حتى وإن لم تستطع أن تثبته بوسائلها. والكنيسة – بعد – اعتبرت أن العهد القديم يعد أصلاً في العقيدة المسيحية.

وعندما قضت الكنيسة على المذاهب المسيحية التي كانت ترى في المسيح رسولاً وليس إلهًا. فإنها قطعت العلاقة ما بينها وبين العقلانية.. فضلاً عن أن الذين أرادوا الإصلاح مثل "مارتن لوثر" و "كالفين" لم يتعرضا لهذه النقطة وشنا حربًا على المخالفين. فبسط كالفين جو الإرهاب على جنيف، ووقف مارتن لوثر مع النبلاء ضد الفلاحين في ثورة الفلاحين واستخدمت الكنيسة أتباع الراهب المتصوف المتجرد صاحب الشفافية والإنسانية "فرانسيس الأزيسي" ليقوموا بمجازر ضد الفئات التي انشقت على المذهب.

ولا يقل من هذا أثرًا فيما يتعلق بموقف العقلانية موقف الكنيسة في قضية دوران الأرض. وإصرارها على خطأ ذلك وتمسكها بأن الأرض ثابتة.

واضطهاد كل العلماء والمفكرين الذين آمنوا بدوران الأرض طوال ثلاثة قرون. وقصة دوران الأرض أو ثباتها ليست من الدين في شيء، ولا يعني تمسك الكنيسة بها إلا الغباء الذي كان لا بد وأن ينال ازدراء العقلانية.

أضف إلى ذلك محاكم التفتيش البابوية الرهيبة – والأحكام بالموت حرقًا على الألوف المؤلفة بدعوى الهرطقة أو السحر، وما مارسته الكنيسة من وسائل التعذيب المروعة وإقناعها الرهبان بأنهم يؤدون مهمة مقدسة إلى الدرجة التي جعلت أحدهم يشعر بتأنيب الضمير لأنه أعفى بعض الأطفال الصغار من التعذيب وما مارسته الكنيسة على الفكر والبحث وتأليف الكتب من رقابة حديدية.

إن المحرقة التي نصبتها الكنيسة لعشرات الألوف من المخالفين وفنون التعذيب المروعة في سجون محاكم التفتيش وقفت سدًا بين العقلانيين – والإيمان بدين تمارس مؤسسته هذه الجرائم، وأصبح هذا العداء تقليدًا تتوارثه أجيال العقلانية جيلاً بعد جيل، وكان من العمق بحيث استحال أن ينسى أو يغتفر.

لم تجد العقلانية في دراساتها للأديان الأخرى – خلاف اليهودية والمسيحية – ما يمكن أن يصحح فكرتها عن الدين. فالديانة المصرية القديمة وديانة الآشوريين وديانة اليونانيين والرومان.. كلها تقدم الله في صورة الأجداد أو الحيوانات المقدسة أو القوى الطبيعية أو تنسب إليه كل النزق الإنساني والضعف البشري.

ولم تكن الديانات الهندية التي ظفرت ببعض العناية بأفضل من سابقاتها ففيها طبقية قاتلة أو صوفية مغرقة وربطت دراسات أخرى ما بين الدين و "الفولكلور" في

المجتمعات البدائية فأكدت لهم هذه الدراسة ما وجدوا أنفسهم مدفوعين للإيمان به من أن الأديان كلها أقرب إلى الخرافة.. منها إلى الحقيقة.

ومن نكد الدنيا أن الدين الوحيد الذي كان يمكن أن يصحح لهم المفاهيم..

وهو الإسلام. كان مجهولاً لديهم. فقد نجحت الكنيسة من أيام الحروب الصليبية في أن تسدل ستارًا كثيفًا عليه وأن تحجبه عن الفكر الأوربي، وتلاقت السياسة والكنيسة والأطماع الاستعمارية والغرور الأوربي الذي يعتبر الحضارة إرثًا أوربيا بدأ مع اليونان ثم الرومان ثم "الرينسانس" فالقوميات والفترة المعاصرة وأدت في النهاية لحصر الوعي الحضاري لدى الأوربيين في أنفسهم وفي الحضارة الأوربية وحدها:

وبهذا لم ير العقلانيون الأوربيون دينًا دون كنيسة أو صورة لله تجمع بين التجريد والحياة والكمال والإطلاق. ولم يسمعوا بمواقف محمد إزاء المخالفين له في العقيدة أو حتى المحاربين له. ولم يخطر ببالهم نظام كالبيعة أو سياسات كسياسات الخلفاء الراشدين أو "ديمقراطية الجامع" في المدينة المنورة التي فاقت "ديمقراطية السوق" في أثينا. لأنها ضمت الرقيق والنساء. وعندما سمحت ظروف العصر الحديث للأوربيين بالتعرف على الإسلام – كانت المجتمعات الإسلامية قد وصلت إلى درك الانحطاط والتخلف فكانت أسوأ دعاية للإسلام. وأعطت الفكر الأوربي – مع قلة المراجع والكتابات أو ندرتها – انطباعًا سيئًا – لم ينج منه إلا القلة التي تحررت من التحيزات وتحملت مشقة البحث عن الحقيقة وبادر بعض هؤلاء إلى إعلان إسلامهم بينما صرح آخرون أنهم – وإن آمنوا بالإسلام فإن القطار قد فاتهم أو أنهم لا يستطيعوا إعلان ذلك لأسباب تتعلق بالظروف العامة أو الأوضاع الخاصة.

***

إن هذه العوامل كلها – أعني:

ارتباط العقلانية بالنزعة الحسية أو الرياضية التي تبعدها عن عالم الله.. والروح.. وما وراء الموت.

التحريفات والمخازي والمخالفات الفاحشة، فيما يتعلق بالخلق والتاريخ والجغرافيا التي تضمنها "العهد القديم" والتعقيد اللاهوتي في فكرة الثالث والإله الشخصي.

ما حفلت به الأديان الوثنية القديمة من خرافات وترهات، وجهل العقلانية الأوربية بالدين الذي كان يمكن أن يصحح لها الصورة – وهو الإسلام.

المحرقة التي نصبتها الكنيسة للمخالفين، وصور التعذيب المروعة في محاكم التفتيش وما فرضته الكنيسة على الفكر من إرهاب وموقفها من قضية دوران الأرض وما حفلت به من فساد في بعض فترات تاريخها.

هذه الأسباب كلها أبعدت العقلانية الأوربية عن الدين وأوجدت كراهة عميقة تتزايد بقدر إيمان بعض العقلانيين بجدية الفكر وبلغت هذه الكراهية درجة أبعدت بعضهم ليس فحسب عن الحياد – أو الموضوعية – ولكن عن المنطق العقلاني نفسه.

وعندما يقول جوليان هكسلي..

".. وفي النهاية.. فإننا نجد المفارقة المجيدة. أن تلك الآلية غير القصدية، بعد ألف مليون سنة من عملياتها العمياء والآلية ولدت "القصد" كأحد الصفات الخاصة التي تنتسب إلى نوعنا – وبأدائها لهذا، كأنها جاوزت نفسها"([23]).

فإن هذا الكلام – يلقي حكمًا على عواهنه خلال "ألف مليون سنة "دون أي إثبات، بل باعترافه هو بأنها "مفارقة مجيدة" و "جاوزت نفسها".

---

[23] **(?) انظر مقالاً في مجلة the Rationalist Annual بقلم جوليان هكسلي بعنوان "تبرئة الداروينية The vindication of Darwinsm ص 87 عدد 1946.**

وأسوأ من هذا.. وأبعد.

"لو جلست ستة من القردة على الآلة الكاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين – فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير. فكذلك كان الكون الموجود نتيجة لعمليات عمياء تدور حول المادة لملايين السنين".

فهذا الافتراض الذي تكذبه كل قوانين الاحتمالات ما كان يمكن أن يتقدم به هكسلي، لولا أن الصورة التي قدمتها الكنيسة، وما حفل به العهد القديم من مخاز كانت أسوأ، وأن جوليان هكسلي هنا يكرر ما فعله جده "توماس هكسلي " 1825 – 1895. صديق داروين ونصيره في المناظرة الشهيرة التي جرت بينه وبين ويلبر فورس ممثل الكنيسة عندما سأله "إلى أي فصيلة من القرود ينتمي ؟ فقال هكسلي: " إنه يفضل أن يكون سليلاً لأي فصيلة من القرود على أن يكون دجالاً يستخدم ذكاءه في التضليل والخداع".

وكان الحفيد وهو رأس من رءوس العقلانية في غنى عن افتراض المستحيل، كما كان الجد في غنى عن أن يتقبل أن يكون سليلاً للقرود لو انفسح المجال لمعالجة القضية معالجة موضوعية، ولكن وجود الكنيسة ومواقفها نقلت الموضوع نقلة ذاتية أصبح النكران فيه أفضل الأمرين.

ولم يقتصر هذا المسلك على هكسلي، إذ أصبح التحيز ضد الدين صفة لصيقة بالعلماء في فترة ما.. لأن مواقف الكنيسة أصبحت في حكم الأمر المقرر والدائم، ولأن الكنيسة هي صوت الدين والممثلة له، وبالتالي لم يجد العلماء خيارًا ولم تستطع أن تتحرر من هذا المسلك إلا قلة تحملت عناء ومشقة البحث عن الحقيقة، فلما بلغتها اعترفت بتحيزها السابق "التقليدي" ضد الدين.

وقد قال أحد هؤلاء وهو إدوارد لوثر كيل أستاذ علم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو: "لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم فإنهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله. وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو "الله".

وسنرى في تفصيل مناقشة كل قضية من القضايا الأربع كيف أن العقلانية المزعومة تأثرت بعوامل ذاتية ولم تكن "عقلانية تمامًا".

الفصل السابع
القضية الأولى: وجود اللهِ تعالى وذاته

القضية الأولى والرئيسية هي ما يتعلق بالله تعالى. وهي بدورها تنقسم إلى شقين: الأول وجود الله تعالى والثاني ذاته وصفاته ومع أن هذه القضية بشقيها هي القضية الرئيسية بين القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان. فإن التدليل عليها أسهل من التدليل على القضيتين التاليتين، لأن وجود الله، عندما يتجرد من الغشاوات التي ألحقت بها دون أن تكون في صلب الدين المنزل. وعندما تتحرر من سيطرة المؤسسة "المؤسسة الدينية"ـ المنتفعة. تصبح قضية عقلانية بل يصبح الله تعالى هو – بتعبير بعض المفكرين – العقل الكوني.

ومن ناحية أخرى فإن القضية كانت – ولا تزال – من الأهمية بحيث فرضت نفسها على المجتمع الإنساني من نشأته الأولى حتى الآن ويصعب الزعم أن موضوعًا له هذه الصفة لا يكون له أصل حقيقي، إذ ما الداعي، إذا لم يكن له أصل، أن يفرض نفسه على الإنسان البدائي وعلى الفيلسوف المعاصر... وبأي تفسير نبرر تسليم الثالوث الفلسفي القديم سقراط وأفلاطون وأرسطو. والثالوث الفلسفي الحديث – ديكارت وكانت وهيجل.

لقد ظن بعض الكتاب أن هذه النقطة نفسها يمكن أن تكون أساسًا للادعاء بأن الله "مخلوق إنساني". إذ نجد أن صورة الله لدى الإنسان البدائي تتلاءم مع مستوى فكره وأن الصور التي نجدها في الحضارات القديمة – كالحضارة المصرية – والحضارة اليونانية حتى الحضارة الرومانية، بما في ذلك الحضارة الهندية... كلها صور وثنية تتجسم في حيوانات أو أجداد أو طبيعة (شمس – بحر إلخ..) ولكن هذا الظن يخلط بين شقي القضية –أي وجود الله تعالى... وتصور ذاته وصفاته. فكل المجتمعات توصلت إلى وجود الله واهتدت إلى فكرة وجود خالق، واستبعدت، على سذاجتها، فكرة الوجود التلقائي أو الوجود مصادفة ولكنها أخطأت في تصوير ذات الله. وكان لا بد أن تخطيء في هذا إذ لم يكن ممكنًا أن تتوصل إلى تصور أعلى من مداركها.. فضلا عن أن العقل الإنساني وإن رفض – في مرحلة نضجه – هذه التصورات البدائية، إلا أنه يعجز عن التصور "الإيجابي" الكامل لذات الله. وكان لا بد من "وحي" ينقل إلى الإنسان شعاعًا من شمس الألوهية الباهرة التي لا يستطيع الإنسان التوصل إليها.

ولو جاز أن يتوصل العقل الإنساني إلى ذات الله، لما كان هناك حاجة إلى الأديان السماوية... أو إلى الرسل.. أو الوحي ولأصبح من الممكن أن يقوم الفلاسفة بهذا – ولكن الفلاسفة عجزوا من سقراط حتى هيجل عن تقديم صورة تماثل ما جاء به الوحي حتى وإن اقتربت كثيرًا منه.

وهكذا تتضح القضية – فإن فكرة وجود الله كانت ولا تزال مغروسة في الفطرة الإنسانية – وقد صاحبت الإنسان من ظهوره – وتضمنتها كل الحضارات منذ ظهور المجتمع الإنساني وعلى اختلاف أوضاعها ومواقعها ونظمها وطرق إنتاجها... إلخ. ولا يمكن تعليل هذه الظاهرة إلا بأن لها أصلاً – وما أخطأته هذه الحضارات هو تصور ذات الله تعالى وصفاته. وهو أمر لا نجادل فيه. بل نسلم به ونرى أنه المبرر لظهور الديانات السماوية التي تقدم ما يمكن للعقل البشري استيعابه من تصور لذات الله. فإذا قيل إن السذاجة أو حتى الخرافة قد صاحبت تصور ذات الله في بعض الأديان السماوية كاليهودية أو المسيحية قلنا إن هذا ليس من حقيقة اليهودية أو المسيحية، ولكنه التحريف الذي زحف عليها. وهو تحريف ثبت يقينًا بما لا يمكن الشك فيه واعترف به كل الدارسين للتوراة والأناجيل. فضلاً عن أنه الأمر الطبيعي في أي دين يوجد به "المؤسسة الدينية المنتفعة" وهو ما ينطبق على المسيحية واليهودية. ونحن هنا لا نقول إلا ما أكده الباحثون الأوربيون أنفسهم – وما تقضي به طبائع الأشياء – إذ ليس من المعقول أن يحتفظ نص بحروفه ومضمونه الدقيق على مدار ثلاثة آلاف سنة

أو يكون ما كان عليه عندما يتعرض للترجمة لا مرة واحدة، ولكن عدة مرات. وقد اتهمت الكنيسة الكاثوليكية لوثر بأنه أجرى قرابة ثلاثين تحريفًا في نصوص الكتاب المقدس ليتفق مع مذهبه.

الفلاسفة يثبتون وجود الله:

كانت نقطة انطلاق الفلاسفة التي أدت بهم إلى التسليم بوجود الله هي الخلق واستبعادهم أن يوجد هذا الكون تلقائيًا أو مصادفة ومن ثم عليهم أن يسلموا بوجود "علة أولى" بلغة المناطقة أو "قوة خفية" بتعبير هربرت سبنسر، أو "التطور الخالق" كما يقول برجسون. ولم يسمح لهم منطقهم أو فلسفتهم بأن يذهبوا إلى ما وراء ذلك.

وفي الوقت نفسه فقد شذ بعض المفكرين، وظنوا أن الإيمان بالله عند عامة الناس إنما يعود إلى جهالتهم بالأسباب فينسبون إلى الله الإصابة بالأمراض أو إسقاط المطر أو إحداث الرعد والبرق والصواعق... فإذا أثبت العلم أن الأمراض تعود إلى "ميكروبات" وأن الأمطار والرعد والبرق والصواعق لها أسبابها التي كشف عنها علم الفلك انتفت الحاجة إلى "إيجاد" إله يعزى إليه القيام بها.

وعبر عن هذا المعنى أوجست كونت عندما قال:

"إن الإعتقاد في إرادات أو ذوات عاقلة لم يكن إلا تصورًا باطلاً نخفي وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية. أما الآن وكل المتعلمين من أبناء المدنية الحديثة يعتقدون بأن كل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لا بد أن تعود إلى سبب طبيعي وأنه من المستطاع تعليلها تعليلاً مبناه العلم الطبيعي – فلم يبق من فراغ يسده الاعتقاد بوجود إله – ولم يبق سبب يشوقنا إلى الإيمان به..."([24]).

وهو المعنى الذي صوره "الزهاوي" فترة إلحاده.

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقمت نفسـك في مقام معلل

أثبتَّ ربا تبتغي حـلاً بــه للمشـكلات – فكان أكبر مشكل!

ولكن اكتشاف الأسباب الطبيعية لا يغلق الكتاب ولا يحل المشكلة كما تصور أوجست كونت – لأن العقل البشري سيسأل عن السر وراء هذا التصرف من الطبيعة – فضلاً عن أن كلمة "الطبيعة" تجريد – فيه من الإبهام ما لا يمكن تعليق الأحكام. وكما قال أحد الكتاب في تعليق على كلام أوجست كونت إن موضع الضعف فيه.

"ينحصر في الاعتقاد بأنه لا يوجد في الكون من شيء يحتاج إلى تعليل أكثر من وصل الحلقات المتفرقة في سلسلة الظاهرات الطبيعية التي يتألف منها الكون المادي في مجموعة بعضها ببعض في حين أن السلسلة في مجموعها – باعتبارها كلا متواصل الأسباب لم يعرف سببها الأول"([25]).

ولما كانت الأسباب الطبيعية قد عجزت عن تعليل ذلك. فإن الاحتمال الوحيد أمام العقل هو وجود إرادة يعود إليها السبب، ولا بد أن تكون هذه الإرادة من القوة والحكمة بحيث تكون قادرة على خلق هذه الظواهر – أي لا بد من "الله" "فألفة العقل" تقتضي وجود الألوهية.

ولايمكن التساؤل عن السبب في وجود الله لأن هذا سيؤدي بنا إلى ما يسميه المناطقة "الدور" الذي لا ينتهي ولا يحل المشكل ويصبح أقرب إلى العبث لأنه يضحي بالواقع في سبيل جدل منطقي مظنون.

لقد حاول أوجست كونت وضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو تؤمن بإله فوق البشر([26]). وحاول أن

---

[24] (?) انظر بحثًا للأستاذ إسماعيل مظهر في افتتاحية العدد الصادر في 15 يوليو 1947 عن مجلة المقتطف بعنوان "الله وفكرة الألوهية أو الربوبية" ص 85.

[25] (?) المرجع السابق ص 87.

[26] (?) قيل إن أوجست كونت انتهى إلى أن الإسلام أقرب الديانات إلى العقلانية، ولم يكن لهذا مردود عملي، لأن الجو الذي أحاط به لم يكن ليسمح بذلك، وشأنه

يطبق هذه الفكرة في بريطانيا تلميذه المخلص فردريك هاريسون الذي ظل رئيسًا للجمعية الوضعية في بريطانيا طوال عشرين عامًا. وكان هاريسون شخصية بارزة في المجتمع البريطاني المثقف. وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية. وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية في 11 يوليو سنة 1882 وتبرع بالدفاع عن عرابي.

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين؟ لاشيء تقريبًا. وقد وصف هكسلي محاولة كونت بأنها "الكاثوليكية مطروحًا منها المسيحية!" كما وضعت بياتريس وب، صديقة فردريك هاريسون الحميمة، والتي كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية بأنها "جهد باسل لإيجاد ديانة من لاشيء، ومحاولة تستحق الرثاء والعطف من البشرية البائسة لتدير رأسها وتعبد ذيلها".

وما حاوله أوجست كونت في القرن الماضي دون توفيق يحاوله جوليان هكسلي في هذا القرن، دون توفيق أيضًا، فهو يريد دينًا دون وحي، ودون إله. وما من دين يمكن أن يكون دون وحي. أو دون إله، إنه لا يكون دينًا. وإنما نظرية إنسانية ولا بد – في هذا المجال – أن يكون مصيرها الفشل.

وفي الاتحاد السوفيتي أيضًا وجدت مع أوائل القرن جماعة باسم "الباحثين عن الله" بذلت جهدها للتوفيق بين فكرة الله والماركسية، ولكن الجماعة اختلفت وانبثقت عنها مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن الله... ولكن لبناء الله!.

والفرق بين الاتجاهين هو في مفهوم الله في كل اتجاه، فالباحثون عن الله ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية، أما البناة فإن الله – في نظرهم – لم يوجد بعد.. ولكن جهد الإنسانية الجماعي يجب أن يبني إلهًا جماعيًا اشتراكيا ساميًا، ووجدت هذه النظرية في المفكر الاشتراكي "بوجدانوف" رفيق لينين القديم ظهيرًا وفيلسوفًا، كما فتنت عددًا آخر من الشيوعيين القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركي"الذي كان قد آثر الاعتكاف في كابري عندما صدمه العنف الذي اتسمت به الثورة، وكان تأييد جوركي لهذه النزعة من القوة بحيث أكسبها اسم "مدرسة كابري".

وباستعراض قائمة الفلاسفة من سقراط حتى الفترة المعاصرة، نجد أنه لم يشذ عن الإيمان بالله إلا قلة وقفت حائرة، ترجع البصر ليعود إليها البصر وهو حسير. أما الأغلبية فآمنت، فقد آمن سقراط وأفلاطون وأرسطو، كما آمن روسو، بالله وخلود الروح والثواب والعقاب، ولم يجد "لوك" تنافرًا ما بين الوحي والعقل وارتأى أن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر ميسور، وكان "هوبز" مسيحيًا ملتزمًا. وكان كانت مؤمنًا بالله، ووضع دليله المشهور لذلك، كما قامت فلسفة هيجل على أساس وجود الله. وسنعالج في الفقرات التالية أفكار بعض الفلاسفة بالنسبة لقضية وجود الله.

مدخل ديكارت:

يستحق ديكارت اهتمامًا خاصًا باعتباره المفكر الذي نهج الوصول إلى الحقيقة نابذًا وراء ظهره كل الموروثات، وجاعلاً الشك طريق اليقين ورائدًا للعقلانيين جميعًا.

وفي كتابه "التأملات" جاء ديكارت بمدخل جديد يقلب رأسًا على عقب كل دعاوى العقلانيين المزعومة، فقد ذهب إلى أن "الميتافزيقيا" علم دقيق يمكن إثبات قضاياه بيقين رياضي وصرح في الرسالة التي كتبها في 15 أبريل سنة 1630 أنه اهتدى إلى "السبيل إلى البرهنة على الحقائق الميتافيزقية ببراهين هي أكثر بداهة من براهين الهندسة" ويقول في موضع آخر "ثق أنه ليس في الميتافيزيقيا شيء إلا اعتقد أنه واضح كل الوضوح للنور الفطري ويمكن أن يبرهن عليه برهنة دقيقة وإذن فالميتافيزيقيا علم يعادل في يقينه علم الهندسة، إن لم يزد عليه" وهي أكثر يقينًا من الهندسة" لأن طائفة كبيرة من الحقائق الميتافيزيقية يمكن اكتشافها قبل أن يرفع الشك عن حقائق الرياضيات([27]).

شأن، بورجيه، الذي ألم بامتياز الإسلام آخر عمره، وبعد أن فاته القطار.

[27] **(?) كتاب التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت – ترجمة الدكتور عثمان أمين – مكتبة الأنجلو.**

إن الهدف الأعظم لديكارت كان الوصول إلى اليقين ولم يكن المقصود من الميتافيزيقيا الديكارتية إثبات وجود النفس والله أصلاً وإنما الإعداد للمعرفة. والمعرفة العلمية على وجه الخصوص، ولهذا فإننا نرى فيما ذهب إليه منهجًا علميًا ثوريًا يخالف كل المناهج السابقة التي كانت تستبعد "الميتافيزيقيا" من إطار الاستدلال العلمي. وإنما وصل ديكارت إلى هذا لأنه رأى أن الشك في حقيقة الأشياء الحسية معناه العدول عن كل معرفة لا تكون قائمة على حدس من حدوس العقل. والحدس عند ديكارت عبارة عن الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق فتذعن لها النفس – وتوقن بها يقينًا لا سبيل إلى دفعه.

فالحدس نظرة من نظرات العقل بلغت من الوضوح مبلغًا يزول معه كل شك. والحدس عقلي لا يتعلق بالحواس ولا بالخيال، إنما يتعلق بالذهن – بل الذهن الصافي. وبهذا المنهج فإن ديكارت الرياضي وجد أن فكرة الله في مثل وضوح قاعدة هندسية "مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين، والله موجود – هما قضيتان متعادلتان في اليقين"([28]).

وحدد ديكارت تصوره لله تعالى "أقصد بلفظ الله جوهرًا لا متناهيًا أزليًا – منزهًا عن التغيير – قائمًا بذاته محيطًا بكل شيء قادرًا على كل شيء، خالدًا – ثابتًا قد خلقني أنا وجميع الأشياء ويستطرد – وهذه الصورة قد بلغت من العلو قدرًا يجعل من المستحيل أن أكون قد اكتسبت من نفسي الفكرة التي لدي عنها – ولذلك فإن هذه الفكرة لا يمكن أن يكون قد وضعها إلا جوهر لا متناه حقًا وإذن فالله موجود([29]).

ويرفض ديكارت فكرة "وحدة الوجود " لأن الله هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها – ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال([30]).

إن كتاب التأملات "لديكارت" يمكن أن يكون أفضل إثبات لوجود الله يأتي به فيلسوف العقلانية الحديثة وهو يفضل كثيرًا الأسلوب الذي انتهجه فقهاء علم الكلام الإسلاميين الذي يعود إلى أصول المنطق الأرسطي ولهذا يصدق عليه ما قاله ديكارت على الكنيسة "لقد كان رأيي دائمًا أن مسألة الله والنفس أهم المسائل التي من شأنها أن تبرهن بأدلة فلسفية خيرًا مما تبرهن بأدلة اللاهوت "حتى وإن لم يكن علم الكلام "لاهوتًا" خالصًا كاللاهوت المسيحي، وإنما يفضل المنهج الديكارتي غيره لأنه اتسم بالبساطة التي كثيرًا ما تصطحب بالحقيقة عندما اعتبر الحدس العقلي والبداهة بالنسبة لوجود الله. فاقترب بذلك كثيرًا من فكرة "الفطرة" التي اعتبرها الإسلام أصلاً من أصول الاعتقاد وسبيلاً للإيمان بالله.

منطق وليم جيمس:

وليم جيمس (1842 – 1910) كما هو معروف مبدع نظرية "البراجماتيزم" أو "الذرائع" وهي تذهب إلى أن جدوى الأفكار والنظم إنما تقاس بمدى فعاليتها العملية. فما يثبت أنه مفيد وعملي فهو صالح والعكس بالعكس. وقد تعرضت هذه الفكرة لنقد قاس – خاصة من أنصار "المبدئية" أي الذين لا يقيسون المبادئ بنفعيتها، ولكن بأصالتها وحقيقتها. وقد يظن أن وليم جيمس سيكون آخر من يدافع عن الأديان، وبالذات فكرة "الاعتقاد" و "الإيمان" ولكن الواقع غير ذلك. فإن منطقه العملي أدى به إلى التسليم بأن الفائدة العملية للاعتقاد بصفة عامة والاعتقاد في الله بوجه خاص لا بد وأن يكون وراءه أصل حقيقي لا مزعوم أو متخيل.

فدخل الأديان من باب المنافع والمصالح – وبالنسبة للإسلام فإن هذا مدخل غير مرفوض – لأن من المسلم به أن المصلحة من مقاصد الشريعة، وأن الإسلام لم يتجاهل المنافع بل أقرها حتى في شعيرة مثل الحج، وأن الرسول أرسل للناس "ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث".

---

28 **(?) المرجع السابق ص 25.**
29 **(?) المرجع السابق ص 124.**
30 **(?) المرجع السابق ص 22.**

ولا ريب أن دفاع جيمس عن الدين حتى من هذا المدخل يعد دليلاً على صحة الأديان وسلامتها. لأنه عندما يقوم بذلك فإنه يستخدم أدلة قد يكون الناس أكثر استعدادًا لقبولها وفهمها، ليس فحسب في اللغة ولكن في الهدف أيضًا. فهو يتكلم بلغة مفهومة ولهدف مطلوب.

وفي كتابه "إرادة الاعتقاد" انتقد وليم جيمس بقوة الماديين أصحاب العقول التي "لا تقبل من الحقائق إلا ما كان محسوسًا" ويستطرد.

"والمعشوق الأوحد لهذا النوع من العقول هو ذلك البناء المسمى "بالعلم" وأقرب الطرق عندهم وأسهلها لقتل ما لا يؤمنون به من آراء هو أن توصف بأنها آراء "غير علمية" ولكن لا بد من الاعتراف بأنه ليس هناك أدنى سبب لهذا. حقًا لقد قفز العلم في الثلاثمائة عام الأخيرة قفزات عظمى يفخر بها. ومد من أفق معرفتنا بالطبيعة مدًا عظيمًا في مجموعها وفي تفاصيلها. ولقد سمعت عدة من الأساتذة يقولون إن العلم قد أوجد الأصول والقواعد النهائية للحقيقة. ولم يترك للمستقبل إلا النظر في التفاصيل".

ولكن وليم جيمس يرى مع هذا أن معرفتنا ليست إلا قطرة من بحر هو جهلنا. ومهما يكن من اليقين أو من عدمه حول كثير من الأشياء فإن هذا القدر – على الأقل – يقيني، وهو أن عالم المشاهدة محاط بعالم آخر أكبر منه – ولكننا لا نعرف في الوقت الحاضر شيئًا عما يتصف به من صفات إيمانية.

تعترف اللاأدرية الوضعية بهذا المنطق – ولكنها ترفض أن تطبقه على الناحية العملية. إذ تقول تلك النظرية ليس لنا من حق في أن نتوهم – أو أن نفترض أشياء في ذلك الجزء الخفي من العالم لمجرد أن ذلك الوهم أو هذا الافتراض قد يبدو محققًا لأغراضنا العليا. فلا بد أن ننتظر دائمًا قبل أن نعتقد حتى نجد البراهين الحسية المبررة للاعتقاد وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود، فليس لنا أن نفترض فرضًا ما. ذلك طبعًا موقف سليم على وجه عام. فإنه إذا لم يكن للمرء غرض ما من وراء العالم الخفي، وإذا كان لا يجد إليه من حاجة ماسة، ولا يعنيه أن ينسجم أو لا ينسجم معه، فإن خير الطرق وأحكمها بالنسبة له هو حالة الحياد وعدم الاعتقاد لا في هذا ولا في ذلك، ولكن الحياد على الرغم من أنه صعب المراس من ناحية نفسية، هو كذلك غير ممكن التحقيق في هذه الحالة، حيث أن الأمر المخير فيه أمر حيوي وعملي بالنسبة لنا. وذلك لأن الاعتقاد والشك كما يخبرنا علماء النفس أمران حيويان يستلزمان منا عملاً. فمثلاً طريقنا الوحيد للشك أو لرفض الاعتقاد في وجود شيء ما هو أن نستمر في حركاتنا وتصرفاتنا كأنه لا وجود له. فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفة أصبح باردًا فإني أترك النوافذ مفتوحة ولا أوقد فيها نارًا كما أفعل لو كنت أعتقد أن جوها لا يزال دافئًا. وإذا شككت في أنك من الأشخاص الذين لا يوثق بهم. فإني أكتم عنك جميع أسراري، كما أفعل لو علمت أنك لست مجالاً للثقة، وإذا ترددت في أن منزلي يحتاج أن يؤمن عليه فإني أدعه غير مؤمن عليه. كما أفعل لو علمت يقينًا أنه ليس هناك من حاجة للتأمين. كذلك إذا لم أعتقد أن هذا العالم عالم إلهي، فليس لذلك من مظهر إلا الامتناع عن التصرف على أنه إلهي، وليس لهذا من معنى إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيرة المهمة كأنها ليست بالخطيرة أو التصرف على نحو غير ديني. من هذا يتبين لك أن عدم الفعل هو نفسه فعل في بعض الأحيان. ولا بد أن يعتبر كذلك وإذا لم يكن الفعل من أجل شيء فإنه لا بد أن يكون من ناحية عملية ضد ذلك الشيء، وفي جميع هذه الحالات، لا يمكن وجود حياد تام غير متردد فيه.

وبعد كل هذا أليس القول بوجوب الحياد في حين أن ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الاعتقاد، قولاً في غاية من الحماقة؟ أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة في العالم الخفي مجرد يقين خاطئ لا دليل عليه؟ فلقد برهن التنبؤ المبني على الاتجاهات والميول النفسية على صحة نفسه في كثير من الأمثلة الأخرى. انظر إلى العلم نفسه، فمن غير أن تكون لنا ميول نفسية تستدعي بالضرورة انسجامًا منطقيًا ورياضيًا في هذا العالم فإنه يكون من العسير علينا أن نذهب لنبرهن على وجوده بين ثنايا ذلك العالم الطبيعي الفج

وفجواته، ويندر أن يوضع قانون علمي يتيقن بحقيقة ما فيه، من غير أن يكون كل ذلك مسبوقًا ببحث، غالبًا ما يكون شاقًا ومضنيًا ليرضي حاجة نفسية ويشبعها. ولكنا لا ندري من أين أتت تلك الحاجات النفسية، إنا نجدها فينا فحسب وليس لعلم النفس البيولوجي من مجهود نحوها إلا أن يضعها في دائرة واحدة مع "الاختلافات العرضية" موافقًا في ذلك داروين. ولكن للحاجة النفسية إلى الاعتقاد في أن هذا العالم المشاهد ليس إلا مجازًا لعالم آخر أكثر روحانية وأبدية من القوة والسلطان على نفوس هؤلاء الذين يشعرون بها مثل ما للحاجة النفسية إلى اعتقاد الأكراد في قوانين السببية والمسببية من قوة وسلطان على عقول العلماء الفنيين. ولقد برهن المجهود المتعاقب من الأجيال المختلفة على أن هذه الحاجة الأخيرة حق وعلى أنها صحيحة في الواقع فلماذا لا يمكن أن تكون الأولى صحيحة أيضًا؟

وإذا ما صح كل ذلك في العالم المشاهد، فلماذا لا يصح في العالم الغائب ولا يكون دليلاً على وجوده أيضًا؟ وباختصار، من هو الذي يحق له أن يمنعنا من أن نثق في ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها؟ ليس للعلم كعلم أن يزعم هذه السلطة لنفسه، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعل، وليس له شأن بغيره، وأما قول اللاأدريين "ليس لك أن تعتقد غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة" فليس إلا تعبيرًا (لكل امرئ الحق في أن يعبره) عن اتجاه خاص ورغبة شخصية في أدلة من نوع خاص.

ويستطرد وليم جيمس "ولكن إذا افترضنا ألا نقدر أن نتأكد من ذلك فهل معنى ذلك أنه ليس لنا أن نثق، وأن الثقة أو التصديق ليست إلا أحلامًا وخديعة من أحلام البله والمغفلين، أو ليست إلا مكانًا يلجأ إليه الكسالى من الناس، أو أنها بالعكس لا تزال اتجاهًا حيويًا قويًا لكل منا أن يتجه إليه وينغمس فيه؟ إننا طبعًا أحرار في أن نثق وفي أن نصدق ما نشاء، ما دام غير محال في نفسه وما دمنا نجد من الأشباه والنظائر ما يؤيده. والآن كل ما يشهد للمذهب المثالي من الأدلة المختلفة يبرهن على أن العالم المادي ليس هو العالم المطلق وأن القول بأن حياتنا المادية كلها لا بد أن تكون مشربة بجو روحي، ومختلطة بنوع من الوجود ليس لدينا الآن من القوى ما نعرفه بها، تمكن البرهنة عليه"([31]).

إن المنطق النفعي لوليم جيمس في البرهنة على وجود الله لا يبخس من قيمته، لأن هذا المنطق – كما ذكرنا مقبول من وجهة نظر الإسلام – ولأنه سائغ مقبول ولأنه أحد المداخل التي يمكن منها الوصول إلى موضوع لا يمكن معاملته "عدًا ونقدًا" أو بمنطق الحواس من رؤية أو لمس... لأننا إذا سددنا مثل هذا المنفذ الفلسفي والعلمي، فلا يبقى إلا ما طالب به المشركون وما يتناقض مع جوهر الموضوع "أرنا الله جهرة!!".

وخلاصة فكر وليم جيمس فيما يتعلق بالله تعالى تحمله الكلمات التالية "إنه يبدو لي أيضًا – وتلك هي نتيجتي النهائية – أن العالم الخلقي المستقر المنظم الذي يبحث عنه الفيلسوف الخلقي لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قوة مقدسة ذات مطالب عامة شاملة. فإذا وجد مثل هذه القوة. فإن منهجه([32]) في إخضاع أحد المثل للآخر يكون المنهج الصحيح لتقدير القيم، وتكون مطالبه أبلغ أثرًا ويكون عالمه المثالي أكثر العوالم ممكنة التحقيق شمولاً وإذا كان موجودًا الآن فلا بد أن يكون قد علم بالفعل تلك الفلسفة الخلقية التي نبحث عنها، وعلم أنها النموذج الذي يجب أن نعمل للوصول إليه دائمًا لذلك ينبغي لنا، كفلاسفة ومن أجل تحقيق غاياتنا من إيجاد نظام أخلاقي واحد أن نفترض وجود الإله، وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية".

ومن رحمة الله بالبشرية أنه لم يدع الأمر وقفًا على إرادة الفلاسفة وتمنياتهم التي كان يمكن ألا تجد اهتمامًا، أو أن تعصف بها الريح. إن ما تمناه وليم جيمس كان هو – بالفعل – الأمر الواقع. وقد استهدفت ثورتان كبيرتان، مدفوعتان بمختلف الدوافع التي ارتؤي وقتئذ أنها تمثل التقدم الأمثل – الإطاحة بالأديان. وأثبت التاريخ أن ما ظن

---

31 **(?) إرادة الاعتقاد ترجمة الدكتور محمود حب الله مطبوعات الجمعية الفلسفية المصرية – ص 1 - القاهرة 1946 صفحات 129 – 133 بتصرف.**

32 **(?) تعود إلى "العالم الخلقي" – ص 106.**

تقدمًا لم يكن إلا وهمًا من أوهام المنظرين – وأنه أساء إلى البشرية أضعاف ما نسب إلى الدين من إساءة. فقد أوجد آلهة مزيفة. وادعى كتبًا مقدسة وأوجد كنيسة من نوع خاص. ثم انتهى بالفشل. وعادت الكاثوليكية إلى فرنسا بعد أن خبت الثورة الفرنسية، وعادت الأرثوذكسية والإسلام إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن أعلن إفلاس الماركسية اللينينية و "ثورة أكتوبر المجيدة".

العلم الحديث يثبت وجود الله:

كان الفيلسوف هوايت قد تنبأ بأن العلم الذي سحق اللاهوت المتعسف في الماضي سيسير في المستقبل مع الدين جنبًا إلى جنب، وبينما يتضاءل نفوذ اللاهوت يقوى الدين وينمو في ثبات ([33]) وقد صدقت هذه النبوءة ربما بدرجة أكثر بكثير مما تصور هوايت.

ذلك أن البحوث العلمية والاكتشافات الفلكية والتجارب الذرية والفسيولوجية قد وصلت إلى درجة تثير الذهول، درجة يفوق الواقع فيها الخيال وتجاوز الحقيقة الخرافة وتصيب المتابع لها بنوع من الدوار أو "الدوخة" التي تعقب تلقيه ضربة على أم رأسه ! فما أبعد صورة الكون اليوم عن الصورة القديمة الساذجة التي كان الشاعر يصور فيها النجوم المتوهجة على صفحة السماء بحبات ماس على صدر غانية... أو عندما يشتط به الخيال فيبدع عمالقة وأقزام مثل عمالقة وأقزام "سويفت" أو يتصور عوالم أسطورية مثل عوالم السندباد البحرية وسيف بن ذي يزن... إن هذه الصور كلها أصبحت ساذجة، بدائية أمام تقدم العلوم في المجالات الثلاثة الهامة: الفلك والطبيعة النووية... والفسيولوجيا.. وها هي ذي صورة مبسطة جدًا.

"إن كوننا هذا فسيح جدًا. ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة 186 ألف ميل في الثانية الواحدة – وإن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن. إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق 1.000.000.000 سنة يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد. وإنما هو يتسع كل لحظة حتى أنه بعد 1.300.000.000 سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دورتها حول الكون أبدًا – وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون.

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروبًا هذا العدد في 500.000.000.000.000 وفي كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم – أو أكثر أو أقل ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم – وهي التي تراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة – تضم حيزًا مداه مائة ألف سنة ضوئية ونحن سكان الأرض – نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية. وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونًا من السنين الضوئية...([34]).

فإذا انتقلنا من عالم الجسامة الفلكية اللانهائية التي تقاس مسافاتها بألوف السنوات الضوئية (الضوء يقطع 186 ألف ميل في الثانية) إلى عالم الذرات، وجدنا ما يقابله في التركيب والانتظام.. ولكن في حدود من الضآلة لا يمكن أن نشاهدها بمنظار يكبرها ملايين المرات.. هي الذرة وهذه الذرة المتناهية في الضآلة يدور بداخلها نظام كنظام المجموعة الشمسية، فهي تضم مجموعة من الإلكترونات التي تشغل من مساحة الذرة 1 (التي 1.000.000.000 لا ترى بأكبر مجهر إنساني) والإلكترون يدور حول البروتون – الذي هو الجزيء الإيجابي في الذرة – بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس([35]).

---

33 **(?) قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل – مكتبة الآداب. ص 256.**

34 **(?) الإسلام يتحدى – وحيد خان – الطبعة الثامنة من 52 إلى 54.**

35 **(?) المرجع السابق من 52 إلى 54.**

فإذا انتقلنا إلى الأعضاء البشرية... من مخ أو عين أو يد... إلخ ففي المخ عشرة مليارات خلية عصبية تستطيع أن تسجل 86 مليون معلومة كل يوم وتتبع الذاكرة خلال فترة حياة الإنسان إلى مائة ألف مليار معلومة.

فهذه النتف التي أخذت عرضًا من كتاب غير فني بغرض التبسيط – قد أثبتت للإنسان المعاصر أن الكون أعظم وأكثر تعقيدًا وإعجازًا من كل مدى كان يمكن لخيال الإنسان القديم أن يصل إليه. بحيث لا يمكن أبدًا افتراض المصادفة أو التكوين العشوائي. والتفسير الوحيد لوجود مثل هذا الكون المعجز هو وجود الله تعالى.

فقد كان هناك – كما قال فرانك ألن – عالم الطبيعة البيولوجية – أربعة احتمالات. الأول أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال... وهو ما يتعارض مع الوجود الماثل. والثاني أن يكون الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم. وهو كذلك لا يقل عن سابقه سخفًا. وقد صور القرآن في إيجازه وإعجازه سخافة ذلك] أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ [(35 الطور) الاحتمال الثالث أن يكون هذا الكون أزليًا – ليس لنشأته بداية وهذا احتمال يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون. وذلك في عنصر واحد هو الأزلية. وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق – وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر[36]. لكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا. وأنه سائر حتمًا إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق – ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، وهذا دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة. فهو إذًا حدث – ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، وأنه عليم محيط بكل شيء – قوي ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

ويعدد الكاتب الخصائص التي يتميز بها الكون ولا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية.

فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها – فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار – وهي تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول – الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكن. ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية... ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على 500 ميل) ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميًا إلينا. منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطرًا يحيي الأرض بعد موتها – والمطر مصدر الماء العذب – ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية.

وكثيرًا ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لا نهائي – ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر – أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها. ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

---

36 **(?) الله يتجلى في عصر العلم: ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ص 7 وفي قول الكاتب "وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين تساهل كبير" ويبدو أنه لم يشأ أن يعالجه بادئ ذي بدء، وترك للأدلة العملية تفنيد فكرة أزلية للكون. وهو ما دلل عليه بفكرة فناء الكون لأن النشاط الحيوي يؤدي إلى نضوب الطاقة. ومعنى هذا أن الكون ليس أزليًا وإلا لاستهلكت طاقته من زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصل العلم – دون قصد – إلى أن لهذا الكون بداية... وهو بذلك يثبت وجود الله. لأن ماله بداية – لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه – ولا بد له من مبدئ أو محرك أولي... أي خالق.**

أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف – وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه – وانخفض تبعًا لذلك ارتفاع غلافها الهوائي وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع – ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعا كبيرًا وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكن نقصًا ذريعًا – وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة – أو في أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها – ويتعذر السفر والاتصال. بل قد يصبح ضربًا من الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها 150 ضعفًا ولنقص الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولارتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على 150 ك جرام على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حاليًا رطلاً واحدًا إلى 150 رطلاً. ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية. وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول وتضاعفت تبعًا لذلك طول فصل الشتاء – وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن، لبلغت الحرارة أربعة أمثالها وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهيئ للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية، على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

ويعود المؤلف إلى مناقشة فكرة المصادفة التي يطرحها البعض بديلاً عن الله.

".. فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكم وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة – فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة".

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم. ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدمًا كبيرًا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد).

وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة. وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في ميدان معين من الزمان.

ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي الكربون والأيدروجين والنتروجين والأكسجين والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد 40000 ذرة – ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة 92 عنصرًا موزعة كلها توزيعًا عشوائيًا فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزئيًا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاني بحساب هذه العوامل جميعًا. فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة 1
إلى 10 16 أي بنسبة 1 إلى رقم 10 مضروبًا في نفسه في 160 مرة. وهو رقم لا

يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات – ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة عددًا لا يحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين (10 243 سنة).

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تألفت بها تصبح غير صالحة للحياة. بل تصير في بعض الأحيان سمومًا.

وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب ليسز j.b. Leathes الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين (10 48) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزئيًا بروتينيًا واحدًا.

ويستطرد الكاتب:

ولكن البروتينات ليست إلا موادًا كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئًا. إنه العقل اللانهائي – وهو الله وحده...([37]).

ويعالج عالم آخر هو جون كليفلاند كوثران القضية نفسها من زاوية البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة. والنيوترونات التي يعتبر كل منها ناشئًا عن اتحاد بروتون واحد مع إلكترون واحد – والنظام الذي يحكمها، والذي يجعل جميع البروتونات التي بالذرة الواحدة تقع في نواة مركزية – أما الإلكترونات فإنها تدور حول محاورها في مدارات مختلفة حول النواة وعلى أبعاد شاسعة منها مكونة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة... وهي كلها تخضع لقوانين دقيقة لا يتصور أن تأتي نتيجة للعشوائية أو المصادفة.

ويرى رسل تشارلز أرنست وهو أحد علماء الأحياء أن أبسط الخلايا – نباتية أو حيوانية – تعمل بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقة في صناعة الساعات ولا يمكن للعقل البشري أن يتصور وجود آلة دقيقة كالساعة بمحض المصادفة ودون الاستعانة بالعقل المفكر واليد الماهرة وبالتالي يصعب – أو يستحيل – أن يتصور أن أبسط خلية تعمل بدقة تفوق الساعة – وجدت بنفسها أو نتيجة للمصادفة ([38]).

وأثار عالمان أسهما في وضع كتاب: "الله يتجلى في عصر العلم" الذي استشهدنا به في الفقرات السابقة نقطة هامة هي استخدام العجز عن إدراك الظواهر الكونية أو البيولوجية للتدليل على وجود الله ومع هذا فقد قال أحدهما – تشارلز أرنست وهو عالم أحياء "لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات. فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات أو البروتينية الكبيرة. وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء. وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين.

وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة فهذا شأنه وحده. ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق هذه الأشياء([39]).

---

37 **(?) المرجع السابق من 8 إلى 12.**
38 **(?) المرجع السابق ص 26.**
39 **(?) المرجع السابق ص 79.**

وحذر العالم الثاني – وهو جون أدولف بوهلر وهو أستاذ كيماوي من "أن نقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون. عندما اتخذوا آلهة لكي يجدوا تفسيرًا لما غمض عليهم وحددوا لكل إله قدرته – وعينوا له وظيفة ودائرة تخصصه – وعندما تقدمت العلوم وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التي تخضع لها – لم يعد هؤلاء الناس في حاجة إلى الآلهة التي أقاموها. بل إن كثيرًا من البشر أنكروا وجود الله لنفس هذا السبب، والواجب أن نتلمس قدرة الله في النظام الذي خلقه والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر والأشياء. فقد يستطيع الإنسان أن يفسر ما كان غامضًا عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها. ولكن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين فهي من صنع الله وحده. ولا يفعل الإنسان أكثر من أن يكتشفها ثم يستخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون. وكل قانون يكتشفه الإنسان يزيده قربًا من الله وقدرة على إدراكه فتلك هي الآيات التي يتجلى بها الله علينا[40]).

وما قاله الباحث هو ما يمكن أن توحي به إلينا الآية:

] سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[فبقدر ما تتكشف للناس من آيات الله بقدر ما يزداد إيمانهم بالله. وقد تصور البعض أن اكتشاف العلم الحديث لكثير من الظواهر التي اختص الله بها نفسه مثل معرفة نوع الجنين أو سر نزول الأمطار أو كسوف الشمس... إلخ يزلزل الإيمان. ولكن الآية تعلن بصريح اللفظ أن الله تعالى "سيري" الناس هذه الآيات في الكون وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. فليس هناك تعارض بين اختصاص الله تعالى بهذه المعرفة وقت نزول القرآن... أو بعده بأجيال. ثم إطلاعه الناس عليها وكشفه عنها بعد فترة ليزدادوا إيمانًا.

ويعد تقدم العلم مصداقًا لذلك فيما سبق أن أوردنا وما كشفت عنه آخر مباحث العلم. فبعد نشر نظرية النسبية العامة توصل العلماء إلى أن الكون يتمدد وأن المجرات تتباعد بعضها عن بعض. وهذا يدل على أنها كانت في الماضي السحيق متحدة مما يدل على أن للكون بداية.

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية فلقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقودًا تقليديًا. فالاحتراق الكيميائي العادي لم يكن يصلح تفسيرًا لطاقة الشمس. إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحمًا لأحرقت نفسها في غضون ثلثمائة عام. وظلت الشمس لغزًا إلى حين اكتشاف الطاقة النووية – في السنوات الأولى من القرن العشرين. وأخيرًا تمكن الفيزيائيان هانز بيته Hans Bethe وكارل فون فايتنرساكر Carl Von Weizsacker في عام 38 من تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية. ففي قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هليوم منتجًا الطاقة والضوء وعلى ملايين السنين كانت العمليات التي تتم داخل كل نجم تكون شيئًا فشيئًا لا الهليوم فحسب بل جميع العناصر الأثقل: الكربون، الأكسجين والسيلكون والحديد وسائر العناصر، وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلة في الكون قد تكونت من الهيدروجين في قلوب النجوم، فلا بد إذًا من أن الكون كله تقريبًا كان مركبًا في البداية من الهيدروجين، وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية.

وأخيرًا تقدم الفيزيائي جورج جاموف George Gamowf عام 1948 بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم برأي مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئي للمادة أطلق عليه "الانفجار العظيم" ويفترض أن كرة النيران فائقة الحرارة قد تمددت بسرعة كالانفجار ثم بردت وباستخدام الفيزياء النووية بين جاموف كيف أن الجسيمات دون الذرية التي كانت موجودة في أسبق المراحل أنتجت – بتأثير درجات الحرارة والضغوط اللاحقة، ذرات الكون حديث النشأة، وفضلاً عن ذلك بين أنه نتيجة التمدد والتبريد، لا بد من تشتت وهج خافت من الإشعاع الأساسي بشكل منتظم في جميع أرجاء الكون.

---

40 **(?) المرجع السابق ص 105.**

وظل تنبؤ جاموف معلقًا طوال عدة أعوام ثم اكتشف آرنو بنزياس Arno Penzias وروبرت ويلسون Robert Wilson في عام 1965 بمحض الصدفة وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى إشعاعًا ضعيفًا منبعثًا من الفضاء. وبعد أن قاس بنزياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجد أنه يقرب من 3.5 فوق الصفر المطلق. ولم يكن الإشعاع أشد كثافة في اتجاه الشمس أو في اتجاه مجرة درب التبانة (Milky way) ولذا لا يمكن أن تكون المجموعة الشمسية أو المجرة مصدر هذا الإشعاع فلم يبق إلا تفسير واحد وهو أنه بقيه من الإشعاع الأصلي الناتج من "الانفجار العظيم" وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظرية "الانفجار العظيم".

فعالمنا إذًا تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة ويشير حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليان إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح ما بين 12 و 20 مليار سنة. وفي جزء من السكستليون (1.000.000 6 sextillion) من الثانية بعد البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيرًا من الحيز الذي يشغله بروتون واحد. وكانت الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال، فتصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواه في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئًا وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق. وكانت تلك اللحظة بداية المكان والزمان والمادة([41]). وتحققت في "ومضة ضوء وطاقة"، أو بتعبيرنا الإسلامي "كن فيكون".

وهذا العرض لتتابع البحث العلمي منذ اكتشف أينشتين نظرية النسبية في أوائل القرن. حتى تناولها عشرات العلماء. وكل واحد يكتشف جانبًا يسلمه إلى آخر ليقدم إضافته ويدفعه لثالث حتى ينتهي العالم إلى ما عبر عنه القرآن في كلمتين "كن فيكون" ولو وجدت في الألفاظ ما هو أكثر اختزالاً من هذا لعبر بها القرآن. ولكن الناس ما كانوا ليؤمنوا به ولا يستوعبوا بعد "كن فيكون".

وقد توصل العلم الحديث إلى أدلة أخرى عديدة بيد أنها أكثر فنية. أثبت بها أن الانفجار العظيم وما تلاه وتكوين الكون إنما أريد به وجود الإنسان... وأن يكون صالحًا للإنسان وهي اكتشافات تعيد للإنسان مرة أخرى مكانته المجيدة بين المخلوقات التي قررتها له الأديان السماوية. ثم جاءت علوم القرن التاسع عشر ونظريات نيوتن وداروين لتبددها... فجاءت أبحاث القرن العشرين لتعيدها وتقيمها على أسس علمية.

إن مسيرة العلم الحديث ليعرض لنا قصة أكثر روعة وأبعد في إثارة الدهشة والعجب من كل ما توصل إليه الخيال القديم في ألف ليلة وليلة وما تضمنته الأساطير القديمة أو ما تحفل به بعض موسوعات التفسير والحديث من الإسرائيليات ومزاعم الوضاعين.

ويستطرد مؤلفا "العلم في منظوره الجديد".

فهل من مكان لإله في كون مثل هذا؛ إن الفيزيائي إدموند ويتاكر Edmund Whittaker يعتقد كذلك فهو يقول ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم وينتهي الفيزيائي إدوار مين Edward Miene بعد تفكيره في الكون المتمدد إلى هذه النتيجة: أما العلة الأولى للكون في سياق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله.

ولما كان لا يمكن تصور عدم وجود أي شيء على الإطلاق من قبل الانفجار العظيم كما أنه لا يمكن أن يكون ماديًا، لأن للمادة بداية، ولما كانت الحقيقة غير

---

[41] (?) العلم في منظوره الجديد – تأليف روبرت.م. أغروس. جورج. ن. ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي – عالم المعرفة – الصفحات 60 – 64.

المادية الوحيدة هي العقل (وتلك نقطة سنعود إليها[42]) فالفرض الوحيد أمامنا أن المادة هي من خلق عقل أزلي، أي باختصار الله.

دليل الجمال:

هناك دليل لم ينل ما يستحق من أهمية. وقد لا نجد إشارة إليه في كل الكتب الإسلامية التي وضعت للبرهنة على وجود الله كما قد يكون الأمر كذلك في معظم الكتب الأوربية التي صدرت لهذا الغرض. هذا العامل هو الجمال الذي يتبدى للعين في الكائنات جميعًا. في الزهور وألوانها الساحرة والفراشات وأجنحتها المزركشة وفي ندف الثلج التي تأخذ أشكالاً يستلهمها مصممو المنسوجات وصانعو الحلي والمجوهرات... دع عنك جمال الإنسان... ذكرًا وأنثى... وخلقه في "أبدع تكوين".

إننا نؤمن أن ما نلحظه من مشاهد الجمال في الطبيعة والحيوان والنبات والإنسان – دلالة لا تخطئ على وجود خلاق هو أصل هذا الجمال ومصدره... قدر ما هو دعوة للاعتبار والعظة والاستلهام ومنة من الله تعالى على الإنسان للاستمتاع به وتذوقه.

والجمال بهذه الصفة أي باعتباره شعاعًا من الأصل الإلهي الجميل له صلة بعالم الحقيقة والقيم وهو يتجلى في النظريات العلمية – والمنشآت المعمارية وتقتضي أصول الجمال إبعاد كل ما يعد فضولاً، أو ما يسيء إلى التناسق أو البساطة أو الحقيقة.

وليس هناك من مبرر مادي أو نفعي لوجود الجمال فمن الناحية النفعية يمكن لأداة بشعة المنظر أن تكون أفضل – عمليًا – من أداة جميلة المنظر، ومع هذا فقد يفضل الإنسان الأداة الجميلة لأنها تشبع حاسة الجمال وتتجاوب مع نزعة تذوقه بالمخالفة لمنطق المنفعة. كما لا يمكن أن نفسر وجود مشاهد الجمال بالمصادفة لأن مشاهد الجمال تتبدى في كل مظاهر الطبيعة وتصدر عن قوانينها وطريقة عملها. فالجمال لا يمكن أن يفسر بالضرورة أو المصادفة لأنه قيمة من القيم ووجود صور عديدة مجسمة للجمال لا ينفي أن يكون له في بعض الحالات جانبه المبدئي الذي يجعله قيمة كالعدل والخير والصدق إلخ...

وقد عجز داروين عن أن يعلل الجمال في الصوت الإنساني، وما حبي به الإنسان من موهبة موسيقية وقال: ".. وحيث أن الاستمتاع بالأنغام والقدرة على إطلاقها ليسا من الملكات التي تعود على الإنسان بأدنى منفعة في عاداته اليومية الحياتية، فلا بد أن نضيفها في عدد أكثر الملكات التي حبي بها غموضًا([43]).

قد يقول البعض إن الجمال يرتبط بالغريزة الجنسية في الإنسان، والحيوان، بل والنبات أيضًا. وهو يستثير الحواس لتنشيط أداء هذه الوظيفة، ولكن هذا القول ليس حجة علينا، بل هو حجة لنا، لأن الجمال يضفي هالة من العاطفة على الغريزة ويزجيها في غلاف رقيق منمق جميل بحيث تؤدي أداء تسمو به من مجرد الميكانيكية الغريزية إلى العاطفة الإنسانية.

على أننا نجد الجمال في غروب الشمس، وفي تماوج الموج، وفي الوردة ذات الأوراق الناعمة الملتفة بألوان ساحرة، وشذى عاطر، وكأنها ترتدي ثوبًا من القطيفة لا يخفى، بل يعلن نضارتها، كما لو أنها درة ثمينة أو جوهرة مكنونة، وليست وردة على عرض الطريق أو سفوح الجبال مبذولة للجميع، ويوجد منها الملايين.

وهذه كلها بعيدة كل البعد عن معاني الجنس والغريزة... وهي متاحة في كل وقت، وفي كل مكان ما لم تشوهه يد الإنسان.

والحق أن الجمال من أكبر نعم الله على الإنسان. وهو يثبت – بالإضافة إلى وجود الله تعالى كرمه وقدرته على خلق كل هذه الصور من الجمال الفائق الرائع في الطبيعة والنبات والإنسان نفسه فمن ذا تكون له القدرة على هذا الخلق والإبداع؟ من

---

42 **(?) انظر الفصل السابع فقرة "خلود الروح من منظور طبي".**

43 **(?) استشهد بها في كتاب – العلم في منظوره الجديد – مرجع سابق – ص 72.**

ذا يكون له الكرم والاستغناء والتفضل بحيث يقدم كل هذه المشاهد مجانًا ودون مقابل، ودون ثمن تذكرة لمشاهدتها غير الله تعالى. وهو أيضًا ينم على أن الله تعالى أراد للإنسان وجودًا حضاريًا يتحقق له فيه هذا العنصر الثمين وسخر له مشاهده في الكون وفي الأرض. ولولا تلك اللمسة من الجمال التي غرسها الله تعالى في الإنسان ويسرها له في الأرض لعاش الإنسان كالحيوان، ولما كان هناك حاجة إلى اللبس الأنيق أو السكن الجميل أو عالم الفنون والآداب الفسيح بما فيه من موسيقى، وشعر ورسم... إلخ.

ولما كان هناك العاطفة جنبًا إلى جنب الغريزة.

إن الاستغراق في تأمل وردة، أو فراشة هو نوع من العبادة لأنها آيات بينات على قدرة الله. لا يجوز أن نمر عليها معرضين لاهين. وهنا يتلاقى الفن والجمال والعبادة.

وإنه لمن الغريب حقًا ألا نجد في كتب العقائد التي تعنى بإثبات وجود الله تعالى وصفاته هذا الدليل رغم أنه يشمل معظم مظاهر الحياة – بالنسبة للإنسان وبالنسبة للحيوان والنبات أيضًا، وأن القرآن الكريم قد عني به وأبرزه في أكثر من موضع. وأن بعض الصوفية قد استشفوا شيئًا منه. ولكن الذين جعلوه مدخلهم للعقيدة هم ولا حرج الفنانون الذين التقطت حواسهم المرهفة ومشاعرهم الرقيقة مشاهد الجمال، فآمنوا بالله... وهم في هذا كالعلماء الذين آمنوا بالله باعتباره "العقل الكوني"، أو علماء الاجتماع والنظم والفلاسفة الذين رأوا فيه المثل الأعلى والأصل الموضوعي الأعظم والمطلق للحق، والعدل والحكمة وللسنن التي يسير عليها المجتمع.

والفرق بين خلق الله الذي يتسم بالجمال، وخلق الإنسان كبير، وأذكر أني رأيت على شاشة التليفزيون آخر نمط للروبوت صنعه اليابانيون بفضل أحدث تكنولوجيا. وكان الروبوت يتقدم ويتأخر، وينحني وهو يقدم وردة لسيدة، وتلي هذا مباشرة عرض لإحدى بطلات "الترابيز"، وهي تنتقل من عقلة إلى عقلة أخرى، وتنحني وتدور وتلف. وتتجاوب تلقائيًا، وفي سرعة البرق مع متطلبات كل حركة فما أعظم الفرق بين لاعبة الترابيز الرشيقة المتزنة وأعضائها المتناسقة الجميلة. وإشراقة الحياة، ونضارة الصحة، باختصار جمال الخلق الإلهي من لحم ودم وتكوين عضوي وحياة. لقد بدا الروبوت الياباني وكأنه قطعة عتيقة بالية صنعها إنسان بدائي ليس فيها جمال، وما أبشع حديده وأعضاءه وأبعده عن التكوين العضوي النضر، المتناسق وما أبطأ حركاته وأثقلها إذ قيس بحركاتها الحرة الطليقة.

فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يخلق امرأة جميلة نضرة كفتاة الترابيز فإنه يعجز أيضًا عن أن يخلق نمرًا له فتوة وانطلاقة ومرونة وسرعة النمر في الغابة. فالخلق الإلهي يتميز في الكائنات بجمال يعجز الإنسان عن أن يساميه سواء كان هذا الجمال في المرونة أو التناسب إلى غير ذلك من عناصر الجمال، وإن ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال تقليد فقير بالنسبة لما خلقه الله تعالى.

وقد افتتن اليونانيون القدامى بجمال الجسم الإنساني فغلبت "فينوس" إلهة الجمال، "هيرا" إلهة الحكمة... كما توله بعض الكتاب والفنانين الأوربيين والأمريكيين، بنساء فائقات الجمال، ولكن فارغات العقول. وقد أخطأوا جميعًا فإنما الجمال آية من آيات الله، مثله كالشمس والقمر، وبالإضافة فإن جمال الجسم الإنساني لا يفترض – ضرورة – توفر الحكمة. بل قد يكون – بتركيزه على الشكل – مناف لها – بطريقة ما، ومن ثم فلا يتصف هذا الجمال بالكمال الذي يجب أن يتوفر في الإله المعبود، وهذه الواقعة هي من أدلة تفرد الله تعالى بالكمال، وأن ما عداه إنما هي مشاهد من قدرته، وأدلة على حكمته.

دليل القرآن الكريم:

يظل دليل القرآن في النهاية أنصع الأدلة، وأكثرها بساطة ونفاذًا إلى النفوس، وفي الوقت نفسه أقواها وأكثرها منطقية. وهو يبرأ من كل شوائب النقص والقصور

فيما أوردناه من اجتهادات للمفكرين والفلاسفة ومن صور التعقيد والفنية التي يعسر على بعض الناس فهمها أو تتطلب ثقافة خاصة. إن دليل القرآن يفهمه أبسط الناس ممن لا يلم بقراءة أو كتابة ويرتضيه أكثر الفلاسفة والعلماء تبحرًا وتعمقًا... وقد جاوز في تأكيده وقوته مرحلة الإثبات إلى مرحلة التحدي. وذلك لأنه يقوم على حقيقة أساسية لا يستطيع أحد أن ينكرها وهي "الخلق". فهل يعقل أن تكون هذه السماوات، هذا السقف السماوي الجميل الباهر من غير عمد، وهذه الشموس والنجوم التي تجري لمستقر لها] لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [وهل يعقل أن تكون الحيوانات والحشرات من النملة إلى الفيل والطيور صافات أجنحتها.. وهل يعقل أن يكون هذا الإنسان ذكرًا أو أنثى في أبدع تكوين.. هل يعقل أن يكون هذا كله.. قد خلق دون خالق، أو أوجد نفسه بنفسه. ومتى حدث ذلك وكيف حدث.. فإذا كان هناك من ينكر أن الله هو الخلاق العظيم فليرنا قدرته، وليخلق ذبابة وهي أهون الحشرات] لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ[ ] وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ[.

ومن أسرار قسم القرآن وضربه المثل بالبعوض والذباب والعنكبوت والنمل والنحل، أن هذه تمثل أصغر المخلوقات ومع هذا فإن تكوينها معجز بالنسبة لحجمها، فمن المستحيل أن يخلق الإنسان طائرة في حجم البعوضة تطير مثلها بتلقائية ونعومة، وقل مثل ذلك على النحل أو النمل ونظامها العجيب...

ولا يكتفي القرآن بمنطقية دليل "الخلق" الذي يكاد يكون مغروسًا في الفطرة، بل إنه يسوقه في أسلوب أخاذ لا يمكن أن يدفع من النظم فهو حينًا يرق حتى يصبح حريرًا موشى.

] أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ* وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ* وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ [.

وفي أحيان أخرى يكون قاطعًا كالسيف البتار أو البرق الخاطف] إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد[ ]قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم[ ]إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا[ ]قتل الإنسان ما أكفره* من أي شيء خلقه* من نطفة خلقه فقدره[*.

ولن نسهب في الحديث عن هذا الدليل، لأننا أشرنا إليه آنفًا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وحسبنا القول إن دليل القرآن هو أكثر الأدلة صدقًا ووضوحًا وحسمًا في إثبات وجود الله تعالى وتنزيهه.

الشكاكون واللاأدريون:

لقد كان يفترض والأمر هكذا ألا يوجد من ينكر وجود الله بين ذوي الحجى – ولكن القضية أكثر تعقيدًا. ومن السنن التي وضعها الله تعالى لهذا الكون وجود النقائض والأضداد. وأن المجتمع لا يأخذ وضعه ولا تسير أموره دون وجود "وجهة النظر الأخرى" ولو شاء الله تعالى لجعل مجتمعنا مجتمعًا ملائكيًا لا عمل له إلا التسبيح والتهليل. ولكن الله تعالى جعل مجتمعنا إنسانيًا وألهم النفوس فجورها وتقواها وسمح بوجود قوى الشر والضعف بل إن القرآن الكريم يقرر أن الهداية هي حظ الأقلية. أما الأكثرية فإما لاهية.. أو مفتونة بآراء الحياة الدنيا من سلطة أو جاه أو فتنة أو شهوات إلخ...

فليس من الغريب والأمر هكذا أن يوجد الذين يشترون الذي هو أدنى بالذي هو خير، والذين يتفادون كلمة "الله" ليلوذوا بتعبيرات غامضة – متهافتة ليس لها مدلول حقيقي وإنما تحيل على شيء آخر مثل "الطبيعة" لدى علماء الفيزياء أو "التطور" لدى علماء الأحياء أو "اليد الخفية" لدى علماء الاقتصاد السياسي.

وقد يصور إتجاههم كلمة جوليان هكسلي "إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة" وهؤلاء وجدوا في القديم كما وجدوا في الحديث وقد صورهم القرآن فأحسن تصويرهم] وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[45 الزمر، فإذا لم تكن الشقوة الغالبة هي التي جعلت هؤلاء يلوذون بذلك. فقد يعود سلوك بعضهم هذا المسلك إلى أنهم أرادوا ألا يقعوا تحت وصاية كنيسة أو أن يوضعوا في معسكرات مذهب... أو أن يتحكم فيهم السدنة ويفرضوا عليهم خرافاتهم المقررة (وهذا ما اعترف به بعضهم).

ومن المحتمل أن بعضهم أراد التحرر مما يوجبه عليهم الاعتراف بالله من سلوك اجتماعي ومستوى في الحياة لا يقدرون عليه أو لا يريدونه، لأن جانب الاستمتاع بالحياة الطليقة أفضل لديهم.

وهناك بعد من آثر أن يقف على باب الشك أو يعترف بالجهل.. فإن معظم الذين لم يعترفوا بوجود الله – لم يقطعوا بعدم وجوده فشكهم في الوجود لا يرقى إلى مستوى اليقين في عدم الوجود. وهو موقف يذكر لهم ويفهم عند دراسة حالة كل واحد. والتعرف على الملابسات التي أحاطت به والظروف التي دفعته لهذا الموقف. وقد لا يهمنا كثيرًا رأي فولتير الهازل الذي كان "يفترض" وجود الله ليحمي له أمواله وليضمن له ولاء خادمه وإخلاص زوجته ! ولا نرى فيه الحسنة الوحيدة التي ينسبونها إليه وهي "حرية الفكر" لأنه أثبت جهله بكتابه "محمد" الذي افترى فيه الأكاذيب على الرسول ثم زاد فأهداه متملقًا إلى البابا فأضاف النفاق إلى الجهالة، كما لا يهمنا كلام ماركس عن الدين كأفيون للشعوب لأنه ينظر إلى القضية من زاوية محدودة هي علاقات الإنتاج وهي زاوية لا علاقة لها بالفلك ولا الفيزياء، ولا القيم ولا الجمال وليست إلا ناحية واحدة من النشاط المتعدد للكائن الإنساني، وهذا أيضًا ما ينطبق على كلمات "فرويد" "إن أديان البشر يجب أن تصنف باعتبارها وهمًا من أوهام الجماهير وأن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة" وأن البشر لا بد لهم من أن يعترفوا لأنفسهم بكامل عجزهم وتفاهة دورهم في آلية الكون – فهم لا يستطيعون بعد اليوم أن يكونوا محور الخليقة أو موضع عناية إلهية خيرة.

ونبوءته عن أن هذه الطفولية infantilism مقدور لها أن تتجاوز بالتأكيد، ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للاعتراف بأنه وحيد في هذا الكون الفسيح واللاشخصي، ففرويد طبيب وعندما يترك مجال الطب بل حتى نظريته الخاصة، يتوه، ومن الظلم أن تطبق مدرسة التحليل النفسي على آليات الكون أو الإليكترون وكلمة اللاشخصي توحي بأنه يتصور – أو أن الناس يتصورون – إلهًا شخصيًا وهذا أمر مستبعد بالطبع، حتى سارتر الذي يقول "لأني أعتقد وأؤمن بالحرية فإني لا أستطيع أن أكون مؤمنًا معتقدًا بالله لأنه لو قبلت الله فلا محالة من قبول القضاء والقدر ولو قبلت القضاء والقدر لم يمكن أن أختار حرية الفرد ولأني أريد اختيار الحرية وأؤمن بها فلست مؤمنًا بالله" لا ينكر أنه ولد "قضاء وقدرًا" لم يستشر قبل أن يولد لا في جنسه ولا في وطنه ولا في نفسه وأنه سيموت ما في ذلك شك حتى لو آثر أن يموت بيده منتحرًا (فقد مات قضاء وقدرًا) وهذه الحقائق هي ما يمكن أن يتعلق بها القضاء والقدر... ولا يجديه شيئًا أن ينكرها وله بعد هذا أن يعيش حرًا دون أن يعلق رغبته في الحرية بقضية وجود الله أو حكمته، كما لن يكون الإيمان بالله قيدًا على حريته لأن إله الفيلسوف لا بد وأن يكون أكثر فلسفة من الفيلسوف وأكثر حكمة منه وتقديرًا له، ويحق له إن لم ينصفه العدل أن يأمل الغفران.

نقول إن هؤلاء لا يهمونا كثيرًا وإنما نهتم برأي مفكر نحترمه مثل برتراند رسل يعد في الذروة من الفكر والمواقف الإنسانية والحضارية منذ الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية. وهو وريث صادق للحضارة الأوربية. تأثر بكل ما فيها من عناصر الوثنية الإنسانية التي بدأت مع حقبتها اليونانية الرومانية. وحافظت عليها في الحقبة الرأسمالية الاشتراكية وأنه كذلك ورث ذكرى الكنيسة ومحاكم التفتيش

والتحكم في الرأي وكلها كانت تبعده عن الدين قدر ما تقربه من عالم الإنسان والدنيوية.

إن رسل عندما جوبه بالمشكلة التي جابهت كل الفلاسفة من قبله. وهي مشكلة "العلة الأولى" التي ترتبط عادة بحقيقة وجود الكون.. قال إن مشكلة وجود ماض غير متناه مشكلة مرعبة إنه يستعصي على الفهم أن نتصور أنفسنا ورثة لزمان تمهيدي غير محدود كما أن مسألة وجود لحظة لم تسبقها لحظة أخرى بدورها ليست بأقل استعصاءً على الفهم، وفي النهاية يصل..

"إما ألا يصدق القانون الثاني للترموديناميك في كل زمان ومكان أو أننا نكون قد أخطأنا في تصورنا لمحدودية عالم الوجود من الزاوية المكانية ولكن مادامت هذه الاستدلالات رائجة. فإني أرجح أن نقبل – بشكل مؤقت أن العالم من خلال زمانه المتناهي – ابتدأ ولكن من نقطة مجهولة لدينا ترى هل نستطيع من هنا أن نستنبط أن العالم خلقه خالق...

إننا إذا لجأنا إلى القوانين القائمة على أسلوب الاستنباط العلمي الموجه فإن الجواب سيكون بالنفي طبعًا. فليس هناك من دليل على أن العالم لم يوجد دفعة واحد غير مسألة الاستغراب من مثل هذا الأمر.. ولكنه ليس هناك في الطبيعة أي قانون يدل على أن ما يبدو بتصويرنا أمرًا غريبًا يجب ألا يقع.

إن استنباطًا عن الخالق يساوي استنباط علة ما والاستنباطات العلية إنما يسمح بها في المجال العلمي إذا بدأت من القوانين العلية (الخلق من العدم شيء يمتنع بالتجربة)، ومن هنا فإن تصور أن يكون هناك خالق للعالم ليس بأية حال أكثر منطقية من فرض أن العالم وجد من غير علة ذلك أن كلا الفرضين ينقضان قوانين العلية التي تقدر على مشاهدتها بقوة معينة".

ورسل يعني بالجملة الأخيرة أنه إذا كان وجود الله يقوم على أن التسلسل العلمي لا يمكن أن يمضي بلا نهاية ولا بد أن توجد العلة الأولى التي هي علة العلل فإن وجهة النظر الثانية التي ترى أنه لا بد لكل علة من علة تنفي الافتراض الأول فكل افتراض من هذين ينفي الآخر.

وأرجحية الافتراض الأول وهو أن التسلسل العلمي لا يمكن أن يمضي بلا نهاية أقوى بكثير من الالتزام الصارم بضرورات المنطق الصوري. وإذا وسع رسل - كعالم يؤثر اللاأدرية – ترجيح افتراض على افتراض. ما لم يكن ذلك بدليل قاطع. فإن موقف اللاأدرية لا تستقيم عليه الأمور ويصبح من الضروري لرسل أن يحزم أمره... ولكن رسل نفض يديه من الأمر وتحول إلى عالم الرياضيات حيث وجد سلامًا شبهه بسلام الإيمان الديني.

إن دراسة شخصية رسل وتطوره الفكري قد توضح لنا شيئًا ما مسلكه هذا. فهذا المفكر الذي ينحدر من إحدى الأسر البريطانية العريقة التي شغل بعض أفرادها رئاسة الوزارة في القرن التاسع عشر بدأ حياته متمسكًا أو حتى متعصبًا.. بالمسيحية حتى هبت عليه رياح الشك مع المراهقة وما بعدها. فاقتلعت هذه الإيمان – وأصبح رسل شخصية مشاركة في كل حركات التحرر الفكرية أو الجماهيرية أو السياسية في الوقت الذي تحول فيه إلى الفلسفة ومن الفلسفة إلى الرياضة وقد لاحظنا أن معظم ما يستشهد به من أقوال لا تثبت على وجه القطع – وجود الله - هي من كتاباته الأولى. فترة مشاركته في المعارك الفكرية والتحريرية. التي كان بعضها ضد الكنيسة ولكن لم يتابع تطوره الفكري في سنواته الأخيرة. وليس من البعيد أن يكون قد حدد موقفه أخيرًا مع الله... وليس مع الضياع واللاأدرية ولا مراء في أن تصلبه العلمي حمله – ربما أكثر من اللازم على التصدي والوقوف مناقضًا، فإذا كان وليم جيمس يناصر " إرادة الاعتقاد" فإن رسل يناصر "إرادة عدم الاعتقاد" والأمر في حقيقته غير ذلك وأكبر من ذلك. وقد تناول وليم جيمس بالنقد موقف الحياد. واللاأدرية التي يرى بعض العقلانيين الالتزام بها وهي على كل حال أخف من موقف "إرادة عدم الاعتقاد" "لأن هذه الأخيرة مرفوضة عقلاً وعملاً ولا أعتقد أن رسل نفسه يقرها، فهي حتى

بالنسبة لمفكر جاد ترف أو سقطة. وقد آمن رسل بأهداف نبيلة عديدة تجعله مؤمنًا من حيث لا يحتسب ولا بد من اعتقاد في الله أفضل من الاعتقاد في الشيطان، وأفضل من اللااعتقاد.

خاتمة الفصل:

كانت فكرة الله تعالى متغلغلة في الفطرة البشرية والبداهة تجاه خلق الكون بحيث لم يمكن تجاهلها. فآمنت أغلبية العلماء والفلاسفة بوجود الله وشذت أقلية فوقف بعضها عند الشك واللاأدرية.. بينما لاذ البعض الآخر بتعبيرات بديلة عن تعبير الله مثل الطبيعة أو التطور... إلخ. حتى ينجو من الملابسات والتداعيات والأوضاع التي أحاطت بفكرة الله. وربطتها بالأديان والمؤسسات الدينية ومع هذا فإن منطلق الفلاسفة والعلماء نحو الله تعالى جعلهم يسلمون – بطريقة ما – بوجوده فالمناطقة سلموا بوجود إله ليس له من عمل إلا أنه العلة الغائية للكون. لأنه كان يتعين عليهم أن يخلصوا من التسلسل إلى ما لا نهاية، بينما آمن علماء الطبيعة والكون بإله كوني أبدع الأفلاك وأحكم تحريكها وتنظيمها بحيث يكون هو المهندس الكوني الأعظم، وابتدع بعض المفكرين نظرية الساعة فقالوا إن الله تعالى خلق هذا الكون كما يخلق ساعاتي قدير ساعة محكمة ثم يدعها وتنقطع صلته بها وتدور الساعة بفضل قوتها الذاتية وتصميمها. وظنوا أن هذا التشبيه يخلصهم من مشكلة لم يجدوا لها حلاً هي العلاقة الدائمة والوثيقة بين الله تعالى وخلقه ولم يرد في خاطرهم وقتئذ أن من الممكن لإنسان – دع عنك الله – أن يحرك آلة يصنعها بطريقة "الريموت كونترول" وادعى بعض هؤلاء في تبرير مذهبهم هذا أي اقتصار دور الله تعالى على الخلق وعدم متابعة هذا الخلق يومًا بعد يوم أو حتى دقيقة بعد دقيقة بأن الله تعالى أعظم من أن يشغل نفسه بتصرفات آحاد الناس – الذين لا قيمة لهم أمام عالم الكون العظيم الذي خلقه الله. وصور ذلك من المفكرين المصريين طه حسين في الكلمات التي كتبها سنة 1923 وهو يعبر البحر الأبيض المتوسط نابذًا وراء ظهره الأزهر ومستقبلاً بوجهه فرنسا...

"... أعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئًا قد ينكره علي المؤمنون والملحدون جميعًا. أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقدير نفسه وإكبار منزلتها. فإن هذا المؤمن الذي يعتقد أن خالق الكون ومدبره، خالق هذا الكون العظيم الذي لا تشعر بعظمته وأنت مستقر في دارك أو بالتحدث إلى رفاقك. أو القراءة في كتابك – وإنما تشعر بعظمته مع هدير البحر وعصف الريح وشكوى السفينة، وحين تشعر شعورًا بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية، وبأن أقل شيء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التي تقلك وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة، فتصبح نسيًا منسيًا، كأنك لم تكن قط، وكأنك لم تعرف أحدًا، أو يعرفك أحد... أقول إن المؤمن الذي يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة، ويرعاه في كل لحظة، بل في كل جزء من أجزاء اللحظة متكبر يرى نفسه شيئًا مذكورًا. يستحق هذه العناية المقدسة العظمى، مع أن في الكون ما لا يقاس الإنسان إليه عظمة وجلالاً.

وهذا الملحد الذي يستشعر الإلحاد، ويتخذه مذهبًا وعقيدة فيعاند ويدافع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه، وينكر الله كما يثبته المؤمن، ويعتقد أن العقل كل شيء، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار، وأن نجاة الإنسان في عبادة العلم والإذعان له. لا في إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه.. هذا الملحد يمعن في الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما".

ويعقب الأب كمال قلته الذي أورد هذا النص ضمن مقال عن "الله" في فكر طه حسين: بمجلة الإذاعة والتليفزيون.. "ولست بحاجة إلى القول بأن هذه النظرة لا تعظم الله، والله فوق كل تعظيم، وإنما تحتقر الإنسان وتحمل بعضًا من إنكار لأعظم الحقائق الإيمانية، التي تقرها كل الأديان وهي "العناية الإلهية" بل لعل أروع ما في الروحي هذا الإحساس بعناية الله بكل إنسان مهما صغر، وبكل أمر مهما ضؤل، وأعظم الفروق بين العلم والدين أن العلم يخضع كل شيء لقانون "العلة" و

"المعلول" – أما الدين فيربط هذا القانون بالله، علة العلل، وراعي المحاولات والنتائج – وهذا الارتباط بين عناية الله وأمور الإنسان والأشياء يعطي للحياة معناها الأصيل، كما يعطي للألم والموت المعنى الحقيقي والجوهري، بل إن دليلاً رائعًا على وجود الله وعظمته يتضح من اهتمامه سبحانه وتعالى بخلائقه وكائناته، فالله خالق يرعى خليقته، ومهندس يدبر أكوانه، والله أمير في خلقه وإرادته".

وكما لاحظ كاتب المقال فإن هذا الموقف من طه حسين أدى به لأن يرى في دراسة "الميتافيزيقيا" شيئًا عقيمًا، وأن الفيلسوف إنما هو رجل درس "العلوم الطبيعية والإلهية والخلقية درسًا علميًا مقنعًا وبسط سلطانها على حياته العملية وسيرته الخاصة فلم يكن تناقض بين هذه العلوم وبين أعماله" وفيما نرى فإن هذا الموقف من "طه حسين" يعود بالإضافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الذي كان لا يرى فائدة من البحث عن الله.

إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضية الكبرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود الله تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعها أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بذات الله تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراته وكما ذكرنا من قبل فإن هذا الموقف من "طه حسين" يعود بالإضافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الذي كان لا يرى فائدة من البحث عن الله.

إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضية الكبرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود الله تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعها أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بذات الله تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراته وكما ذكرنا من قبل فإن هذه النقطة بالذات هي التي تبرر وجود الأديان لأنه في الوقت الذي سكت العقل نطقت الأديان وجاء الأنبياء والمرسلون بما عجز عنه العلماء والمفكرون.

وقد حل الإسلام هذه القضية حلاً باتًّا عندما قال إن الله تعالى "ليس كمثله شيء" وعندما استبعد الحديث عن ذات الله وقطع بأن العقل البشري يعجز عن كنهه وفي الوقت نفسه قدم الخطوط العريضة التي يمكن للعقل البشري أن يستوعبها من "أسماء الله الحسنى" التي وصف الله تعالى بها نفسه في القرآن الكريم وقد قال أحد الكتاب "لقد اختصر المسلمون الطريق إذ قالوا إن الله "ليس كمثله شيء"[44] والأمر ليس اختصارًا للطريق قدر ما هو وضع الأمور مواضعها و "قطع الطريق" أمام تساؤلات ليس وراءها طائف ولم يكن هذا كما ذكر الكاتب لأن أصحاب الأديان أرادوا أن يحتفظوا بوحدة الاعتقاد أن يزلزله الشك وأن الذين ذهبوا إلى ذلك غفلوا عن أن الطبع البشري لا ينطوي على صفة الاعتقاد فحسب بل ينطوي أيضًا على صفة الشك وأن جوع الإنسان للشك أشد من جوعه للاعتقاد "نقول إن الغرض من تقديم صيغة] ليس كمثله شيء[لم يكن المحافظة على وحدة العقيدة فحسب، ولكن أيضًا الحيلولة دون الضلال كما أن شك الإنسان يقف من تلقاء نفسه أمام تلك القضية التي لا يستطيع العقل استيعابها وأن من الخير أن يقف عندها وواقع الحال يثبت ذلك والفلاسفة لم يأتوا بما يقدم جديدًا على ما قدمه القرآن. وعندما لم يلزم المسلمون أنفسهم بتوجيهات القرآن في الوقوف موقفًا إيمانيًا مما جاء فيه عن ذات الله فإنهم فتحوا على أنفسهم بابًا للخلاف والشقاق حول "آيات الصفات" و "خلق القرآن" وغيرهما من المعارك الفكرية العقيمة التي لا تنتهي إلى طائل.

وما أورده الإسلام عن صفات الله تعالى في القرآن، أو الصحيح الثابت من السنة يماثل إلى حد كبير التصورات التي انتهى إليها كبار الفلاسفة والمفكرين الأوربيين مع فارق، هو أن الإسلام قدم إضافة ما كانوا يستطيعونها – في بعض الجوانب – كإرسال الرسل. والحياة الآخرة، والثواب والعقاب...

---

[44] **(?) الأستاذ إسماعيل مظهر، "بحث الله" مجلة المقتطف – مرجع سبق الإشارة إليه.**

باستثناء هذه الإضافة فإننا نجد أن تعريف المفكرين والفلاسفة لله يتجاوب مع تعريف الإسلام، وقد أوردنا تعريف ديكارت عن الله تعالى "... أقصد بلفظ الله جوهرًا لا متناهيًا أزليًا منزهًا عن التغيير قائمًا بذاته، محيطًا بكل شيء قادرًا على كل شيء. خالدًا ثابتًا – قد خلقني أنا وجميع الأشياء". ويدخل فيه رفض ديكارت لوحدة الوجود "لأن الله هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها، ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال".

ويقول أندرو كونواي إيفي، وهو عالم فسيولوجي شهير "لقد درست صفات الله دراسة مطولة على أساس التحليل المنطقي الذي قام به الفلاسفة، وأمكن باستخدام المنطق الوصول إلى أن لله صفات معينة، وفيما يلي مجموعة غير كاملة منها: "الله أبدي، خالد، لطيف، ليس ماديًا، ليس حادثًا، قدوس، طيب، يعلم الشر ولكنه ليس شريرًا ولا يريد الشر، لا يكره الأشياء، حق، عليم، محب، مريد، منزه عن الشهوات والنزوات أصل الفضائل جميعًا"([45]).

والملحوظ أن هذه التعريفات "التي صدرت عن علماء أوربيين ومسيحيين أقرب إلى التعريف الإسلامي منها إلى التعريف المسيحي الذي يتحدث عن لاهوت معقد، ذي صلة غامضة ما بين الأب والابن والروح القدس بل إن بعض الكتاب رأوا أن من أسباب نفض اليدين من فكرة الله أن "جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة الإنسان بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض، وأنه عندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبول، وأخيرًا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية...

ويقول جورج هربرت بلونت وهو أستاذ فيزياء "وتدل الشواهد على أن هناك نوعًا من الإجماع بين الفلاسفة والمفكرين على أن لهذا الكون إلهًا، ولكنه لا يوجد اتفاق على أن هذا الله هو ذاته إله الكتب المقدسة"([46]).

وحدد ج. إ. م جود اعتقاده:

"إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصورة على تأكيد وجود الإله وأنه يعني ويهتم بعالمنا، وأنه مبدأ الخير وأصل النظام الأدبي في الكون، وأنه بالتالي أصل التجربة الأدبية، أي معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشر ومقتنا للشر وكفاحنا ضده، كما تقبل أيضًا دعوى أننا إذا صلينا له، فيمكن أن نوجد صلة به، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر. كما يبدو معقولاً كذلك بحكم الأدلة، أن نفترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفرادًا موهوبين ليقدموا تعبيرًا واعيًا لأغراضه وليكشفوا قانونه الذي هو القانون الأخلاقي. وهؤلاء الأفراد الموهوبون بصفة خاصة هم المعلمون الدينيون والصوفيون والأنبياء.

إن دعوى المسيحية غير مقبولة ما ظلت تؤكد أن المسيح ابن الله، أو أنه بأي طريقة أخرى أو لأي سبب آخر إلهي، وأن الله قد خلق الإنسان ليحبه، ولكن الإنسان خلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلاً لهذا الحب، وعوقب بالسقوط، وأن الإنسان وحده بين المخلوقات من يملك نفسًا أو شخصية"([47]).

---

45 **(?) الله يتجلى في عصر العلم – مرجع سابق – ص 156.**

46 **(?) وولتر أوسكار لندبرج – عالم فسيولوجي – "الله يتجلى في عصر العلم" مرجع سابق ص 34.**

47 **(?) انظر كتابنا "روح الإسلام" ص 104.**

الفصل الثامن
القضية الثانية: الموت وخلود الروح

الموت: هازم اللذات ومفرق الجماعات، ونهاية الدنيا والقضاء الحتم الذي لا ريب فيه، "كل نفس ذائقة الموت".

وليس هناك ما يشبه الموت، إذ ليس هناك سوى موت واحد، وأمامه يخشع الجميع، وقد خشع أمامه نبي الرحمة، كما خشع أمامه طاغية القسوة. فجلس الرسول أمام قبر أحد أصحابه صامتًا، وأصحابه حوله سكون كأن على رءوسهم الطير. وبكى وهو يودع ابنه إبراهيم وفاضت عيناه بالدموع وهو يقبل وجه عثمان بن مظعون بعد موته. وتهاوى لينين وهو الرجل الذي لا يؤمن بالقيم ويحتقر العاطفة والرحمة عند دفن "أنيسا أرمان" صديقته الأثيرة التي جاءت معه من سويسرا في "القطار المغلق" وأصبحت إحدى زعيمات الحركة وعضو اللجنة المركزية. قالت أنجليكا بالابانوف "لم أشاهد إنسانًا تملكه الحزن مثله. لم يكن وجهه فحسب هو الذي ينطق بالألم، بل كل جسمه لدرجة لم أستطع معها أن أحييه، ولو بإشارة. وكان يبدو كما لو أنه تقلص فغطت قبعته وجهه بينما اخضلّت عيناه بالدموع" وقالت "ألكسندرا كولونتاي " التي كانت حاضرة: "عندما أحضر جثمان "أنيسا" وسرنا إلى المقبرة، لم أتعرف على لينين، فقد كان يسير وعيناه مغلقتان، وظننا أنه سيخر واقعًا بعد كل خطوة" ورأت أن وفاة أنيسا عجلت بتفاقم مرض لينين الذي انتهى بوفاته([48]).

تلك هي سطوة الموت ورهبته، ومع هذا فقد يكون من المفارقة أن نقول إن الموت ليس قضية الموتى، ولكنه قضية الأحياء !! إن دقائق معدودة أو نصف ساعة هي التي تفصل ما بين الحياة والموت، ويغلب أن يمضيها من سيموت في غيبوبة، فيموت دون أن يشعر أو يحس. فالموت ليس قضيته وبالنسبة له فالأمر كما قال المتنبي:

إلف هــذا الهــواء أوقع في الأنفس ... أن الحِمَــامَ مر المــذاق
والأسى قبل فرقة الــروح عجز ... والأسى لا يكــون بعد الفــراق

لهذا فإن الموت هو قضية الأحياء، إما لأنه يأخذ منهم الأحباء والأعزاء، وإما لأنه يذكرهم بيومهم الآتي، الذي يكونون فيه الموتى لا المشيعين.

وليس هناك بعد ما هو أكثر بداهة من الموت، فلا بد أن يكون لكل شيء نهاية، وكل يوم تغرب فيه الشمس يموت يوم ليولد يوم جديد مع الشروق... ومن غير المتصور أن يعيش الإنسان أبدًا. إن الخلود والبقاء أبدًا يصبح عبثًا وعقابًا ويفقد الحياة طعمها كما أن من غير المعقول أن يتلاقى على الأرض أجداد الأجداد... وأحفاد الأحفاد. ولولا الموت لما أمكن تصور الحياة والمجتمع فإذا استحال الموت – لجوع أو حاجة أو مرض أو عجز – فما الذي يجعل الناس تعمل وماذا تكون عليه الأخلاق والعلاقات. لقد أدرك المتنبي هذا المعنى عندما قال:

سبقنا إلى الدنيا فلو عـاش أهلها ... منعنا بها من جيئة وذهـوب
تملكها الآتي، تملك ســالب ... وفارقها الماضـي، فـراق سـليب
ولا فضل فيها للشــجاعة والنـدى ... وصـبر الفـتى لـولا لقـاء شـعوب

[48])? (Lenin by David Shub pp 381 – 382 (Pelican Original).

ومن أجل هذا يقف الإسلام والعقلانية من الموت موقف التسليم به وتقبله بإيمان في حالة الإسلام وبحاسة من الفلسفة في العقلانية. وإن لم يمنع هذا من أن العاطفة تؤثر على هذا المسلك، ولو عند الصدمة الأولى.

ولكن الإسلام يقدم أكثر مما تقدمه العقلانية، لأنه يؤمن بخلود الروح. وأن الموت إنما يؤذن بلقاء الله تعالى، وهي فكرة يمكن أن تغير أو حتى تقلب – الموقف من الموت بحيث يجوز التساؤل لماذا عند الموت يلبسون الأسود حدادًا.. ويبكون وصرخون وترتفع الصيحات عندما يخرج الميت من بيته خروجه الأخير ملفوفًا في كفنه، ومحمولاً على الأيدي أو وهو يودع في قبره. والموت لدى المؤمن إنما هو برزخ بين حياة العناء والآلام.. والحياة الأخرى التي ينعم فيها المؤمنون برضا الله، لقد كان من المحتمل ألا يظل هذا مجرد تساؤل وأن يطبق "عبد الله البري" فكرة "عبد الله البحري[49]" لولا الضعف البشري، ولولا تلك الطقوس التي تعقب الموت والتي تضاعف من دراماتيكيته بدءًا من تكفينه حتى طريقة الدفن "الغرابية" التي لم تجد البشرية بديلاً عنها في الشرق والغرب.. فالموت كحقيقة لا مناص منها والإسلام يدعو للاستسلام له والرضا به. ولكن طريقة التصرف في الجسد العزيز الذي كان يبلور لنا المتوفى والذي كان محل إعزازنا وقبلاتنا.. وطالما ضممناه إلينا.. وكانت حركاته وسكناته هي ما تذكرنا به وتربطنا إليه.. هذه قضية أخرى، وهي التي تضاعف من مأساوية الفراق الأبدي بما تضمنه من تكفين ودفن.. إلخ. وأعتقد أن التقدم في مجال الطب أوجد للناس مندوحة وبديلاً، فإن الإنسان ليسعد عندما يتصور أن ضريرًا سيرى بقرنية عين الميت، أو أن مريضًا بالفشل الكلوي سيجد خلاصًا في إحدى كليتيه وما إلى ذلك. إن هذا لا ريب أفضل من ترك الجسد الجميل لترعاه الهوام، وهو ينقل العملية من أيدي "المغسل" و "الحانوتي" و "المقبرة" الكئيبة إلى أيدي الأطباء والممرضات وغرفة العمليات، ويا لها من نقلة. ولا يخالجنا أقل شك في أن هذا هو الأقرب إلى الإسلام الذي يؤثر النفع والفائدة للناس ولا يجعل من الموتى أوثانًا، ولا من قبورهم مشاهد يحج إليها ([50])، ومن الطبيعي ألا تتضمن مراجع الفقه المدونة شيئًا من هذا، إذ أنه ما كان متصورًا لولا التقدم الطبي الحديث، ولكن العقل وهو أول مصدر من مصادر الفقه والإيمان يوجبه ويأخذ به.

وعلى كل حال فإن الموقف الإسلامي من الموت وإن لم يصل إلى هذا (وما كان يمكن أن يصل إليه قبل تقدم وسائل الجراحة والطب في الفترة الأخيرة) فإن تقبله للموت واعتباره بداية للحياة الأخرى، التي يتركز حولها الاهتمام وتعد هي "الحياة" الحقيقية الخالدة، هوَّن من شأن الحياة الدنيا، وقلل من الحرص عليها وما يرتبط بذلك أو ما يتطلبه من مصانعة أو رضا بالهوان، أو التجاء للنفاق مما يعد ثمنًا لا مناص منه للبقاء في الوظائف أو بلوغ المناصب العليا، فالتشبث بالحياة والخوف من الموت يلجئان الإنسان هذا الملجأ، فإذا كان لا يخشى الموت وإنما يرحب به.. ويسعى إليه خلال جهاده. سواء كان قتالاً في معركة، أو كفاحًا في عقيدة، فإنه يحس بالحرية ولا يتردد في رفض كل صور الدنية أو الهوان التي تخالف عقيدته، ولا يتملكه الخوف من الإقدام على الأعمال العظيمة المحفوفة بالمخاطر، وهذا هو في الحقيقة المضمون الإيجابي للإيمان بالقضاء والقدر (الذي يعد الموت أعلى مستوياته) وبحق يتساءل المؤمن.

أي يومي من الموت أفــر   يوم لا يقدر أو يوم قــدر

يوم لا يقـــدر لا يرهبني   ومن المقدور لا يغني مفـر

---

49 **(?) الإشارة هنا إلى إحدى قصص ألف ليلة وليلة – وهي قصة "عبد الله البري"، و"عبد الله البحري" وقوم عبد الله البحري يعيشون في البحر ويقابلون الموت بسرور ويلبسون له الملابس البيضاء.**

50 **(?) لما كنا نعلم أن المجتمع الإسلامي إنما تحكمه التقاليد والعادات، وليس العقل أو حتى الإسلام، فإن تصور تطبيق ذلك بصورة شبه عامة أمر بعيد، فضلاً عن أن دون ذلك مصالح مكتسبة، ومهن تفيد من الموت. ولكننا على الأقل نعتزم أن نطبق ذلك على أنفسنا عند الموت، وبهذا نقدم خدمة أخيرة لإخواننا.. ونعفي الأهل والأصدقاء من الآلام والمشاق، ونعتبر هذا وصية بذلك.**

أو يؤكد لإخوته...

قل لإخـــوان رأوني ميتًا   فبكوني إذ رأونـــي حزنًا

لا تظنـــــوني بأني ميت   ليس ذا الميت والله أنـــا!

أنا عصفــور وهذا قفصي   طرت منه فتخلى رهنـــا

فاخلعوا الأنفس عن أجسادها   فترون الحــــق حقًا بينًا

لا ترعكم سكرة الموت فما   هي إلا بانتقال من هنــــا

إن هذا المعنى يجب أن يذكر للإسلام، إن القضاء على خشية الموت والخوف منه أعطى الفرد حرية العمل وحرر الإنسان من الاستعباد لربقة الحياة عندما ترتبط بالهوان، وجرأه على الإقدام ورفع الحياة فوق مستوى المطالب العضوية والمادية، وما يؤدي الحرص عليها من ضعة ومهانة بحيث يرفضها حتى لو كان فقيرًا "الله الغني" وبهذا برأ المؤمنين من الوهن. وهو بتعبير الحديث "حب الدنيا وكراهية الموت".

قارن هذا بالذين يؤمنون أنهم لا يعيشون إلا مرة واحدة. وأن الموت هو النهاية وليس وراء الموت من حياة أو حساب أو عقاب، وما يدفعهم هذا الإيمان إلى الحرص على البقاء على قيد الحياة لأطول مدة والاستمتاع بها إلى آخر مدى، وكيف أن هذا يمكن أن يشكل المجتمع بحيث تكون "الحياة البرجوازية" باستمتاعها هي المثل الأعلى، وهي الواقعة التي نراها في المجتمع الأوربي.

وحتى إذا لم يوجد الاستمتاع فإن هذه الفكرة تجعل مجرد البقاء على ظهر الأرض خير من الدفن في بطنها، ولو تطلب هذا المثل "إن كان لك عند الكلب حاجة، قل له يا سيدي !!!".

ومن ناحية أخرى، فإننا لو وضعنا فكرة الموت في أذهاننا، وأن من الممكن أن يأخذ منا الموت في لحظة الآباء والأمهات والزوجات والأبناء والبنات.. لجعلنا هذا نغير من تعاملنا معهم ولأصبحنا أكثر كرمًا وصفحًا وعطاء، ولتنازلنا عن كثير من الصغائر التي تدفعنا إلى تصرفات قد نندم عليها ونأسى لها..

ولو تذكرنا أن الموت يمكن أن يأخذنا، في غمضة عين، من حياتنا ومحوطاتنا وبيوتنا، وما نحرص عليه أو نعتز به من المقتنيات، فنترك كل هذا، ونخرج من الحياة عراة كما دخلناها عراة، لهان علينا أن نتصدق وأن نتصرف ولما تحكمت فينا الأثرة والحرص.

فالتفكير في الموت ليس كما يرى الدنيويون والبرجوازيون والأوربيون شيئًا من المثبطات.. والغيبيات ولكنه في الحقيقة أمر مطلوب. وهو يجعل الحياة أكثر حرية وكرمًا ويضعها في حجمها الطبيعي.

ولو فكرنا مليًا لوجدنا أن الموت قلما يمكن أن يكون سيئًا وقلما يحدث في وقت غير مناسب.. فلو كان المتوفى ثريًا مترفًا، فإن البقاء لن يزيده شيئًا بل سيجعله أكثر زهدًا فيما هو فيه. كما قد يجعله يتعرض للفاقة، فالموت أفضل له. وإذا كان المتوفى شابًا في ريعان الشباب أو غادة في منتهى الجمال فما أفضل الموت في مثل هذا الوقت قبل أن يبلغا أرذل العمر، وإذا كان الميت فقيرًا بائسًا لديه تلال من الهموم والآلام فإن الموت سيخلصه منها.

ويقدم لنا الشعر إضافة الفنان جنبًا إلى جنب إضافة الإيمان الإسلامي والاستسلام الفلسفي. وهي إضافة تسير مع خيال الفنان فتكشف أبعادًا لا يبلغها إلى هذا الخيال.

خذ مثلاً (شوقي):

ماذا وراء الموت من سلوى ومن   دعة ومن كرم ومن إغضـــاء

إن كانت الأولى منازل فرقــة   فالسمحة الأخرى ديار لقــاء

أو (مخاطبًا تولستوي):

رأينا بنور الموت كل حقيقة   وكان كلانا في الحياة ضرير

أو (المتنبي):

نحن بنو الموتى، فما بالنـا   نعاف ما لا بـد من شـــربه
تبخل أيدينــــا بأرواحنا   على زمان هي من كســـبه
فهذه الأرواح من جـــوه   وهذه الأحيـــاء من تربه
لو فكر العاشــق في منتهى   حسن الذي يسبيه لم يســـبه
يموت راعي الضأن في جهله   موتة جالينوس في طبـــه
وربما زاد على عمــــره   وزاد في الأمن على ســربه

عذاب القبر:

وردت أحاديث عديدة عن عذاب القبر – بل ألفت كتب أفاضت القول في صور هذا العذاب بما يجعل القلوب ترجف لمواجهته. وقد قرأنا وجهة نظر فيها قدر من الإجتهاد لفقيه يتمتع بثقة وتقدير الملايين هو فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، رأينا أن من الخير أن نثبتها هنا، على الأقل لتحقيق نوع من التوازن. وجاءت كلمة الشيخ – وهي موجزة – ردًا على سؤال من أحد قارئات مجلة حواء "ما هو حساب القبر.. وهل يعذب الميت في القبر؟".

يقول فضيلة الشيخ: علينا قبل أن نشغل بحساب القبر أن أسأل عن حساب الآخرة.. هل هو موجود أم غير موجود؟. إذا عرفت أن بالآخرة حسابًا فأقول على أي شيء أحاسب في الآخرة.. نجد أننا نحاسب إذا ما كنا أدينا ما أمرنا الله به أم لا.

إننا حتى كبشر في الدنيا لا نحكم على قضية إلا بعد تحقيق البوليس ثم النيابة، ثم المحكمة، ثم ينفذ الحكم بعد ذلك.

وحساب القبر هو عرض للجزاء والآخرة هو دخول في الجزاء. قال تعالي "النار يعرضون عليها غدوا وعشيًا".

ثم يقول "ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب".

إذن العرض في غير قيام الساعة. وبذلك نجد أن الزمان مجزأ إلى ثلاثة أقسام: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة وما بين الحياتين. ففي الحياة الدنيا تعمل، وفي الحياة الآخرة، تلقى جزاء عملك في الدنيا. وفي القبر يعرض عليك جزاء عملك ومكانك في الآخرة. وحين يعرض الجزاء في زمان ومكان لا تستطيع أن تفلت منه يصبح أمرًا متحققًا لا يستطيع أحد أن يعود فيه.

وإذا تساءلت كيف تكون الحياة الآخرة نقول إننا في حال حياتنا لنا حالان حال يقظة وحال نوم. هل قانون اليقظة هو نفس قانون النوم. نجد أنهما يختلفان رغم وجود الحياة.. إذن إذا قلنا إن الموت حياة أخرى ونظام آخر فلا بد أن نصدق ذلك لأنك ترى وأنت نائم وعيناك مغمضة. فهناك وسائل إدراك غير العين تستطيع أن ترى بها الأشخاص والألوان والأماكن. فإذا حدث هذا لمجرد أن مادة الإنسان وهي جسم قد خمد قليلاً، فإذا قيل لنا إن في القبر حياة أخرى عندما تنتهي الحياة، فلا بد أن تكون هذه الحياة أكثر شقاوة تزيد فيها وسائل الإدراك.

إننا في الرؤية نذوق الطعام والشراب ونشعر بحلاوته أو مرارته. ونرى هذا يرتدي أبيض والآخر يرتدي الأخضر. وعندما ترى رؤيا تحكيها في وقت طويل رغم أن العلم أثبت أن أطول حلم لا يستغرق أكثر من سبع ثوان. إذن فالزمن ملغى كذلك أنك تنام إلى جانب شخص يرى أنه بين أحبابه يضحك ويأكل ويمرح، والآخر يرى أنه بين أعدائه يضربونه لا هذا يشعر بذلك ولا ذاك يشعر بهذا.

ولذلك لفتنا النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا فقال: ﴿ إنكم تموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون﴾ فإذا اختلف قانون النوم عن قانون اليقظة فإن قانون الموت يختلف عن قانون الحياة.

إذن فلا يوجد عذاب بالقبر ولكن عرض ورؤية فقط لموقف الإنسان من عذاب أو نعيم"([51]).

***

قلنا إن العقلانية، تشترك مع الإسلام في تقبل الموت كواقعة ضرورية لا بد أن تقابل بالرضا والتسليم، ولكن الإسلام يقدم ما تعجز عنه العقلانية ألا وهو "خلود الروح" وهو ما يعد من أكبر القضايا التي تطرحها العقلانية على الإسلام. فمع أن وجود الله هي القضية الأولى إلا أنها من البداهة بحيث لم تستطع العقلانية عندما تكابر – أن تجزم بنفيها وقصارى ما يمكن أن تصل إليه مكابرتها هو "اللاأدرية" أما في حالة خلود الروح، فإن العقلانية تنكرها. ولا تدع لها القاعدة الحسية التي ترتكز عليها شكًا في أن الموت هو النهاية.. وأي شيء أوضح – فيما ترى من هذا. وهذا جسد يتحلل حتى يصبح هيكلاً عظميًا أو قبضة من تراب. فكيف يمكن الشك في أن هذه هي النهاية؟ وكيف يقال إن هناك "روحًا" تختلف عن الجسد، ولا تموت مع الجسد؟ ﴿أئذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد﴾ وكيف حدث أن لم يظهر أحد من الذين ماتوا عبر مئات القرون من ألوف الملايين الذين ماتوا منذ أن ظهرت البشرية ليقص علينا ما وراء الموت لماذا تتنحى تلك الأرواح الظافرة وتقيم بعيدًا عن هذه المعركة الدائمة التي تستمر بعدها.. لماذا تتركنا ما دامت قوتها لم تنقص بعد الموت.. لماذا لا تعمل هذه القوة في خدمة إخوانها من البشر.. ما كان أعمق اعتقاد الأقدمين بأن روح الأجداد تتحرك وتعمل من حولهم في كل مكان وأن الأموات يحيون إلى جانبهم حياة ثانية، وأن العالم يعج بالأرواح، وأن لهذه الأرواح قدرة فوق قدرة البشر إذا كانت النفس لا تموت، فلا بد أن تصبح عونًا للغد([52]).إلى آخر ما ذكره ج. م جويو في كتابه "الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء".. حتى وإن اشتطت به الدعوى إلى ما ماثل سذاجة الأقدمين.. نقول إن قضية خلود الروح رغم أنها غصة في حلوق العقلانيين فقد آمن بها معظم الفلاسفة القدامى والمحدثين بحيث رأى جويو نفسه أنها كانت وراء فكرة "الله" على حد قوله فالإنسانية "لا تهتم بالله إلا قليلاً، فما من شهيد كان يمكن أن يضحي بنفسه من أجل هذا الكائن المنعزل المقيم في السماوات وإنما الله في نظرنا قوة قادرة على أن تجعلنا خالدين. فقد أراد الإنسان دائمًا أن يرقى إلى السماء، ولما كان لا يستطيع ذلك وحده خلق الله حتى يمد الله يده، ثم إذابة يتعلق بهذا المنقذ تعلق حب. وإذا قيل غدا للمئات الأربع من ملايين المسيحيين، ليس ثمة إله، وإن هناك جنة وإنسان ويسوع وعذراء وآدم وقديسون، فلعل ذلك لن يحزنهم كثيرًا، وسرعان ما يتأسون".

"فالواقع أن الخلود يكفينا، وأنا من جهتي لست أطلب ثوابًا ولا أريد استجداء، ولا أنشد شيئًا إلا الحياة، وإلا أن أجتمع بأولئك الذين أحببتهم. إني لا أريد شيئًا غير خلود الحب والصداقة والإخلاص. ومازلت أذكر ذلك اليأس الطويل الذي اعتراني يوم أن دخل في روعي لأول مرة أن الموت قد يكون فناء للحب، وقطيعة بين القلوب، وانطفاء أبديًا، وأن المقبرة بقبورها الحجرية وجدرانها الأربعة قد تكون هي الحقيقة الواقعية، وأن الأشخاص الذين كانوا يجعلون حياتي روحية، ولن يلبثوا أن ينتزعوا مني، أو لن ألبث أن أنتزع منهم، وأننا لن نتواصل بعد ذلك أبدًا".

"وهكذا فإن الصورة القديمة للمسألة الدينية والأخلاقية، أعني مسألة وجود الإله، ترتد إلى هذه الصورة الجديدة، مسألة الخلود"([53]).

كما أن بعض الكتاب يرى أن فكرة "خلود الروح" قد لعبت دورًا أكبر من فكرة "وجود الله". وقد لاحظ وليم جيمس ذلك عندما قال "إن الدين في الواقع عند الأغلبية

---

[51] (?) مجلة حواء العدد 132 – 13 فبراير سنة 1982 ص 31.

[52] (?) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء تأليف ج. م جويو – ترجمة سامي الدروبي ص 31 – دار الفكر العربي – القاهرة.

[53] (?) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء – مرجع سابق ص 32.

من الناس يعني خلود الروح ليس إلا.. وإن الله هو موجد هذا الخلود". ويقول الكاتب الإسباني ميجيل دي أنامايو: "كنت أتحدث إلى فلاح ذات يوم واقترحت عليه فرض وجود إله يحكم في الأرض وفي السماء، كما اقترحت عليه أيضًا فرض عدم خلود الأرواح وأنه لن يكون بعث ولا نشور بالمعنى التقليدي المعروف، فأجابني الفلاح قائلاً: "وما فائدة الله إذن؟" وربما كان "لوثر" يفكر مثل هذا التفكير عندما قال حانقًا: "إذا لم تعتقد في اليوم الآخر، ما ساوى إلهك عندي شيئًا". وحتى الشعراء قد اتبعوا هذا الرأي، فقد أعلن "تنيسيون" ذلك قائلاً "لو أن خلود الروح غير حقيقي لكان شيطانًا مزورًا، وليس الله، من خلقنا". وليس بمستغرب أن يكون هذا هو أسلوب هؤلاء السادة في التفكير، فقد كتبوا هذه الأفكار في ضوء تعاليم الديانة المسيحية، فالمسيحية قد أكدت فكرة الخلود تأييدًا كبيرًا، ونجد منذ فجر المسيحية القديس "بولس" يعلن دون لبس، لب هذا المذهب، إذ يقول "وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا، وباطل أيضًا إيمانكم.. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس"
(ا كو 15: 14: 19)[54].

من هذه النصوص المستشهد بها نرى أن فكرة خلود الروح كانت عميقة الجذور. ولا نجد حساسية إزاء كلام دي جويو.. لأننا نؤمن أن هذا كان تصور البشرية في فترة ما قبل النبوات وإن لم يكن الوجود "الموضوعي" والحقيقي لأن كل ما يتصوره الإنسان أو يتمناه لا بد وأن يكون له أصل في الحقيقة، فلا شيء من لا شيء، وقد حقق العصر التصورات والتأملات التي جاءت في "ألف ليلة وليلة" وإن اختلفت الصورة بل وما جاوز هذه التصورات كالانطلاق إلى القمر والنزول على أرضه. إن أحلام الأمس حقائق اليوم وهو ما كان يقوله الإمام الشهيد حسن البنا مستنهضًا شباب الإخوان، أو دافعًا لهم للتغلب على صعوبات الحاضر ووصولاً للمستقبل، يمكن أن يكون مبدءًا عامًا.

وقد أثبتت البحوث العلمية أن الفكرة الساذجة القديمة للبشرية عن خلود الروح لها أصل علمي. وكما سنرى فإن هذه البحوث أثبتت أن الموت ليس هو نهاية الفرد الإنساني. ولكن هناك نوعًا من البقاء يطلقون عليه "النفس" أو "الروح" أو "الإرادة" أو "العقل" أو عالم الأثير يحفل فعلاً بالأرواح.. حتى وإن عجز العلم عن الاتصال بها.

ومن أبسط ما يمكن أن يقدمه العالم في هذا الصدد "أن مبدأ الانفصال المسيطر على جميع ظواهر التطور، مبدأ كلي شامل، يتعذر علينا أن نظن أن الموت يجل عن الخضوع له. وكما أن الجنين وهو حي فيه كل خصيات الأحياء، ولا يستطيع أن يعرف شيئًا عن حياته المقبلة قبل أن ينفصل عن أمه، كذلك الحي يعجز بطبيعة الحال عن أن يعرف شيئًا مما ينتظره بعد أن تحل عملية الانفصال، إذ يحدث به حدث الموت، وما هو إلا الظاهرة التي تعبر لنا عن مبدأ الكون الكلي "مبدأ الانفصال"([55]).

علم الأحياء.. من الخلية إلى الروح:

فتحت التطورات العلمية الأخيرة مجالات لم يكن يتصورها البيولوجي القديم في معمله المتواضع. ووجد البيولوجي الحديث آفاقًا عديدة تتفتح له لم يكن يتصورها أو يحلم بها العالم القديم الذي كان ينظر إلى الجسم الإنساني ككل، أو يقسمه إلى الأعضاء المعروفة.. ولكنه لا يتصور ما وراء ذلك، وقد كشف العصر الحديث التكوين المعقد للجسم الإنساني، فالجسم يتكون من ذرات غاية في الصغر، والذرات تكون جزئيات، والجزئيات تكون خلايا والخلايا تكون أنسجة ولحمًا وعظمًا.. وأعضاء.

والذرات هي من الصغر بحيث لو تراصت عشرة ملايين ذرة من ذرات الأيدروجين في طابور لما بلغ طوله مليمتر واحد..

---

54 (?) **الخلود للدكتور سيد عويس ص 55 (دار المعارف بالقاهرة). وانظر استدراكًا لهذه الفكرة من وجهة النظر الإسلامية في الفصل التالي.**

55 (?) **الأستاذ إسماعيل مظهر – مقدمة في حياة الروح في ضوء العلم – انظر الفقرة التالية.**

وهذه الذرة الدقيقة تتكون من نواة.. والنواة مبنية من أجزاء أدق بعضها بروتونات (جسيمات كهربية موجبة) وبعضها نيوترونات (جسيمات متعادلة) وتدور حولها على مسافة بعيدة نسبيًا إلكترونات (جسيمات كهربائية سالبة) والإلكترون يدور حول نواة الذرة وهذه الذرة ليست كلها مادة صلبة، بل إن نسبة المادة الصلبة إلى الفراغ الذي تدور فيه الإلكترونات هو نسبة 1: ألف مليون مليون مليون (1.000.000.000.000.000).

وهذا الإلكترون الذي هو أصغر الجسيمات الذرية حجمًا يدور 700 مليون دورة في الثانية الواحدة.

وفي كل ثانية تموت وتتجدد خمسة ملايين وسبعمائة ألف خلية تحمل الحديثة منها صفات القديمة.

وفي الخلية تجتمع آليات الحياة العضوية (البروتوبلازمية) مع آليات النشاط الذري من كهرباء ومغناطيسية وإشعاع.. إلخ وهي مثل جهاز الراديو يجب أن تتناغم وفقًا للتردد المطلوب أو بالتعبير الشائع تضبط موجتها على المحطة المطلوبة، وهو في حالة الخلية – التردد الذي يتوافق مع العمليات الحيوية. باختصار يمكن القول بأن كل خلية تعمل كما لو كانت تحمل جهازًا للاتصال اللاسلكي يتيح لها أن تستقبل وترسل رسائل، وتتضمن مكوناتها أشباه موصلات عضوية كالبللورات السائلة" وهي مادة فائقة الحساسية للتغيرات في درجة الحرارة والتغييرات المغناطيسية والكهربائية والإشعاعية بالإضافة إلى حساسيتها الفائقة للتلوث وتحوطها مجالات كهرو – مغناطيسية لا تشعر بها الحواس الخمسة، وفي بعض التجارب التي أجريت في الاتحاد السوفيتي اقتطعت بعض خلايا الإنسان ووضعت في أوعية مختلفة من الكوارتز، وعندما سلطت بعض أنواع الفيروسات على الخلايا التي في أحد الأوعية ماتت الخلايا في باقي الأوعية في نفس الوقت"([56]).

وفي كل عضو من أعضاء الجسم الإنساني من عين أو أنف أو يد.. إلخ ملايين الخلايا التي تعمل كل واحدة مع الأخرى بتجاوب تام بحيث يؤدي الجسم وظائفه، وكان مما كشف عنه العلم الحديث التشابه التام بين تكوين الذرة وتكوين النجوم والكواكب والمجرات مع فارق واحد هو أن الذرة تمثل النهاية في الصغر، وأن المجرات تمثل النهاية في الكبر. وجمع هذا ما بين عالم الأحياء، وعالم الطبيعة وعالم الفلك ووقفوا جميعًا مشدوهين أمام هذا العالم العجيب الذي تعجز عن تقديره تصورات الإنسان ولا تستطيع أن تلم به إلا الرياضيات العليا وجعلهم هذا أقرب إلى الإيمان مما كان الباحث القديم، الذي لم يكن يرى في الإنسان سوى جسمًا واحدًا دون أن تكون عنده فكرة عن العالم العجيب وراء هذا الجسم الواحد.

وفي الخمسينيات صدر كتاب لعالم أحياء أمريكي تحت عنوان "بيولوجيا الروح" اتخذ نقطة انطلاقه من ظاهرة بيولوجية معروفة هي "التقويم الذاتي" ورأى أن هذه الظاهرة تنم عن "قصدية عضوية" كما يمكن أن تعد نوعًا من نشدان الهدف يتدرج نحو الاكتمال منسقًا نواحي النشاط العضوي بمعيار غاية في الضبط([57]).

وصفة التقويم الذاتي هذه لا بد وأن تعود إلى الخلية الحية "البروتوبلازمية" فكيف يحدث هذا؟ إن التعليل الشائع هو أن لها قدرات تنظيمية راسخة كشف عنها

---

[56] **(?) الأستاذ راجي عنايت – بحث معجزات العلاج – مجلة المصور – دار الهلال – عدد 30 مارس 1984 – ص 40.**

[57] **(?) "بيولوجيا الروح The Biology of The spirit" وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الكبير إسماعيل مظهر باسم "حياة الروح في ضوء العلم" مطبوعات مؤسسة فرانكلين (القاهرة – نيويورك) وصدر في ديسمبر سنة 1960، وقد كان إسماعيل مظهر رحمه الله أحد رواد الفكر العربي في مستهل القرن. وقد درس الأحياء، وترجم كتاب داروين "أصل الأنواع" سنة 1918، كما ترجم عددًا آخر من الكتب حول هذا الموضوع. وأصدر مجلة العصور سنة 1927 ثم تولى رئاسة تحرير المقتطف – ألف عددًا من القواميس من (الإنجليزية - للعربية) وقام بتأليف معجم مظهر الأنسكلوبيدي. فالمؤلف من الأساتذة المتمكنين. ولكن حرصه على "الترجمة" وليس "التعريب" في هذا المجال الجديد جعله في بعض الحالات يغرب ويبعد عن المفهوم السائد، وهو مما لا يعد مأخذًا إلا بمنطق الخطأ المشهور أفضل من الصواب المهجور.**

الباحثون، على أن هذا القول لا يحل المشكلة، فنحن لا نعرف من أين نشأت تلك القدرة ولا يجدي بالطبع القول بأنها تصرف حيوي – كيميائي أو ردود الفعل.. أو الاستجابة.. لأن استجابة الأحياء تختلف عن الاستجابة لدى الأشياء.. فإن ضغط زناد مسدس لا بد وأن يطلق الرصاص، كما أن الضغط على جرس كهربائي سيؤدي إلى صدور صوت.. ولكن استجابة الكائن الحي لا تكون ميكانيكية. ويذهب بعض العلماء إلى أن في كل كائن عضوي شيء فيه طبيعة الموجه والهادي، أو النزعة للاكتمال أي ضرب من عامل روحي يتدخل تدخلاً ذاتيًا، وبخاصة عند حلول الظروف الحرجة حتى يحتفظ الكائن العضوي بوحدته. ويتغلب على نزعات التفكيك والتبديد التي تحاول أن تنزل به إلى دنيا الجماد. أما كيف يحدث ذلك التصرف فمن العسير تصوره.

إن الأحيائي مهما جهد نفسه مقسور على أن يواجه مشكلات غيبية، شأنه شأن العالم الفيزيقي إذ يواجه مثل هذه المشكلات، علمًا بأنه قد يرفع يديه مستغيثًا بأن مثل هذه الآراء خارجة عن حدود العلم، ولكننا ما لم نحدد مجال العلم تحديدًا بالغ الضيق، فإنه ولا شك سيواجه عند تخومه الخارجية أشباهًا لهذه المشكلات على أنه ينبغي لعالم الأحياء أن يستعمق مفكرًا في هذه الأمور المستغلقة حتى يمكنه أن يستسيغ معرفة ما هي طبيعة تلك المشكلات. إن العالم الفيزيقي ليعكف على تأمل طبيعة الحقائق الفيزيقية عكوف الرياضي على البحث وراء العلاقات بين المكان والزمان، والكوني تنقيبًا وراء أصل الكون ومآله. ولا شك أن الأحيائي مقسور إن عاجلاً أو آجلاً على أن يأخذ في ارتياد هذه المجاهل.

ويرى المؤلف أن الحياة هي المشكلة الغائية لأنه عن الحياة لا عن غيرها يصدر نشدان الهدف والقصد. فما هي منزلة الحياة من الكون؟ إن الرد على هذا السؤال لا يجوز أن ينفرد به عالم الأحياء، ولكن لا بد أن يشترك معه الفنان والفيلسوف والشاعر.. إن المشكلة هي المادة والروح. وتعد الجبلة التي هي أسس الحياة "البروتوبلازمية" نقطة الملتقى. فإذا أمكن افتراض تهيؤ البروتوبلازما أي استكمال تكوينها من العناصر المادية، فإن انبثاق الحياة في هذه الجبلة – وهو أمر لا تزال طريقته مجهولة، يجعل البروتوبلازما تأخذ طريقها المرسوم. أي لا يقتصر على الجوانب المادية، ولكن أيضًا على الجوانب الأدبية التي يعد التجاوب مع الجمال أحد شواهدها. وكذلك الحساسية نحو الفضيلة والحق والخير والحب. وإذا كان التجاوز المادي يمكن أن يحدث "ألمًا" فإن التجاوز الأدبي يحدث ما نسميه وخز الضمير.

والحقيقة التي تثير الدهشة، وتجاوز هذا كله أن كل فرد من الملايين الإنسانية لا يشابه فردًا آخر تمام المشابهة (إلا في حالة التوائم الوفاقية) بحيث لا يمكن أن يعد الآحاد كالقطع التي تخرجها الآلات في المصانع، وهذا الاختلاف يشمل الشكل المادي، كما يشمل الفهم والتصرفات والحركة والسكنات، وهذا أمر يضع "الشخصية" جنبًا إلى جنب "الروح" كقضايا لا يستطيع علم الأحياء وحده سواء كان أسلوبه حيوية – كيميائية Bio chemical أو فيزيوكيميائية Physico chemical حلها.

ويلخص الكتاب نتيجة بحثه:

".. على أية حال لدينا حقيقة أساسية نأخذ بها حتمًا، هي أن العضويات الحية تتحرك دائمًا نحو أهداف محددة، سواء في تخلقهم البدني أم في سلوكهم. إن هذه الفكرة المثلى سواء أنظرنا فيها من ناحية الفيزيقي، أم الكيميائي، أم الفسيولوجي، أم علم النفس، أم اللاهوت، هي على ما أعتقد حلقة وصل بين بدن الإنسان المادي الحي، وتلك النواحي الأثيرية اللامادية التي هي موشجة توشيجًا.

ومن هنا قد تساعدنا هذه النظرية – قائمة على دراسة التخلق في الحيوان والنبات الأدنى، على إلقاء شيء من الضوء على مشكلات الإنسان يردها إلى صفة نشدان الهدف التي تتجلى في الحياة على اختلاف صورها وطبقاتها، إنها جميعًا مشكلات تتصل بالحياة، إذن فهي مشكلات تتصل بعلم الأحياء، ولكن في أوسع حدوده وأرحب معانيه، وأعني بذلك إحيائية الروح.

وهي في النهاية تقول إن الله هو "القدرة" التي تخلق الأجهزة العضوية الحية، وتبعث فيها الأهداف التي تتم بها والتي تنتهي عند مأمولات الروح[58] ".

خلود الروح من منظور طبي:

كانت النظرية المادية التي سيطرت على العالم في الفترة التي أعقبت نيوتن وطوال القرن الثامن عشر، هي أن الفكر من إفراز المخ. وأن الوعي والإرادة كلها انعكاسات لآليات الجسم الإنساني وأعضائه. وكان من مقتضياتها أن لا شيء في الإنسان يمكن أن يبقى بعد الموت، فإذا كان التفكير والإرادة من أنشطة المخ، فليس هناك داع لافتراض بقاء هذين بعد تحلل المخ، ولم يكن لدى العلماء معرفة بكيفية انبثاق العقل من المادة، وأمل علماء الفسيولوجيا أن يأتي المستقبل بالحل. وفي عام 1868 كتب هكسلي: ".. وهكذا سيوسع علم وظائف الأعضاء في المستقبل شيئًا فشيئًا من عالم المادة وقوانينها إلى أن يصبح مساويًا في امتداد نطاق المعرفة والشعور والعمل"[59].

ولكن المستقبل جاء بصورة مختلفة تمامًا، وقدم نظرية جديدة بدأت بالسير تشارلز شرنجتون الذي يعتبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة. ونتيجة بحوثه الرائدة في الجهاز العصبي والدماغ ظهر فرق جذري بين الحياة والعقل، فالحياة مسألة كيميائية وفيزياء. أما العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء.

والعقل يعرفنا علل الأشياء التي تعجز عنه الحواس. فاللسان مثلاً يدلنا على أن البحر مالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته.. كما يمكننا العقل من إدراك ماهية الأشياء وهو أمر لا تستطيعه الحواس، ولا ملكة الخيال ذاتها.. وهو عن طريق العلوم يجاوز قيود الخيال، ويدرك بالمعادلات الرياضية أبعادًا تستعصي على الخيال. والعقل لا الحواس هو الذي يصنع العلم لأنه وحده يستطيع أن يستكشف ماهية الأشياء وعللها.

وقد يطلق على قدرة العقل أحيانًا الفهم Understanding وهي تسمية مناسبة لأن طبيعة الأشياء تكمن تحت stands under صفاتها الظاهرة. والفهم يستطيع كذلك أن ينفذ إلى العلة التي يرتكز عليها الأثر الذي تدركه الحواس.

ويماثل العقل في تميز الإنسان به عن الحيوان – الإرادة. فالإنسان يريد، ويكيف أوضاعه طبقًا لإرادته، وهو ما لا يستطيعه الحيوان والنبات. والإرادة تختلف عن العاطفة في أن الأولى عادة ترتكز على العقل.

وقد أدت العمليات الجراحية التي أجراها "ويلدر بنفيلد Welder Penfield على أدمغة ما يربو على ألف مريض في حالة الوعي في الثلاثينات من هذا القرن، والتي نشر الآثار المترتبة عليها عام 1975 في كتابه "لغز العقل". The Mytstery of The Mind.

ففي بعض عمليات الصرع التي يبنج فيها الطبيب المريض تبنيجًا تامًا ليصل إلى المخ يستخدم "القطب الكهربائي" "الإلكترود" الذي يحدد موقع الخلايا التي تسبب النوبات الصرعية، ويزيلها.

وفي عام 1933 اكتشف بنفيلد بمحض المصادفة أن تنبيه مناطق معينة في الدماغ بالكهرباء تنبيهًا خفيفًا يحدث استرجاعًا فجائيًا للذاكرة عند المريض الواعي. لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر، ثم أخذته الدهشة. فعندما لامس الإلكترود قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالسًا يشاهد لعبة البيسبول في مدينة صغيرة، ويراقب ولدًا صغيرًا يزحف تحت السياج ليلحق بجمهور المتفرجين. وهناك حالة مريضة أخرى تسمع آلات موسيقية تعزف لحنًا من الألحان. وروى بنفيلد هذا الخبر فيقول "أعدت تنبيه الموضع نفسه ثلاثين مرة محاولاً تضليلها، وأمليت كل استجابة

---

[58] **(?) المرجع السابق ص 200.**

[59] **(?) استشهد بها في "العلم في منظوره الجديد" تأليف روبرت. م أجروس. وجورج ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي (عالم المعرفة) والاسم الأصلي للكتاب "القصة الجديدة للعلم" The New Story of Science، وسيكون مرجعنا حتى نهاية الفقرة.**

على كاتبة الاختزال. وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسمع اللحن من جديد. وكان اللحن يبدأ في المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية".

وأدى هذا الاكتشاف ببنفيلد إلى رسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسئولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية، ولكنه لم يستطع تحديد موقع العقل أو الإرادة. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة. ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل والإرادة.

ويعلن بنفيلد أنه "ما من عمل من الأعمال التي نعزوها إلى العقل قد ابتعثه التنبيه بالإلكترود أو الإفراز الصرعي "ويضيف قائلاً: "ليس في قشرة الدماغ أي مكان يستطيع التنبيه الكهربائي فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئًا. والإلكترود يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات غير أنه لا يقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقي أو يحل مسائل في الجبر. بل إنه لا يستطيع أن يحدث في الذهن أبسط عناصر التفكير المنطقي. والإلكترود يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحرك. ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه. إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة. فواضح أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية.

فإذا كانت الإرادة البشرية غير مادية، فليس مما ينافي العقل أن تتصرف بغير طرق المادة، أي بحرية واختيار. ومن ثم فالنظرة الجديدة لا ترى في الاعتراف باستقلال الإرادة فينا أي مجانبة للأسلوب العلمي. ومحصلة ذلك أنه ليس هناك أسباب علمية وجيهة لإنكار حرية الإرادة التي لا بد من افتراض وجودها إذا أردنا أن نتصرف كباحثين علميين، بل إن إنكار حرية الإرادة يجعل من العلم كله أمرًا منافيًا للعقل.

زد على ذلك إن النظرة الجديدة لا ترى في قدرة العقل على توجيه أنشطة الدماغ أمرًا مستحيلاً، ويصف عالم الأعصاب روجر سبري Roger Spery الثورة الفكرية التي حدثت في علم النفس خلال السبعينات من هذا القرن، والتي أحدثت انقلاباً مثيرًا في معالجة الوعي فيقول "لقد قلبت المبادئ السلوكية التي سادت طوال نصف قرن ونيف، وأخذ علم النفس فجأة يعالج أحداثًا ذاتية كالصور الذهنية، والأفكار وما إليها بوصفها عوامل ذات دور سببي حقيقي في وظيفة الدماغ وفي السلوك، وأصبحت مضامين الاستبطان وعالم التجارب الداخلية كلها مقبولة على نحو فجائي كعوامل تستطيع أن تؤثر في العمليات الفيزيائية والكيميائية التي تتم في الدماغ؛ ولم تعد تعامل بوصفها جوانب منفعلة وغير (سببية) بل غير موجودة.

إن المعرفة والقيادة تتطلبان قدرًا من البعد، فلا يمكن أن يكون العقل ظاهرة ثانوية مصاحبة لآلية الأعصاب إذا أريد له أن يعاين ويوجه الكل ويقول بنفيلد: "إن العقل، لا الدماغ، هو الذي يراقب ويوجه في آن واحد، فالعقل هو المسئول عن الوحدة التي نحس بها في جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسنا وعواطفنا. ويضيف أكلس "إن وحدة التجربة الواعية يتيحها العقل الواعي نفسه لا آلية الأعصاب.

ولو كان الدماغ حاسبة إلكترونية بالغة التعقيد، فلا بد له إذًا، شأنه شأن الحاسبة، من أن يوجه من قبل العقل. ويقول بنفيلد: "إن الحاسبة الإلكترونية (والدماغ هو كذلك) لا بد من أن تبرمجها وتديرها قوة قادرة على الفهم المستقل" ويحدد بنفيلد دور العقل هكذا "إن ما تعلمنا أن نسميه العقل هو الذي يركز الانتباه فيما يبدو، والعقل يعي ما يدور حوله، وهو الذي يستنبط ويتخذ قرارات جديدة. وهو الذي يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به. وهو يستطيع أن يتخذ القرارات وينفذها مستعينًا بمختلف آليات الدماغ، وهكذا فإن توقع العثور على العقل في أحد أجزاء الدماغ، أو في الدماغ كله، أشبه بتوقع كون المبرمج جزءًا من الحاسبة الإلكترونية".

وبناء على الأدلة سالفة الذكر، لا يرى بنفيلد أي أمل في النهج المادي للنظرة القديمة إزاء العقل فيعلن "إن توقع قيام آلية الدماغ العليا، أو أي مجموعة من ردود الفعل مهما بلغت من التعقيد بما يقوم به العقل وبأداء جميع وظائفه أمر محال تمامًا" ويوافق عالم الأحياء "أدولف بورتمان Adolf Portman " على ذلك فيقول "ما من

كمية من البحث على النسق الفيزيائي أو الكيميائي يمكنها أبدًا أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية".

كما أن بنفيلد لا يتوقع أن يقوم علم وظائف الأعضاء في المستقبل كما كانت تتوقع النظرة القديمة، بإظهار انبثاق العقل من المادة فيقول "يبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط العصبي داخل الدماغ، سيظل أمرًا مستحيلاً كل الاستحالة" ولذلك فهو يرى أنه "أقرب إلى المنطق أن نقول إن العقل ربما كان جوهرًا متميزًا ومختلفًا عن الجسم".

ومن دواعي السخرية أن بنفيلد بدأ أبحاثه بهدف إثبات العكس تمامًا، فيقول "طوال حياتي العملية سعيت جاهدًا كغيري من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل" فهو قد بدأ مسلحًا بجميع افتراضات النظرة القديمة، غير أن الأدلة حملته آخر الأمر على الإقرار بأن العقل البشري والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين. ويعلن بنفيلد "يا له من أمر مثير إذًا، أن نكشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح" وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين، فلا شك أن هاتين الملكتين على حد تعبير أكلس "لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما"([60]).

مع الأرواح...

كانت مخاطبة أرواح الأعزاء الذين ماتوا، أو الاتصال بهم بطريقة ما، من الآمال التي ساورت النفوس، فمع أن سيادة المادية، وأن الموت ينهي كل شيء، كانت غالبة على المجتمع الأوربي طوال القرن التاسع عشر، إلا أن طلعة الإنسان لا تعرف حدًا واستشرافها لا توقفه الأوضاع المقررة. دع عنك أن عاطفة الآباء والأمهات والأحبة للاتصال بأرواح المتوفين من الأبناء أو الحبيبات لا بد أن تكون ولو عند القلة قوية. متوهجة.. ومن هنا نفهم كيف أن فكرة الاتصال بالأرواح نشطت في بريطانيًا وأمريكا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين، وفي عام 1882 تكونت الجمعية العلمية في بريطانيا ورأسها الأستاذ سيجويك Henry sidgwick، كما كان أحد وكلائها آرثر بلفور Arther Belfour ونائبها الثاني الأستاذ لنجلي T.P. Longley سكرتير معهد سميث سونيون Smaith Sonion واشترك فيها أوليفر لودج Lodge العالم الطبيعي البريطاني، والأستاذ ريشة Richet الفرنسي، وهو عالم في وظائف الأعضاء، ومايرز وإ.جبرني F.W.H. Myers: E. Gurney وقد أزجى وليم جيمس في كتابه "إرادة الاعتقاد" الثناء الجم لقادة الجمعية لما اتصفوا به من إخلاص، وعبر عن أسفه لوفاة واحد من أبرز أعضائها.

وتراوحت أعمال الجمعية ما بين التنويم المغناطيسي، وإحضار الأرواح، وقد تعرضت الجمعية لحيل وأفانين كثيرة من الأدعياء، وكشفت عن بعضها في التو واللحظة، ولكنها تأثرت بالبعض الآخر أو كشفتها في فترات متخلفة، كما هو الشأن في حالة الوسيطتين مدام بلافاتسكي، وأسابيا بالادينو ولكن كثرة عمل الجمعية وإخلاص ومثابرة أعضائها وضعتها على حافة عالم ما ينبئ بأن في الإنسان شيئًا وراء الجسم والمادة، ومع أن الأدلة التي حصلت عليها قد لا تكون حاسمة، فإنها في مجموعها لا يمكن أن تخلو من معنى.

وقد عنيت مجلة "المقتطف" في القاهرة بهذا النشاط الذي كان شائعًا وقتئذ، وتابعت عمل هذه الجمعية ونشرت نتائج أبحاثها في سلسلة من المقالات جمعتها بعد ذلك وطبعتها في كتاب باسم "رسائل الأرواح" – (المقتطف 1928). وذكر فؤاد صروف في مقدمته "وللمقتطف رأي مشهور في مسألة مناجاة الأرواح وقراءة الأفكار، وما إليها من مظاهر الروح يتلخص في أنه لا ينفي مناجاة الأرواح وقراءة الأفكار، ولكنه يرتاب في صحتهما، لأن أحد منشئيه المرحوم الدكتور يعقوب صروف لم يقف في أثناء مزاولته لهذه المباحث على ما يثبتها إثباتًا ينفي كل ريب من عقل تعود الخضوع للبرهان العلمي الرياضي، وكان رحمه الله يقول ما خلاصته "إن كل ما

---

60 **(?) العلم في منظوره الجديد – ص 42 – 43.**

اطلعنا عليه من هذا القبيل، وكل ما امتحناه بأنفسنا لم نجد فيه ما يخرج عن التخيل والخداع والانخداع، أو ما لا يفسر بالاستهواء الذاتي، أو ببعض النواميس الطبيعية المعروفة أو ما لا يمكن رده إلى غيره مما لا يتعذر تفسيره أو ما في صحته شبهة قوية" ولكنه كان ميالاً في كثير من الأحيان إلى القول بأن بعض الناس يستطيع أن يدرك ما في نفوس غيره بغير الحواس المعروفة. وهذا هو التنبؤ وانتقال الأفكار".

وتضمن الكتاب مقالات عديدة بأقلام السير أوليفر لودج والسير آرثر كونان دويل، وإشارات إلى مقتل ريموند ابن السير أوليفر لودج في الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي دفع أباه للقيام ببعض التجارب الروحية بأمل أن يعلم شيئًا عن مصير ابنه، واعتقد أنه حقق ذلك، وضمن تجاربه تلك كتابًا كبيرًا حمل اسم ابنه "ريموند" وضمنه بعض الفصول لإثبات خلود الروح وإمكان مناجاتها. وظهر الكتاب في 2 نوفمبر سنة 1916 فنفدت نسخه توًا، ثم طبع مرة أخرى وثالثة ورابعة قبل نهاية نوفمبر، وأعيد طبعه في ديسمبر طبعتين وأعيد طبعه بعد ذلك مرارًا. وتقول مجلة المقتطف في كتابها المشار إليه آنفًا: ".. وأمامنا الآن الطبعة السادسة الصادرة في ديسمبر"
ونضيف إن الطبعة التي في مكتبتنا الخاصة هي الطبعة الحادية عشر وهي في مستهل 1919، وكانت الطبعة السابقة عليها في ديسمبر سنة 1918.

وتضمن كتاب المقتطف بحوثًا ومقالات عديدة، منها مناظرة ما بين سير آرثر كوين دويل، والمستر جوزيف مكايب، تحت رئاسة المحامي المشهور "إدوار مارشال هول". تكلم كل واحد منهما أربعين دقيقة مؤيدًا دعاواه وناقضًا دعاوى خصمه، ثم سمح لكل منهما بالتعقيب على كلام مناظره. ومن الغريب أن السيد ميكاب Mecab وهو أحد رجالات الكنيسة السابقين كان معارضًا لفكرة وجود الأرواح، وإمكان الاتصال بها، ونسب ما أورده أعظم اثنين أيدا وجود الأرواح وهما لودج – ولومبروزو إلى مقتل ابن الأول وإلى تأثر الثاني بعته الشيخوخة. ورد سير آرثر كوين دويل بذكر أسماء الباقين من المؤيدين لوجود الأرواح وأشار إلى بعض التجارب.

كما عرض الكتاب لمقالات للأستاذ نيوكم والمستر ستيد الصحفي البريطاني الذي كان في قمة الشهرة، وبعض كتابات السير أوليفر لودج.

ووصف الكتاب في فصول عديدة، وبصفة مفصلة بعض جلسات الأرواح وما فيها من حقيقة وزيف، ومن هذه الجلسات، جلسات أعدها وسيط يدعى الكولونيل دي روشا، ونشرت في مجلة العلوم. ولهذا الجلسات أهمية خاصة بررت نشرها في الكتاب تحت عنوان "قبل الولادة.. وبعد الموت" وجاء فيها أن بعض المتخصصين في التنويم المغناطيسي يستخدمون إشارات طولية، أي من أعلى إلى أسفل، تجعل الوسيط يتذكر ماضي حياته إلى سن الطفولة، وقد تستخدم إشارات عرضية للوصول إلى المستقبل، وواصل الكولونيل دي روشا إشارته الطولية حتى سن الطفولة ثم جاوزها إلى فترة الولادة وما قبلها، وكذلك واصل الإشارات العرضية حتى الوصول إلى سن الشيخوخة والهرم والموت.

وكانت الوسيطة في هذه التجربة فتاة عمرها ثماني عشر سنة لم تسمع شيئًا عن نشاط روحاني واسمها ماري مايو وهي ابنة مهندس فرنسي أمضى جانبًا من عمره في بلاد الشرق في إنشاء السكك الحديدية، ومات فيها، فتزوجت امرأته مهندسًا آخر من مهندسي السكك الحديدية، وبقيت الابنة في مدينة بيروت إلى أن صار عمرها تسع سنوات، وكانت تتعلم في مدرسة للراهبات، وتعلمت هناك مبادئ القراءة العربية ثم سافرت إلى فرنسا وكفلتها عمتها، وكانت تسكن في البروفانس.

وبدأت الجلسات في ديسمبر سنة 1904 واستمرت طوال شهرين، وفي إحدى هذه الجلسات أخذ ينومها حتى تكون الطيف المسمى بالجسم الأثيري، وحاول إخراجه من الغرفة فكان يصل إلى الجدران ويقف. وقال المنوم للوسيطة أن تمد إليه يد الطيف اليسرى فقرصها، أي قرص الهواء، فشعرت الفتاة بالقرصة، وعندما أيقظها وجد في يمينها علامة القرصة التي قرص بها الطيف.

وفي جلسة أخرى تعمق في تنويمها حتى صارت ترى طيفها واقفًا بجانبها فقال لها أن تجعل شكله مثل شكلها وهي بنت 18 سنة، ثم وهي بنت 14 سنة، ثم وهي بنت 12 سنة، ثم وهي بنت عشر سنوات وسألها أين كانت فقالت في مرسيليا. وهذا صحيح، ثم وهي ابنة ثماني سنوات فقالت إنها في بيروت. فسألها عن معنى كلمة "بون جور" بالعربية فقالت "سلام عليك" ثم طلب أن تعود إلى السنة الرابعة، وعندما ردها إلى السنة الأولى لم تعد تتكلم، بل كانت تكتفي بالنظر وقولها نعم أولاً، ولما ارتدت إلى ما وراء ذلك بقيت تشعر بوجودها ولكن ليس في حالة محددة فأعادها إلى حالتها الطبيعية حتى وصلت سن 18.

وفي جلسة أخرى أعادها إلى زمن ولادتها. وإلى ما وراء ذلك. وجاءت نتيجة أسئلته أنها امرأة اسمها لينا، وكانت زوجة لصياد أسماك اسمه إيفون، وكان لها ولد وحيد مات وعمره سنتان، وتحطمت السفينة بزوجها في البحر فمات غرقًا، فيأست من الحياة وألقت بنفسها في البحر وأكل السمك جسمها. وصعدت إلى الهواء ورأت فيه كائنات كثيرة، ولكن لم يسمح لها بالتحدث معهم، ولم تتألم أو تتعب، كان هذا بالنسبة لماضيها، أما بالنسبة لمستقبلها. فرأت أنها وهي في التاسعة عشرة من عمرها تسافر مع أمها ويقيمان في بلاد أهلها زنوجًا عراة.

وفي جلسة أخرى تدرجت في تاريخ ماضيها، فكانت ترى طيفها يصغر كلما صغرت سنًا حتى إذا صارت جنينًا في بطن أمها زال الطيف تمامًا وامتزج في الجو، ولما صارت لينا وماتت دخلت العتمة وحاولت أن تلتقي بزوجها وولدها فلم تلتق بهما. وكانت في زمن لويس الثامن عشر، وقبل ذلك كانت رجلاً اسمه شارل لوفيل، وكان رجلاً شريرًا قتل بعض الناس، ولما صار عمره خمسون سنة مرض ومات وسار طيفه في الجنازة وسمع الناس يقولون "لقد تمادى في الشر" وبقي في حالة غير راضية حتى دخل جسم لينا.

وكانت ماري تأخذ أشكال وأوضاع كل حالة يردها إليها التنويم ففي سن السنتين قالت إنها لا تعرف أن تتكلم، وعندما أمرها أن تعود إلى بطن أمها وسألها "أين أنت الآن". فقالت "لا أدري ولكني أشعر بشيء متحرك، ثم قالت إن طيفها قد تجسم عندما قطع الحبل السري، وإنها بدأت تتنفس، وعندما أمرها أن تكون على الحالة التي غرقت عليها دارت على جانبها الأيمن ووجهها بين يديها وظهر على وجهها دلائل الموت والخوف وصار حلقها يتحرك، كمن يبلغ الماء غصبًا عنه ونطقت بألفاظ غير مفهومة وبدا على وجهها الألم الشديد حتى أيقظها.

وكان تعقيب المقتطف فيما يبدو لنا ركيكًا إذ أعاد ذلك إلى أن العقل الباطن للفتاة حفظ كثيرًا مما سمعته وقرأته في حياتها فتذكرت بعضه وهي في حالة الاستهواء، وإن أسئلة الكولونيل دي روشا ولدت في ذهنها صورًا جديدة حددتها من محفوظاتها. فلما قال لها من كنت قبلما ولدت أخيرًا، قالت كنت امرأة وقصت قصة امرأة تعرفها أو سمعت أو قرأت عنها وأبدت من الانفعال والإشارات ما ينطبق على الأحوال التي صورتها فيها، فكانت تتألم عند المخاض وتتخبط عند الغرق، ولما سألها من كنت قبلما صرت هذه المرأة، قالت كنت رجلاً، وكان يمكن أن تقول إنها امرأة أخرى، ولكنها ذكرت أول خاطر أخطره السؤال في بالها. والظاهر أن هذه الخواطر التي أخطرتها مسائل الكولونيل في بالها في الجلسات الأولى صارت تخطر في بالها في الجلسات التالية على ترتيبها، بل صار خطورها في الجلسات التالية أسهل حدوثًا لأنها كانت قد خطرت، والمؤثر واحد وهو السؤال، فلا بد أن تخطر بعد أن انضم إلى السؤال مؤثر آخر وهو الصورة السابقة التي ارتسمت في الذهن على أثر السؤال الأول، فصارت كمن يتذكر في الجلسات الأخيرة
ما كان يقوله في الجلسات الأولى. وهذا التعليل لا يزيل كل غرابة من حادثة هذه الفتاة وأمثالها، ولكنه يزيل أغرب ما فيها على ما نرى".

أديسن والأرواح:

لا يقل أهمية، بل بالتأكيد يزيد عما جاء في الفقرات السابقة التي أوردها كتاب المقتطف "رسائل الأرواح" ما أورده الكتاب تحت عنوان"ما وراء القبر" وأجمل فيه

رأي المخترع الأمريكي المشهور أديسن عن الأرواح، ومحاولته إختراع آلة يمكن بها الاتصال بالأرواح. ولعلها المحاولة الوحيدة، التي لم تتم وعجز عنها هذا المكتشف الذي سجل مئات الاكتشافات.

ونشر المقتطف نص حديث الصحفي الأمريكي "لسكربورا" مع أديسن نقلاً عن مجلة "السنتفك أمريكان" وجاء فيه:

"إن أديسن الذي استنبط المصباح الكهربائي والفونغراف والصور المتحركة وبطارية النيكل والحديد والدينامو الكامل وغيرها من المكتشفات والمخترعات التي تدخل أعمالنا اليومية سيوجه سعيه وجهده إلى أمر يفوق كل اكتشاف واختراع بما لا يقاس. فإن في العالم نحو 1500 مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلاً أو آجلاً ولكنهم يجهلون كل الجهل مصيرهم بعده. ومثل ذلك يقال عن مجيئنا إلى هذه الدنيا. وعليه فالحياة والموت لا يزالان سرًا من الأسرار ولغزًا من الألغاز التي لم يفتح بها على مخلوق.

منذ بضع أسابيع شاع أن هذا المخترع العظيم يعد طريقة أو آلة لمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود إلى وجود آخر أو عالم آخر. فنشرت صحف أميركا وأوربا أن توماس أديسن اندمج في صفوف الروحانيين الذين بينهم الآن كثيرون من كبار العلماء والمؤلفين والمخترعين والطبيعيين والمهندسين ورجال الدين وغيرهم. ووصف الكتاب الفرنسيون الواسعو الخيال آلة أديسن بأنها محطة تلفونية أو مكتب تلغراف أو ما أشبه يقصدها الناس ليخاطبوا منها أرواح أحبائهم وأصدقائهم في العالم الآخر بطريقة عاجلة أكيدة.

وليس في الناس أحد أشد أسفًا من المستر أديسن على إذاعة أخبار مثل هذه. فقد قال لي في حديثي معه "إني لا أستطيع تصور شيء يسمونه الروح. تصور شيئًا لا ثقل له ولا صورة مادية ولا حجمًا. وبعبارة أخرى تصور غير شيء. أنا لا أستطيع أن أعتقد أن الأرواح يمكن أن ترى في أحوال معينة وتحرك الموائد أو تقرع عليها أو تعمل أعمالاً سخيفة مثل هذه وكل ما قيل من هذا القبيل حديث خرافة".

وأقول هنا إنه قابلني لإزالة ما علق بالأذهان من الإشاعات التي شاعت عن غرضه من البحث والتنقيب في هذا الموضوع. ولا تزال الآلة التي شاع أنه يصنعها في دور التجربة والامتحان. وقد طلب مني أن أعلن ما يأتي. قال:

فكرت منذ مدة في اختراع آلة أو أداة يمكن أن يستخدمها أو يؤثر فيها الذين غادروا هذا الوجود إلى وجود آخر أو عالم آخر. والآن اسمع وع ما أقول لك. أنا لا أدعي أن شخصياتنا تنتقل إلى وجود آخر أو منطقة أخرى. ولا ادعي علم شيء في هذا الموضوع لأني لا أعلم شيئًا فيه ولا أحد من الناس يعلم. ولكني أدعي أنه يمكن صنع آلة بالغة من الدقة مبلغًا بحيث إنه إذا كان أناس في عالم آخر يريدون مخاطبتنا في هذا العالم فإن هذه الآلة تكون أوفى بهذا الغرض من تحريك الموائد أو النقر عليها أو غير ذلك من الوسائل السخيفة المعروفة.

والحق يقال إن سخافة هذه الوسائل هي التي تحملني على الشك في صحة مناجاة الموتى التي يدعونها. فلست أدري لم يضيع الأشخاص الذين في العالم الآخر وقتهم في تحريك مثلث من الخشب على مائدة عليها حروف الهجاء. وما غرضهم من تحريك الموائد. هذا كله يظهر لي من الأعمال الصبيانية حتى لا أستطيع أن أبحث فيه بعين الجد والاهتمام. وعندي أنه إذا شئنا أن نتقدم تقدمًا حقيقيًا في البحث العقلي وجب أن نقدم عليه بالآلات العلمية وبالطرق العلمية كما نفعل في الطب والكهربائية والكيمياء وغيرها.

أما ما أريد أن أعمله فهو أن أجهز الباحثين في المباحث العقلية النفسية بآلة تلبس عملهم لباسًا علميًا. وهذه الآلة ستكون مثل مصراع أو تشبه مفتاحًا صغيرًا يستطيع به رجل واحد ضعيف القوة أن يفتح مصراعًا تدار به آلة قوتها 50 ألف حصان. وستكون آلتي على هذا المثال حتى أن أصغر قوة تكبر بها كثيرًا فتساعدنا على بحثنا. ولا أقول أكثر من ذلك عن ماهيتها. وقد مضت عليّ مدة وأنا أشتغل بتفاصيلها وكان

يعاونني في عملي هذا صديق فتوفي منذ حين. ولما كان يعلم ما أنا ساع إليه فالواجب أن يكون أول من يقدم على استعمال هذه الآلة إن استطاع ذلك.

واعلم أني لا أدعي أني أعلم شيئًا عن بقاء الشخصيات بعد الموت ولا أعد بمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود وإنما أقول إني ساع في تجهيز الباحثين النفسيين بآلة قد تساعدهم في عملهم كما يساعد الميكروسكوب رجال الطب في مباحثهم. وإذا عجزت هذه الآلة عن أن تكشف لنا شيئًا خارق العادة فإني أفقد كل ثقة وإيمان ببقاء الشخصيات بعد الموت كما تعرفه في هذا الوجود".

ومما يقال عن المستر أديسن أنه لا يصدق المذاهب المعروفة في الحياة والموت لأنه يعتقد أنها فاسدة الأساس. قال لي باسطًا مذهبه فيهما "عندي أن الحياة كالمادة غير قابلة للفناء. فقد كان في هذا العالم مقدار معين من الحياة على الدوام وسيبقى هذا المقدار كما هو على الدوام، فإنك لا تستطيع خلق الحياة ولا إبادتها ولا مضاعفاتها. وفي اعتقادي أن أجسامنا مركبة من ملايين من الكائنات المتناهية في صغرها وكل منها حي مفرد ويرتبط بعضها ببعض لتكوين الإنسان. ونحن نقول عن أنفسنا إن كلاً منا شخص واحد قائم بنفسه ونتكلم عن الهرة أو الفيل أو الحصان أو السمكة كأن كلاً منها فرد قائم برأسه ولكني أرى أن طريقة التفكير هذه فاسدة الأساس فإن هذه الأشياء كلها تظهر أنها بسيطة مفردة لأن الكائنات الحية التي تتألف منها أصغر من أن ترى حتى بأعظم المكبرات.

وقد يعترض على هذا الرأي بأنه إذا كانت هذه الكائنات صغيرة إلى هذا الحد فلا يمكن أن تكون مؤلفة من أعضاء مختلفة تستطيع القيام بالأعمال التي سأذكرها. فأقول في الرد على ذلك أنه لا حد لصغر الأشياء كما أنه لا حد لكبرها واكتشاف الإلكترون خير جواب على مثل هذا الاعتراض. فقد ظهر لي بالحساب أنه يمكن وجود حي متقن التركيب والتنظيم مؤلف من ملايين من الالكترونات الصغيرة التي لا ترى بما نعرف من المكبرات.

وهناك دلائل كثيرة تدل على أننا نحن الخلائق البشرية يتصرف كل منا تصرف جماعة من الأحياء
لا تصرف حي واحد. وهذا ما يحملني على الاعتقاد أن كلا منا يحتوي على ملايين من الأحياء وأن أجسامنا وعقولنا تمثل أفعال الكائنات التي تتألف منها.

ولننظر الآن في السبب الذي يحملني على القول إنه لا بد أن تكون أجسامنا مؤلفة من هذه الكائنات. خذ بصمة إبهامك كما يفعل البوليس في بصم أباهم المشبوهين ثم أزل خطوط إبهامك بحرقها بالنار. فمتى نما الجلد ثانية تجد أن خطوطه لم تتغير ألبتة عما كانت قبل احتراقه وقد امتحنت ذلك بنفسي حتى تحققته. هذا سر من الأسرار ما فتئ مغلقًا حتى الآن. تقول لي إن هذا عمل الطبيعة. فإن هذا جواب يراد به المحاولة لا غير إذ لا معنى له بل هو وسيلة لإسكات السائل بذكر كلمة فارغة مكان الجواب. إن كلمة "طبيعة"
ما أقنعتني قط. أما جوابي أنا فهو أن الجلد لم ينبت ثانية كما كان أولاً بمجرد الاتفاق بل إن هناك من وضع رسوم النمو الثاني وعني بمطابقته لرسوم النمو الأول من كل وجه. وأنت لا تعلم شيئًا من تلك الرسوم وعليه فإن دماغك لم يشترك في هذا العمل. وهنا تدخل الكائنات المشار إليها وتشترك في العمل. وأنا أعتقد جدًّا الاعتقاد أنها تحوك نسيج جلد الإبهام بمزيد العناية مستعينة على رسم التفاصيل الدقيقة بذاكرتها العجيبة.

ولزيادة الإيضاح أقول. لنفرض أن كائنًا من سكان المريخ هبط إلى هذه الأرض. ولنفرض أن بصره ليس دقيقًا كبصرنا وأن أصغر شيء يمكنه أن يراه بعينيه هو جسر (كوبري) مثل جسر بروكلين وعليه فإنه لا يرى أجسامنا وقد يحسب الجسر المذكور شيئًا طبيعيًا كما نحسب نحن العشب أو الرمل أو المعادن وغيرها من الأشياء
الطبيعية. ولنفرض أن هدم جسر بروكلين وذهب ثم عاد بعد سنين فمرَّ من هناك فوجد جسرًا جديدًا مكان القديم وعلى مثاله أو إلى افتراض أن مد ثانية بفعل فاعل عاقل. لا ريب أن الفرض الثاني أقرب إلى العقل.

هذا هو الموقف الذي يجب أن نقفه نحن بإزاء الكائنات الحيوية. والمسألة كلها مجرد إفتراض وتخمين كما لا يخفى. فقد يكون 95 في المائة من تلك الكائنات التي تتألف أجسامنا منها عمالاً والخمسة الباقية مديرة للعمل وقد تكون غير ذلك. ومهما يكن الأمر فإن مجموعها هو الذي يكون شكل أجسامنا الطبيعي وصفاتنا العقلية وشخصياتنا وما أشبه ذلك.

وهذه الكائنات هي الحياة بعينها وهي لا تفتأ تعمل وترمم أنسجة أجسامنا وتشرف على وظائف أعضائنا. فإذا أصيب الجسم بطارئ أفضى إلى موته كأن يكون مرضًا عضالاً أو عارضًا أو هرمًا فإن هذه الكائنات تفارقه ولا تترك وراءها إلا بناء خاويًا خاليًا. ولما كانت عمالاً لا تكل ولا تمل فإما أن تدخل جسم إنسان آخر أو تبدأ العمل في صورة أخرى من صور الحياة وأشكالها. وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذه الكائنات محدودة العدد وهي نفسها عملت كل شيء في عالمنا هذا ولكن تعدد التراكيب التي تتألف منها هو الذي أوقعنا في الخطأ فحسبنا أن لكل مولود حياة جديدة.

وهذه الكائنات خالدة لا تموت فإنك لا تستطيع إفناءها كما لا تستطيع إفناء المادة وجهد ما هناك أنك تستطيع تغيير صورة المادة لا غير. فقد كان مقدار الذهب والحديد والكبريت والأكسجين وغيرها في بدء العالم كما هو الآن بلا زيادة ولا نقصان. نعم إننا نستطيع التغيير في تركيب مركبات هذه العناصر ولكننا لم نظفر بتغير نسبها بعضها إلى بعض.

وهذا هو حال الكائنات الحيوية فإننا لا نستطيع إفناءها بل نغير صورها وأشكالها. وقدرتها متعددة الضروب حتى يصعب علينا تمييز أعمالنا في كل الأحوال. وعليه لم يستطع العلماء حتى الآن أن يرسموا حدًا بين الأشياء الحية وغير الحية. وقد يكون أن هذه الكائنات تمتد إلى الجماد وتعمل فيه وإلا فما هو الشيء الذي يجعل البلورات تتكون على أشكال هندسية محدودة.

والآن نأتي إلى مسألة الشخصية. أنت لسكربورا (اسم الكاتب) وأنا أديسن لأن في كل منا مجموعًا من الكائنات يختلف عن مجموع الآخر. فقد أثبت الطب باثنتين وثمانين عملية جراحية شهيرة عملت حتى الآن أن مركز شخصيتنا هو في تلفيف من تلافيف الدماغ اسمه تلفيف "بروكا". ومن العقل والصواب أن نفرض أن مركز مقر الكائنات التي تدير حركاتنا وتشرف عليها إنما هو في ذلك التلفيف. فهو الذي يشعرنا بالتأثيرات العقلية وبشخصيتنا.

ولقد قلت إن ما نسميه الموت إنما هو مفارقة تلك الكائنات لأبداننا. والمسألة كلها في زعمي هي مسألة ما يجري للكائنات المرشدة التي مقرها في تلفيف "بروكا". إذ المعقول أن الكائنات الأخرى التي تعمل عملاً ميكانيكيًا في أجسامنا تتشتت وتذهب في جهات مختلفة طلبًا للعمل فيها. أما الكائنات التي تتكون منها شخصيتنا فتكون أنت بها لسكربورا وأكون أنا أديسن ويكون زيدٌ زيدًا فماذا يجري بها. هل تبقى مجموعة واحدة أو تتفرق في الكون طالبة العمل منفردة لا مجتمعة. فإن كانت تتفرق فإن شخصيتنا
لا تبقى بعد الموت. فقد تقدم القول إن هذه الكائنات تعيش إلى الأبد وتمنحنا الخلود الذي يرجوه كثير منا ولكن إن كانت تتفرق ثم تتحد بكائنات أخرى لتؤلف أجسامًا جديدة منها فإن ذلك يضيع علينا شخصيتنا والخلود الذي نرجوه أي خلود تلك الشخصيات بعينها.

ولي الرجاء أن شخصياتنا تبقى. فإن كانت تبقى فإن الآلة التي أنا ساع في اختراعها لا بد أن تفيدنا. وهذا ما يحدو بي على الانهماك بعملها وإخراجها على غاية من الدقة. وإني أنتظر النتيجة بذاهب الصبر".

هذا ما جاء في كتاب المقتطف "رسائل الأرواح" والذي صدر عام 1928 ولم نعد نسمع شيئًا عن محاولة أديسن، ولعلها أبرز المحاولات التي فشل فيها، لأن مجالها يجاوز عبقريته، وهو بالنسبة للمسلمين أمر مفهوم، ولكنه قد يكون لدى غيرهم دليلاً على عدم وجود الأرواح...

ماذا رأت شيرلي ماكلين؟

شيرلي ماكلين، كما قد يعرف بعض القراء، راقصة ومغنية وممثلة أمريكية رزقت شهرة مدوية في هذه المجالات خلال الستينات، وقد يعجب البعض أن نزج بها في كتاب إسلامي، ولكن المؤمن قد يضع صدقته في يد بغي ويثاب عليها، وشعارنا الذي نردده دائمًا، هو "المقولة" لا "القائل" فلا يهمنا القائل، وإنما تهمنا مقولته. فإذا كانت مقولته صائبة، فلا يعنينا القائل في شيء. وقد قامت شيرلي ماكلين برحلات عديدة إلى آسيا، وأفريقيا وقد ألفت عددًا من الكتب ومعظمها من أكثر الكتب انتشارًا، والكتاب الذي نقتبس منه إشارتنا يتضمن صفحات عديدة عن حياتها الخاصة وغرامها ورواياتها وأغنياتها مما لا يهمنا هنا، ولكنه تضمن أيضًا وصفًا دقيقًا لتجارب روحية، ومناقشة علمية لها استشهدت فيها بشواهد من أينشتين وغيره، بل ظهر أنها اطلعت على أبحاث عالم المخ" ويلدر بنفيلد" الذي استشهدنا به في إحدى الفقرات السابقة في هذا الفصل وهذا القسم هو ما يهمنا هنا. وما نرى فيه إضافة جديدة للموضوع خاصة وأن جزءًا منها يتفق تمامًا مع بعض ما جاء في القرآن الكريم.

وكتابها الذي نشير إليه هو "الرقص في الضياء Dancing in Light.

تقول شيرلي ماكلين إنها ذهبت إلى سانتا في (المكسيك) لتعالج على يدي سيدة متخصصة في العلاج النفسي عن طريق الإبر الصينية الذهبية تدعى "كريست جريسكون" تقوم على أساس أن وخز بعض المناطق الحساسة أو الخلايا يطلق ذاكرة الخلية فتطرح ما مر بها من تجربة. وهي تؤمن أن كل ما يحدث لنفس الإنسان ينطبع على جسده، وتحتفظ خلاياه به. فإذا وضعت الإبر في مواضع معينة مثل منطقة العين الثالثة وهي وسط الجبهة، أو وراء الأذنين أو على الكتفين يمينًا ويسارًا، فإن الإنسان يستعيد مشاهد من حياته الماضية إذ تبدأ الصور تظهر أمام "عين عقله" بقدر ما تثيرها الإبر. وأكدت الطبيبة أن هذه الصور ليست خيالاً صوره عقلها، ولكنها تجارب سابقة. وإن طاقة الجسم الإنساني مثل الموجات الكهربائية – المغناطيسية (إلكتروماجيك) وأنها تنطلق من الجسم والعقل.

وقد يمكن للذين يتقدمون روحيًا الاتصال بهذه الموجات كما يحدث في جهاز راديو.

وأمضت شيرلي ماكلين جلستين طويلتين كانت في حالة لا تشبه أبدًا التنويم المغناطيسي، إذ كانت تشعر أنها تتلقى وتلاحظ في الوقت نفسه، وأنها تعمل على مستويين من الوعي في وقت واحد.

في الجلسة الأولى، وبعد وضع الإبر في أماكنها، وبعد فترة من الاسترخاء أخذت الصور تتراءى. فرأت مرة سيدة مصرية قديمة تلبس رداءًا ذهبيًا أرجوانيًا وكأنها ملكة، ثم رأت أفريقية فقيرة تبكي وعلى صدرها طفلة جائعة، ثم رأت رياضيًا يونانيًا أو رومانيًا قوي الجسم يجري برأس مرفوعة.. ورأت في هذا كله صورة لأمها في عصور مختلفة، ثم رأت هرمًا من الكريستال يبرز من البحر شرقي الولايات المتحدة، يلمع في الشمس، وتحس أن الجو رطب وأن حبيبات من الرطوبة تغلف الهواء، ورأت أبوابًا من الكريستال وأبهاء وقاعات كلها خالية وسط صحراء بلقع، ثم تغير المنظر فرأت حدائق وأنهار ونافورات وقصورًا من الكريستال، وأناس يذهبون ويجيئون، وحيوانات وطيور، وبدا وكأنهم يتخاطبون بطريقة غير محسوسة، والألوان برتقالية ووردية، كأنها قوس قزح، وسألت طبيبتها فقالت لها إن ما تراه هو "أتلانتس" قبل أن تندثر، وإن الكريستال خاصة إذا استخدم في لباس الرأس يساعد على الاتصال بالوعي الأعلى. وأن الصورة التي شاهدتها عند الأبواب المهجورة هي لها بعد اندثارها، وإن هذا يمكن أن يحدث لحضارتنا.

وكانت شيرلي ماكلين خلال الجلسة، وكذلك خلال الجلسة الثانية تخاطب الطبيبة عما ترى فتسألها فترد عليها الرد المناسب.

وفي الجلسة الثانية وبعد غرس إبرة إضافية في منطقة الحنجرة، وبعد بعض التعب شاهدت شيرلي صورة لشخص أقرب إلى الرجولة منه إلى الأنوثة. قويًا، جميلاً

ودودًا، وعندما سألته من هو قال لها "أنا أنت! أنا نفسك الأعلى Higher Self. ودار حديث طويل بدا فيه وكأنه روحها، أو نفسها مجسمة، وقال إن صورته أقرب إلى الذكورة منها إلى الأنوثة، لأن الذكورة إيجابية والأنوثة سلبية، الذكورة تعطي، والأنوثة تتلقى (وقد كان في هذا الرد ما أقنع شيرلي ماكلين عن تساؤل كان يخطر لها دائمًا، لماذا كان الأنبياء جميعًا ذكورًا ولم يكن منهم نساء) وسألت شيرلي "نفسها الأعلى" عما إذا كان يمكنه أن يوقف اهتزاز أغصان شجرة تراءت لها من النافذة، فقال لها "اطلبي منها الإذن أولاً" وقالت "وهل تحس الشجرة؟ فقال لها "إن كل صور الحياة تنبض بالشعور. وسألت شيرلي الشجرة أن توقف أغصانها عن الاهتزاز. وبعد فترة قصيرة سكنت الأغصان دون أي حركة أو نأمة..

قد يكون في هذا كله شيء من الهلوسة والخلط، ومعروف أن عالم الأرواح حافل بالأرواح الشريرة والطيبة على السواء، ولكن هذا لا ينفي أمرين يستحقان النظر في كتاب شيرلي، وصفحاته تنوف على أربعمائة. الأول أن بعض ما جاء فيها يتفق مع ما جاء به القرآن. فهي تؤمن أن كل خلية من خلايا أعضاء الجسم لها ذاكرة ويمكن أن تطلق ما عرض لها من تجربة.. "أخذت أنظر إلى ساقي وقدمي في البانيو وأقول إن لهما ذاكرة خاصة بهما".

إن هذا قريب جدًا مما جاء في القرآن الكريم من شهادة الأيدي والأرجل والجلود على أصحابها يوم القيامة ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (21 – 20 فصلت)

وكذلك ما جاء عن الشجرة، أنها تؤكد أن ما من شيء إلا يسبح الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وثمة فقرة تذكر الإنسان بحديث "إن الميت يعذب ببكاء أهله الذي اختلف فيه المحدثون". وهي تتعلق بزميل لها يدعي كريستوفر. كان في الثلاثين من عمره عندما أصيب بالسرطان وتنبأ له الأطباء بالموت الوشيك. ولكن شيرلي ماكلين أخذت تحثه على التشبث بالحياة، وتبعد عنه فكرة الموت عندما ظهر لها "نفسها الأعلى" وخاطبها غاضبًا "لماذا ترين لنفسك الحق في الإصرار على بقاء كريستوفر حيا بالجسم، عندما يكون أمامه ما يشغله في الأبعاد العليا، أنت تعلمين أنه لن يموت حقًا فدعيه يمضي لطيته. إن أحدًا من الناس لا يمكن أن يعلم ماذا يريد الآخر أو ماذا يعمله.."

فأجابته أن كريستوفر يريد أن يحيا بالبدن فقال لها إن جزءًا منه فحسب هو الذي يريد هذا – ولكن "نفسه الأعلى" يريده. وأنت لا تفهمين هذا لأنك إنما تقدرين الحياة في البدن. فدعيه يمضي في هدوء.

بعد هذا كفت عن أن تشجع زميلها، أو تأسى له، وبعد ستة أسابيع عندما آوت إلى فراشها مبكرة أحست بشعاع من نور كأنه نسيم. فظنت أن الشمس قد أشرقت، ولكن الظلام كان مطبقًا على الغرفة. ومع هذا ظلت تحس بالنور في رأسها وكانت تشعر أنه يحيط بها. فعلمت أن كريستوفر قد مات. وعندما تلقت مكالمة تليفونية بعد ذلك بموته قالت لمحدثها "لقد علمت بالفعل..".

والثاني تأملاتها الخاصة فيما انتهى إليه تطور علوم الطبيعة (الفيزياء) خاصة بعد نظرية الكوانتم التي كانت أشبه بصدمة هزت وزلزلت كيان الرياضات السابقة عليها وتطورت حتى أوجدتها عالمًا جديدًا أبرز ما فيه "الوعي" الذي لا يقتصر على الإنسان، ولكن على كل شيء، بما في ذلك جزئيات ما تحت المادة subatomic Particles والفوتون Photon وأن الكون من ناحية محكوم بقوانين دقيقة تضبط حركات الأجرام السماوية.. ولكنه من ناحية أخرى يرفض "الميكانيكية" فتظهر خوارق وسلوكيات تنم عن إرادة لا تخضع للقوانين العليا التي تحكم الكون، ويمكن أن تفسر من مدخل صوفي أكثر مما تفسر بمدخل علمي، إذ أنه لا يوجد علم مضبوط exact Science على ما قال ورنر هيزنبورج صاحب نظرية "اللاحتمية" وأن رياضيات الكوانتم تقودنا إلى المكان الوحيد الذي علينا أن نذهب إليه وهو "أنفسنا".

وأشارت شيرلي إلى أن بعض كهنة "اللاما" كانوا يثقبون في الماء المتجمد ثغرة يدخلون فيها. ويتأملون حتى يذوب الثلج ويتصاعد البخار من أجسامهم. وقالوا ببساطة إنهم كثفوا أو استحثوا الطاقة الإليكتروماجيك للذرات داخل أجسامهم. وهم يقولون إن معدل الطاقة الإليكتروماجيك يمكن أن تغير من طبيعة الأشياء الثابتة كحرق النار أو تجمد الثلج، فليس هناك قوانين ثابتة بالنسبة للوعي.

والفكرة الرئيسية التي تسيطر على شيرلي ماكلين هي اتفاق العلم والدين بالنسبة لقضية الروح والله تعالى وهي تؤمن إيمانًا لا يخالجه شك في وجود الله تعالى وخلود الروح. وإيمانها ينبثق من العلم والدين معًا، وهي تأخذ منطلقها من الطاقة التي يمكن أن تكون وعيًا وروحًا كما يمكن عندما تتجمد أن تصبح مادة وجسمًا. وهي تؤمن أن رجل العلم ورجل الدين سيتلاقيان عند قمة جبل المعرفة يومًا ما. لأن مدخل كل واحد منهما وإن اختلف في الوسيلة فهو يستهدف هدفًا واحدًا هو الحقيقة وبهذا يكملان بعضهما بعضًا. والدين عقيدة دون علم والعلم برهان دون عقيدة والمدخل الروحي لحقائق الكون وما فيه من اتساق يعترف بالأبعاد غير المرئية داخل وعينا، والمدخل العلمي يعترف بالأبعاد نفسها من خارجنا. وقد قارب العلم الحديث أن يقول إنهما شيء واحد. وإن الوعي يجمعهما.. وإن المدخلين ضروريان للمعرفة الشاملة.

السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ المسلم بعد قراءة ما جاء عن عالم الأرواح هو "أين الإسلام في هذا؟" بمعنى أن عالم الأرواح، كما عرضناه، لا يفرق بين مسلمين، وغير مسلمين، ومعظم ما أوردناه، أو كل ما أوردناه هو عن أقوال أوربيين مثل ما شاهدته شيرلي ماكلين، وما قامت به الجمعية العلمية في بريطانيا، وهي كلها لا تشير إلى أي أثر للأديان سواء كانت مسيحية أو إسلامية.

وقد يرى البعض أن ما أوردناه، وإن كان يثبت خلود الروح، فإنه يضع علامة استفهام كبرى عن مدى تجاوب ذلك مع التراث الإسلامي والمفهوم التقليدي لعالم ما بعد الموت.. وهي شبهة قوية، ويمكن ألا تقتصر على المسلمين، ولكنها تمتد إلى المؤمنين بالأديان الأخرى.. ولا بد من تصفيتها لأنها تمثل أحد الرواسب العميقة في نفوس المؤمنين على اختلاف أديانهم.

فالسبب الأول لها يعود إلى ما قرره القرآن ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ فالإنسان تغلب عليه الأثرة والأنانية وضيق الأفق والانطلاق من منطلق ذاتي فلا يرى لغيره، وبالأكثر لغير المؤمنين بدينه، حقًا في رحمة الله أو دركًا لمغفرته مع أن أنبياء هذه الديانات على اختلافهم التمسوا من الله تعالى الرحمة للمخالفين، فهذا إبراهيم يقول﴿ ومن عصاني فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وهذا رسولنا محمد "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".. وكما سنشير في موضع لاحق فإنهم يطلبون الرحمة والعفو لمن هم أشد الناس استحقاقًا للعقاب لأنهم الذين عارضوا أو خالفوا الرسل وجهًا لوجه وبصورة مباشرة.

ولكن أين فهم الأتباع من فهم الأنبياء. إن من العسير على الأتباع أن يفهموا أن رحمة الله تسع المخالفين لأنهم يوزعونها بمقاييسهم ونفسياتهم..

وهناك بعد ما ينساه أصحاب الأديان، ألا عقاب إلا برسول ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾.. وأمريكا وأوربا لا تعرف رسالة الرسول العربي، ولم تقرأ أو تسمع القرآن. وما لدى بعضها من معلومات عن الإسلام هي معلومات مشوهة، وواقع المسلمين يجعلهم "فتنة" للأوربيين تبعدهم عن الإسلام فكيف يطبق على هؤلاء معايير المسلمين الذين يقرءون القرآن، أو يتلى عليهم القرآن.. ليل نهار..

فإذا حوسب هؤلاء فعلى أساس المسيحية التي هي ديانتهم، وتظل ديانتهم حتى تبلغهم رسالة الإسلام "كالمحجة البيضاء".

ومعظم هؤلاء يؤمنون بإله واحد ولا يفقهون من لاهوت التثليث الكنسي شيئًا، وحتى الذين ينظرون منهم إلى المسيح كابن الله فباعتبار المعنى المجازي الذي قد يؤديه الأثر "الناس عيال الله".

وقد تكون أخلاق هؤلاء أقرب إلى خلق الإسلام من كثير من المسلمين، ومعاملاتهم أشد إتقانًا، ونظمهم السياسية أقرب إلى القيم الأدبية والمعنوية التي هي في أصل الأديان جميعًا، فحتى لو أعطينا أنفسنا سلطة الحكم، فإن كفتهم قد لا تكون المرجوحة.

وقد عالج الغزالي وضع الناس بعد بعثة الرسول فقال إنهم أصناف ثلاثة:

من لم تبلغهم دعوته. ولم يسمعوا به أصلاً. أولئك مقطوع لهم الجنة.

من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه وما كان عليه من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة. ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا. أولئك مقطوع لهم النار.

من بلغتهم دعوته لله، وسمعوا به، ولم يمتثلوا أوامره ونواهيه. وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان به.

ويشرح الشيخ عبد العال شاهين الفقرة الأخيرة فيقول "يريد الغزالي بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارًا مكذوبة وعن دينه أخبارًا لا تنطبق على حقيقته كالتشويه في أخبار الرسول أنه مزواج مطلاق. وأن دينه دين وثنية لأنه كان يسجد للكعبة. وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه إلى بيت المقدس إلى نحو ذلك مما يقولون. وهم لا يعقلون إلا ترهات وأباطيل"([61]).

وكلام الغزالي صريح في أن من لم تبلغه دعوته، ولم يسمعوا به أصلاً "مقطوع لهم الجنة" "ومعظم الأوربيين والأمريكيين والآسيويين (من هنود أو صينيين أو يابانيين) يدخلون في هؤلاء إذا لم يدخلوا في الفئة الثالثة التي "يرجو لها الجنة".

فالقضية محلولة.. وعلى المسلمين أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا غيرهم. وليدعوا غيرهم إلى الله لأنه تعالى هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

خاتمة الفصل:

توصلت البحوث العلمية الأخيرة إلى وجود "روح" أو "عقل أو "إرادة" أو "وعي" لا يفنى بفناء الجسد المادي، كما أن التجارب الروحية وقفت على حافة العالم الأثيري الغامض الذي تختلط فيه الحقيقة بالوهم، وأظهرت أطيافًا للروح لها حقيقة ما، وإن صعب تعينها على وجه التحديد، ولم يكن من هذا مناص، وقد قال القرآن الكريم وهو يشير إلى الروح ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾

وأظهرت التجارب أن العلم في هذا المجال يتحسس طريقه، وأنه يحاول التعرف على حقائق مرحلة متقدمة في حين أنه لم يحل مشاكل سابقة عليها، أو يصل فيها إلى تقرير حاسم، فحتى الآن نحن لا نعرف تمامًا ما هي الحياة، فنحن على سبيل المثال – لا تعرف ما إذا كان الفيروس حيًا أو غير حي لأن الفيروس لا يتنفس، ولا يأكل ولا يشرب، ثم إنه قد يتحول إلى ملح أو بللورات تذوب في الماء كما يذوب السكر مثلاً، ولم نشهد كائنًا واحدًا يمكن أن تكون له مثل هذه الصفات ثم نضعه في قائمة الأحياء.. فهو إذن جزئيات ميتة، ولكن قولك إن الفيروس ميت خطأ أيضًا، لأن الفيروس يتكاثر وتصبح له ذرية، وهذه صفة مميزة من صفات الحياة، لكن تكاثر الفيروس لا يتم إلا إذا استعار روح غيره، بمعنى أنه يدخل خلية يهواها، وبالخطة الوراثية الكامنة على شريط أو جزئية الوراثي يعرف كيف يستعبدها ويستعمرها فيأمرها بتشغيل أجهزتها الحيوية لحسابه، فتأكل له وتتنفس له، وتصنع له "حياته" وذريته على حساب حياتها هي، ولكي تبعث ذرية بالعشرات أو المئات من داخلها كان لا بد أن تموت هي ليخرج هو.. ليس كفيروس واحد بل فيروسات كثيرة لتسلك سلوك الأموات، فإذا عادت إلى الخلية دبت فيها بعض خصال الأحياء.

---

[61] **(?) جريدة الجمهورية في يوم 5/7/1984.**

وقل مثل هذا عن الطاقة والمادة، والموت والحياة، كما أننا أحيانًا لا نستطيع أن نحدد إن كانت بعض المخلوقات نباتات أو حيوانات، فهناك كائنات أولية بسيطة لا ترى إلا بالميكروسكوبات، وعندما تنظر إليها تريد بذلك تصنيفها أو وضعها في مملكتها الصحيحة، عندئذ لا تستطيع أن تحدد ذلك. ففيها صفات النبات جنبًا إلى جنب صفات الحيوان. ومن أجل هذا ترى علماء النبات يضعونها في كتبهم ومراجعهم، وكذلك يكون الحال مع علماء الحيوان، فهي نبات في حيوان أو حيوان في نبات([62]).

ولم يتصور الإنسان حياة نشطة في غير الصورة العضوية التي تقوم على لحم ودم سواء كان في الإنسان أو الحيوان أو الطيور أو الأسماك. ولكن الإسلام يحدثنا عن مخلوقات من نور كالملائكة. وعن شياطين "من مارج من نار".

فالدين أوسع آفاقًا من العلم في هذا المجال، وبالطبع فنحن لا نعلم شيئًا عن حياة مخلوقات من نور أو نار. ولكن المهم أن الصورة العضوية ليست هي الصورة الوحيدة للحياة، التي يتصورها الإنسان، والتي جعلته عندما يتصور مخلوقات فضائية يعطيها صورة قريبة من صورته، وإن تفاوتت طولاً وعرضًا، الأمر الذي يوضح أن الإنسان رغم كل تقدمه فإنه لم يستطع تصور حياة مختلفة عن حياته الخاصة.

فإذا كنا لا نعرف الحياة تمامًا، فنحن أيضًا لا نعرف الموت تمامًا وهل هو "نوم طويل بدون أحلام" – إن النائم المسجى على سريره هو – إلى حد ما – كالميت الممدد في كفنه فلا هو يسير، أو يتكلم أو يأكل أو يشرب أو يمارس نشاطًا مما يمارسه الإنسان في حياته، ولا يملك قوة تدفع عنه الأذى والفرق الأعظم بين الموت.. والنوم.. هي اليقظة في الصباح ففي حالة الموت، لا يأتي هذا الصباح – كما يتصور المنكرون للبعث – أو يأتي بعد فترة – قد تكون ألوف السنين، عند البعث، ولكنها بالنسبة للميت عندما يبعث "يومًا أو بعض يوم" لأن مدلول الزمن مفقود في حالتي النوم.. والموت...

وفي هذا النوم، والعيون مغلقة، والبطاطين مسدلة، ترينا الأحلام عالمًا سحريًا.. رجالا، ونساء، وبلادا وحيوانات، وحوادث.. ويقولون إنها "العقل الباطن". وهل يرى العقل الباطن ويقطع المسافات ويؤلف الروايات، ويظهر للعين المغلقة الرؤى والمشاهد. دع عنك صدق كثير من الأحلام، سواء في المستقبل أو الماضي. وهي حالات متواترة في الشرق والغرب. في الحديث والقديم -... وقد أجاز أبو بكر وصية ثابت بن قيس التي ذكرها في المنام لأحد إخوانه. وهي واقعة مؤكدة، ومذكورة في معظم كتب الحديث([63]).

ولقد يبدو قياس الموت على النوم فجًا، ولكن الظواهر التي تكتنف الزمن تسمح لنا به، بل وتجاوزه، كما أن حقيقة أن المادة طاقة مختزنة محبوسة، وأن الطاقة مادة متحررة منطلقة، جعل التحول من مادة إلى طاقة – أو العكس – ليس مستحيلاً من الناحية النظرية، حتى في صورة لا تكاد تصدق. وقد نال مدرس مصري درجة الدكتوراه من كلية الهندسة حول ذلك الموضوع ويومها قال إنه نظريًا يمكن إرسال إنسان باللاسلكي بواسطة جهاز إلى أمريكا في جزء من الثانية واستقباله هناك بجهاز آخر يعيده بشرًا سويًا"([64]). "وقال بعض علماء الطبيعة: إننا لو تصورنا إنسانًا

---

62 **(?) انظر مقالًا بعنوان "الحائرون الثلاثة" بقلم الدكتور عبد المنعم صالح في مجلة العربي - العدد 232 - مارس 1978 - ص 39.**

63 **(?) انظر على سبيل المثال " سر الروح للإمام البقاعي الشافعي" وكان ثابت قد قتل يوم اليمامة وعليه درع نفيسة، فمر بل رجل من المسلمين. فأخذها. فجاء ثابت لرجل من المسلمين في المنام وقال له "أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه" ثم وصف له مكان درعه، وأين خبأها من أخذها – ثم أوصاه إذا قدم على أبي بكر بالمدينة أن يسد دينه وأن يحرر بعض عبيده إلخ.." فأخبر الرجل خالدًا فأرسل فأحضر الدرع ثم لما ذهب الرجل إلى المدينة ذكر لأبي بكر رؤياه فأجاز أبو بكر ما جاء بها وقالوا: "لا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس".**

64 **(?) انظر مقالًا في العدد 1256 من مجلة صباح الخير في 31/1/1980 "استعدوا للسفر في الفضاء". ص 50.**

يعيش على أحد الأجرام السماوية التي تبعد عن الأرض أربعة آلاف سنة ضوئية، ولو تصورناه يملك منظارًا ضخمًا يمكنه أن يرى ما يجري على الأرض لاستطاع هذا الإنسان أن يرى الآن في هذه الساعة الحوادث التي كانت تجري على الأرض منذ أربعة آلاف سنة – أي لرأى المصريين القدماء وهم يبنون معبد الكرنك أو لرأى تحتمس أو رمسيس الثاني وهما يخوضان معاركها في كادش ومجدو"([65]).

وثمة ظاهرة طبيعية معروفة تدعى "الانسلاخ" Metamorphosis تحدث لبيضة دودة القز "التي تنقف عن دويدة صغيرة تنمو حتى تصير يسروعًا يلتهم أضعاف وزنه من ورق التوت الغض، فإذا بلغ أشده واكتمل حجمه فكان حوالي ثلاث بوصات طولاً – تأبى وأمسك عن وليمته تلك، وحل بسلوكه تحول ظاهر، يرفع رأسه ويمضي متراوحًا قدمًا طورًا، ورجعًا آخر، وما يلبث أن يمج من مغزال في فكه الأسفل خيطًا حريريًا دقيقًا يثبته إلى غصين أو حامل آخر راسخ مطمئن، ومن ثمة يأخذ في الغزل التفافًا ثم التفافًا في دورة على صورة الرقم الأفرنجي 8 بضعة أيام، فيقيم من حول نفسه كسوة طول خيوطها ألف ياردة أو أكثر من حرير ثمين حتى يصبح محويًا في داخل فيلجة بيضاء.

ثم يخيم السكون المطلق، ويظهر اليسروع بمظهر المأخوذ بالنعاس ملفوفًا في كفن من الحرير.. قد أسمي هذه الحال نوعًا من النوم، ولكن في داخل حشوته البدنية، تبدأ استحالة من نوع باهر عجيب، فإن كثيرًا من أعضائه وأنسجته تأخذ في التقشر ثم تنبذ، ومن مادتها تتخلق أبنية جديدة مختلفة تمامًا عن أصلها، هي أعضاء البعوضة المجنحة، كما لو أن هذا الكائن العضوي هو في جملته حيوانان مختلفان خلق الثاني من الأنقاض البدنية المتخلفة عن الأول([66]) ".

فهل هناك ما هو أكثر إثارة للدهشة والعجب من أن يتحول اليسروع المكفن في فيلجة بيضاء من الحرير إلى بعوضة مجنحة تنطلق في الفضاء؟ إنه ليروق للإنسان أن يتصور أرواح الشهداء هكذا وقد انطلقت من أجسامهم حتى تتعلق بأطيار الجنة.

إننا لا نستطيع أن نجزم بعدم وجود أرواح، بل نحن نجزم بوجودها، ولكننا لا نستطيع أن نعرف عنها المعرفة المحددة التي تتشهاها الطلعة الإنسانية. أو يرتضيها العلم ومقاييسه، وكما قلنا، فإنه لم يكن من هذا بد.. لأن الروح تظل من أمر الله، ويظل علمنا مهما كثر.. قليلاً أمامها.. وعلينا أن نقنع بالمبدأ العام الرئيسي الذي يمكن.. لولا التعنت والتمحك.. أن تتلاقى عليه العقلانية والإسلام. وهو خلود الأرواح – ولكن دون معرفة دقيقة لحالها..

وقد يقنعنا في هذه الحياة الدنيا أن ما كنا نحبه في من فقدناهم من أم أو زوجة أو ابن أو أب، وما كان يذكرنا بهم ويأخذ بألبابنا من حركة وسكنة، ونغمة في الصوت وومضة في العين "ولازمة" عند القول أو العمل، بل حتى ملامح الوجه واتساق الأعضاء.. إلخ إن هذه أصلها صفات والصفات لا تموت بموت أعزائنا.. ويمكن أن نحتفظ بحبنا لها، ويمكن أن نتلمسها في آخرين – كنوع من الإحياء لها – ويمكن أن يكون حبنا لهذه الصفات معبرًا ما بين الحياة والموت.

قال أحد الكتاب:

"كان لأمي تأثير كبير جدًا في حياتي، فقد كنت أحبها: أحب كل ملامح وجهها، وأنغام صوتها، ولمحات عينيها، ثم انتبهت ذات يوم إلى أن ما كنت أراه فيها ليس هو ذاتيتها، وأن صفاتها الحقيقية هو ما فيها من حب وعطف ورحمة، وهذه الصفات ليست ما يرى بالعين".

---

65 **(?) الإسلام ورسوله بلغة العصر للأستاذ أحمد حسين ص 88.**
66 **(?) حياة الروح في ضوء العلم ص 54.**

الفصل التاسع
الدار الآخرة: الجنة والنار

يصل تجهم العقلانية للدين إلى غايته عند ذكر الحياة الآخرة، وما تصطحب به من ثواب وعقاب وجنة ونار، فإن وجود جنة "عرضها السماوات والأرض" ونار تشوي الوجوه، هو أمر يصعب على العقلانية أن تسيغه، وما أيسر أن تقول مع الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

نعم ليس هناك ما هو أسهل من الإنكار ومن التخلي عن الإيجاب وما يتطلبه من إثبات.. ورغم الدهشة التي قد تمتلك النفوس، أول وهلة، من وجود دار آخرة، فهناك أكثر من مبرر أصولي واحد، يوجب إيجابًا وجود الدار الآخرة..

هناك غلبة الحياة على العدم، ولماذا نقبل فكرة الاندثار النهائي للحياة الإنسانية، وللجنس الإنساني وأديانه وفلسفاته وحضاراته.. وكأنها لم تكن، ولا نقبل إعادة لهذه الحياة بعد اندثارها.. إن الماديين أنفسهم يرفضون فكرة الاندثار. فعلماء الطبيعة يرون أن الطاقة لا تفنى، وإنما تغير نفسها، ولما لم تكن جامدة، فإنها تأخذ أشكالاً متفاوتة تتوالى من حياة إلى حياة، وعلماء الأحياء يذهبون إلى أن المادة
لا تفنى ويتحدثون عن "دورات الحياة" فالذين يموتون ويدفنون تتحلل أجسامهم إلى عناصرها الأولى بفعل الميكروبات التي تملأ التربة، ومن هذه العناصر تستمد الأشجار بفضل جذورها الضاربة في أعماق الأرض غذاءها الذي يمكن الأشجار بفضل عملية التمثيل الضوئي من أن تثمر ثمارها. وعلى هذه الثمار وما يماثلها من بقول أو خضر يعيش الحيوان والإنسان حتى يموت لتبدأ دورة جديدة من دورات الحياة بحيث جاز لكاتب أن يقول "فما يدريك بعد هذا أن جسم سقراط أو الإسكندر أو تيمورلنك قد توزعت عناصره بين شجرة وطائر وثعبان ودودة وحصان وآلاف أخرى من الأحياء: لقد إختفوا ظاهريًا في التراب كما اختفى غيرهم، ولكن عناصرهم دارت وتدور في أحياء أخرى.

وما يدريك أن الجسم البض الذي يتلوى أمامك على خشبة المسرح راقصًا رقصات تثير الإعجاب، ما يدريك أن عناصره كانت من قبل موزعة بين جراثيم وأميبيا وخنافس وسحالٍ وثعابين وديدان وخنازير وكلاب وغير ذلك. وقد تظنون أنني أقصد بهذا تناسخ الأرواح، ولكن ما هذا قصدت، بل أعني تلك العجلة الضخمة التي تدور بعناصر الأرض وبأحيائها، فتحيل التراب حياة والحياة ترابًا([67])".

فهذا نمط من "البعث" بالتعبير القرآني في صورة مادية وإذا كان الله تعالى قد وضع سننًا تجري بها هذه الدورات في صورة متكررة آلية غير محسوسة، وتحمل مع هذا صورة من صور الإعجاز والخلق، فما هي الغرابة في أن ينشئ الله نشأة أخرى يوم تبدل السماوات غير السماوات والأرض.. عندما يحدث عارض يودي بالكرة الأرضية أو يؤدي إلى فناء الجنس البشري عليها..

أما كيف يبعث الله تعالى العظام وهي رميم فهو السؤال الذي ردده المشركون في القديم، ويردده الماديون في الحديث، وقد رد عليه القرآن ردًا منطقيًا ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (78 يس)

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (27 الروم)

***

---

67 **(?) دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح – المكتبة الثقافية يناير 1963 – ص 50.**

وليس الإسلام وحده هو الذي يقول هذا الكلام، إن اليهودية والمسيحية تذهب إليه أيضًا وبنفس الألفاظ تقريبًا "فالقيامة" – وهو التعبير المسيحي للدار الآخرة لدى المسلمين – موضوع مقرر، ومقدس، وليس هناك ما هو أكثر تأثيرًا ولمسًا للنفس من عبارة "رقد على رجاء القيامة" التي نراها على شواهد قبور المسيحيين، أو نقرأها في صفحات الوفيات.

جاء في كتاب الخلود للدكتور سيد عويس:

وقد وجه العهد القديم النظر إلى القيامة. فقد جاء فيه "تحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنموا يا سكان التراب (إكو 15 – 13 – 24) وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظ هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور"، ولما لم يؤمن اليهود بهذا، وقالوا إن عظامنا قد صارت أرضا وفنيت "هاهم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. فقد انقطعنا، كانت الإجابة على ذلك.. قل لهم هكذا: قال السيد الرب: هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمت وأفعل" (حز 37: 12 – 14).

وقد أكثر كتبة العهد الجديد من ذكر القيامة المجيدة للأجساد إيذانا بمركزها العظيم بين المبادئ المسيحية وتعظيمًا لفوائدها. حيث وردت كلمة "قيامة" مع مشتقاتها نحوًا من مائة وإحدى وعشرين مرة. منها إحدى وعشرون تختص بالقيامة الوقتية، والمائة بالقيامة الأخيرة. هذا عدا مترادفاتها كالحياة وغيرها ومستلزماتها كالدينونة ونحوها.

وكان الرسل الأماجد في خطبهم العامة والخاصة، يجتهدون في أن يجلوا موضوع القيامة مقررين إياه بوضوح، كما أثبت ذلك "لوقا الإنجيلي" في سفر الأعمال. ففي خطابات "بطرس" الخمسة، قرر هذه الحقيقة عشر مرات، وفي خطابات "بولس" الستة، ذكرها في خمسة منها عشر مرات أيضًا، كما أن خطاباته التي ألقاها ولم يسجل نصها، كانت مرتكزة عليها. منها خطبه الثلاث التي ألقاها في مجمع تسالونيكي، كانت تعلن بوضوح هذه الحقيقة، "فدخل بولس إليهم (مجمع اليهود) حسب عادته وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب – موضحًا ومبينًا أنه كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات (1 ع 17: 2 – 3)، وكان موضوع بشراه في أثينا، نفس هذا الحق "يبشرهم بيسوع والقيامة (1 ع 17:18). ومن فحوى خطابه الخاص له "فيلكس" نرى أنه لم يغفل عن الإلمام إلى هذه الحقيقة بطريق الكناية "الدينونة العتيدة" (1 ع 24:35).

وما ذلك إلا لكون الرسل اعتبروا أن القيامة هي الموضوع الجوهري، الذي شعروا بمسئوليتهم نحوه بالشهادة الصريحة في كل حين بمنتهى الشجاعة والتضحية: "وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب، لذا أثبتوا في صلب قانون إيمانهم أن "أؤمن بقيام الجسد"[68].

والكيفية التي تبعث بها الأجساد في المسيحية قريبة من كيفية بعث الأجساد في الإسلام "فما أن ينفخ في البوق حتى تقوم الأجساد الميتة، وتسلم البحار الأموات الذين غرقوا فيها. وتتقرح الصخور والكهوف" وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم في الغابر وفي صخور الجبال" وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الأشرار من الأبرار فيقف الأبرار عن يمين الله، أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعًا إلى اليسار. ويكون مصير الأولين الحياة الأبدية، بينما يكون مصير الآخرين العذاب الأبدي أو النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته"(2).

الدار الآخرة – هيكل العدالة المثلى:

---

[68] (?)، (2) ص 81 - 82

على أن السبب الأعظم الذي يوجب إيجابًا قيام "الدار الآخرة" في الإسلام هو استكمال العدالة التي عجزت الحياة الدنيا عن أن تحققها. فالفكرة الرئيسية في الدار الآخرة هي إثابة المحسن وعقاب المسيء. وللقيام بهذا الدور ومن أجله أوجب الله تعالى الدار الآخرة وقرن بها الجنة والنار، وهو أمر واضح جدًا في القرآن ومكرر في مئات الآيات التي يعجز عن استيعابها هذا الفصل، فالدار الآخرة هي هيكل العدالة الكاملة والمثلى التي تنتصب لكل مظلوم "حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء لم نطحتها". كما جاء في الحديث وسواء أريد بالحديث هذه الواقعة وأمثالها بالذات أو أريد به رمز لشمول العدالة، فإن الفكرة في الدار الآخرة هي دار "العدالة".. وبدون الدار الآخرة لا يكون هناك عدالة، لأن محاكم الدنيا، كما يعلم كل فرد، إذا أدانت ظالمًا فإنها تفلت عشرة، فضلاً عن أن هناك من القضاة من كان يجب أن يقف موقف المتهمين والعكس بالعكس، وحتى لو أدانت المجرمين فإنها لا تثيب المحسنين، فإذا سمح بهذا فإن بناء العدالة ينهار، فالعدالة لا بد وأن تكون عدالة كاملة أذكى من تحايل المخادعين وأقوى من هيمنة السلاطين.

وقد كانت هذه النقطة – أعني الحاجة إلى هيكل للعدالة المثلى – هي التي جعلت الفيلسوف كانت يؤمن بالدار الآخرة، لأن فلسفته القائمة على الواجب لا يمكن أن تكتمل إلا بوجود مثل هذه المحكمة التي تجعل للواجب كيانًا وواقعًا يخرج به من إطار الفرض النظري. وتمثل هذه اللفتة نقطة التقاء بين المدخل العقلاني لمؤلف "نقد العقل المجرد" والمدخل الإيماني للإسلام. وتبرهن على أن البحث المخلص الأمين عن الحقيقة يجعل أصحابه يصلون في النهاية إليها، حتى وإن اختلفت سبلهم وأساليبهم ومداخلهم.

ونوجه الانتباه إلى نقطة هامة للغاية، إن فكرة خلود الروح كانت في بعض الديانات والمعتقدات – هي التي أدت إلى وجود الدار الآخرة، بل وإلى وجود الله تعالى كما رأينا في الفصل السابق، ولكن الأمر في الإسلام مختلف، فإن فكرة العدالة التي يقوم عليها الإسلام هي التي استتبعت خلود الروح لتأخذ العدالة مجراها. ومن هنا جاء التركيز في الحياة الآخرة على الثواب والعقاب، أي العدالة التي لا تفلت أحدًا بما في ذلك المسلمين أنفسهم.

وتتضح أهمية هذه الملاحظة من أن خيال الإنسان القديم أظهر له الخلود كأمل أسمى ومواصلة للبقاء الذي قطعه الموت. وبالتالي قاده إلى الإيمان بالله. ولكن خيال الإنسان الحديث قد لا يجعل الخلود هو الأمل الأسمى له، كما كان بالنسبة للإنسان القديم[69] ومن ثم لا يكون هناك مبرر لأن تأخذ الدار الآخرة الصورة الصارمة التي أخذتها في الإسلام، بل لقد يفضل الكثيرون ألا توجد أصلاً، لأن الخوف من عذاب النار قد يفوق الأمل في نعيم الجنة.

والفرق بين الإسلام والأديان الأخرى في هذه النقطة هو الاختلاف ما بين المنطلق الموضوعي. والمنطلق الذاتي. الحقيقة الموضوعية بكل ما فيها من تجرد، والمنطلق الذاتي الذي يبلور الهوى الفردي.

والعدالة في حقيقتها تعني الحق، فهي الحق مطبقًا، والحق هو الأساس لكل شيء، وللأديان وللسماوات والأرض، بل هو أعظم، هو اسم من أسماء الله تعالى، وهو رمز لله تعالى. واقرأ إذا شئت:

﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم﴾ (62 الأنعام)

﴿ فتعالى الله الملك الحق﴾ (114 طه)

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى﴾ (6 الحجر)

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ (30 لقمان)

---

69 **(?) انظر ما جاء في كتاب "الخلود للدكتور سيد عويس" عن ملاحظة وليام أوسلام من أن أقلية من المحتضرين كانوا يرغبون في حماس في حياة بعد الموت. وأن أقلية أخرى كانوا يأملون في الفناء النهائي، أما الأغلبية من هؤلاء الأشخاص فقد كانوا غير مكترثين ص 58.**

﴿ ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾ (19 إبراهيم)

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ (85 الحجر)

وقد يتشدق البعض.. هذا فرض.. وليس دليلاً، ونحن نقول إن كل الحقائق تبدأ بفروض وتنتهي بالحقائق والوقائع. وهذا هو العقل أما الحس فهو يعجز عن الوصول إلى الأدلة، وجدير بالعقلانيين أن يؤمنوا بما يوجبه العقل. لا الحس، وإذا وصلت السفسطة بنا إلى إنكار "الحق" و "العدل" وما يوجبانه فلا فائدة.

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليــل

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد هي أن نظمنا الدنيوية عجزت عن تحقيق العدالة، وحتى عندما تدعي بعض الدول أنها تطبق الشريعة فإما أنها لم تفهم الشريعة حق الفهم... أو أنها أساءت التطبيق بحيث أصبحت الدنيا دار ظلم أكثر مما هي دار عدل. فهناك الملايين الذين يكدون ويشقون ويعملون ليل نهار في صمت ولا ينالون ما يكفل لهم الحياة الكريمة أو يتيح لهم حظاً من الاستمتاع، فهم يعيشون ويموتون يلفهم الجحود والنكران، كجنود مجهولين في جيش جرار طواه الزمان، وفي مقابل ذلك يظفر الدهاة والمنافقون وأبناء الأغنياء وورثة الحكام بالذكر والشهرة ويتمتعون بكل طيبات الحياة. وقد يكون منهم من لم يعمل عملاً صالحًا في حياته أو يحسن شيئًا، وقد يكون بينهم من يستحق السجن أو يكون قد ارتكب من الموبقات ما لو قطع إربًا لما نال ما يستحق، ونجد الغادرين من الساسة.. والقتلة من العسكريين يتصدرون قوائم الشرف ويشغلون مناصب الرئاسة، وعندما يموتون يشيعون بمواكب مهيبة.. فإذا جاز أن يستمر هذا وأن يقف الأمر عنده لما كانت هناك عدالة، ولما كان هناك حق، ولكان كل هذا الوجود باطلاً..

وقد يقول قائل.. ولماذا سمح الله تعالى بكل هذه المظالم في الحياة الدنيا، وكان يمكنه تعالى أن يحول دونها باديء ذي بدء ولا يكون هناك حاجة لإستئناف. والذي يسأل هذا السؤال هو كمن يسأل لماذا لم يجعل الله تعالى للناس عينًا في ظهورهم ليروا بها ما خلفهم أو يجعل بدلاً من أقدامهم المنبسطة دائرة كالعجلة.. إلخ هذه السفسطات والأسئلة التي لا تقف عند حد. إن الله تعالى أوجد الحياة الدنيا تبعًا لنواميس معينة، وجعلها اختيارًا ومسرحًا للفتنة من ناحية والإيمان من ناحية أخرى. ولم يجعل الإنسان ملاكًا، وكان يمكنه ذلك، فلا يخطئ ولا يذنب، وسلح كل واحد بالهداية كما سلط عليه الفتنة. وصورة الحياة الدنيا على ما فيها من نقص وقصور أكثر روعة من حياة الملائكة الذين لا يفتنون ومن ثم لا يذنبون ولا يحاسبون، شرط أن يتم الإنصاف في الحياة الأخرى حتى لا يكسب الظالمون من ظلمهم، ولا يغمط المحسنون إحسانهم.

الجنة والنـار:

إذن الحياة الآخرة في جوهرها "محكمة عدالة" لإثابة المحسن.. ولعقاب المسيء.

كيف يثاب الأول؟.. وكيف يعاقب الثاني؟

أوجد الإسلام جنة للأولين.. وجحيمًا للآخرين.

وعلى الذين يعجبون أو ينكرون أن يقولوا لنا ماذا كان يمكن أن يوجد للثواب والعقاب غير هذين؟

وقد لا يكون هناك اعتراض على إيجاد الجنة والنار، خاصة وأن الإسلام لم ينفرد بهما، فهما في معظم الأديان، وإن تميز الإسلام بتأكيدهما بصفة لا توجد في الأديان الأخرى باستثناء الديانة المصرية القديمة.

ففي المسيحية جنة ونار، وبالنسبة للجنة، استخدمت المسيحية التعبير الذي استخدمه الإسلام تقريبًا " ما لم تر عين ولم تسمع أذن. ولم يخطر على بال إنسان ما

أعده الله للذين يحبونه" (أكو 2: 9) وجعلت المتعة العظمى في الجنة الأنس بلقاء الله تعالى (كما في الإسلام) أما النار فهي نار حقيقية مستعرة – كالتنور – إلى الأبد.

وإنما يكون اعتراض المعترضين على ما اقترنت به الجنة والنار من صفات، ففي الجنة حور عين، ولحم طير، وأنهار من عسل ولبن وأساور من ذهب وإستبرق وفي النار جحيم ومهل يشوي الوجوه وسلسلة ذرعها سبعون ذراعًا.. إلخ، وأعتراض المعترضين ينصب على "حسية" النعيم في الجنة و "وحشية" العذاب في النار..

وهي شبهات روج لها المستشرقون وأعداء الإسلام ولكنها قد تخطر لغيرهم من الذين لم يلموا بالأبعاد الكاملة لهذه القضية، فيحكمون عليها بالظواهر أو بما يتطرق إلى النفس أول وهلة، دون تحقيق فكر أو إنعام نظر..

والرد على هذه الشبهات متعدد الوجوه، وهو في النهاية يمحوها تمامًا.. ولا يدع لها أثرًا..

فأول شيء.. إن علينا أن نفهم طبيعة الخطاب القرآني وهدفه..

فالقرآن الكريم ليس قصة لها بداية تبدأ منها.. ولها نهاية تنتهي بها ثم يسدل الستار عليها، وليس هو سردًا لتاريخ أو إنباءً بمعلومة.. لا يترك أثرًا.. ولا هو مجرد إعلام ببعض الظواهر أو الوقائع، أو المبادئ.. إن القرآن كتاب هداية وموضوعه الإنسان وهدفه هو هداية هذا الإنسان، وهذه الهداية تتطلب عادة كفاحًا وجهادًا وقوة وعزيمة كي ينتقل الإنسان من عالم الضلالة إلى عالم الهداية. خاصة إذا اقترن عالم الضلالة بالشهوات وبما تهوى الأنفس، وبما خلفه الآباء وما تقره الأوضاع القائمة بالفعل.

والإنسان هنا اسم جنس كما يقولون.. أي أن المقصود به الإنسان في كل زمان ومكان.

علينا أن نقدر مدى صعوبة المهمة التي تصدى لها القرآن والتي لا تماثلها فيما نعلم مهمة ثانية حتى بالنسبة للأديان الأخرى التي كانت مقصورة على أناس دون أناس، وعلى زمن دون زمن.

والقرآن كما هو معروف نظم لكلمات، ولا يملك قوة أخرى غير هذه الكلمات. فكان يجب أن تكون هذه الكلمات من القوة بحيث تصيب من الإنسان الموضع المؤثر والوتر الحساس، وبالتالي يمكن أن تغير وتحقق الهداية.

وهذا أمر لا يتأتى بسرد، أو بإعلام، أو بتقرير حقائق علمية وحسابية، فلو جاء القرآن بأن ناتج ضرب 2 × 2 هو 4، أو أن أطول أضلاع المثلث أقصر من ضلعيه الآخرين لما لمس هذا نفسية الناس. فلم يحدث أبدًا أن قامت ثورة لمثل هذا الهدف، أو تحركت الجماهير لتحقيقه، أو غير شيئًا من نفسية الناس، فالمدخل الوحيد لتغيير الناس هو معالجة "النفس"، التي لا تختلف باختلاف الأزمان والأماكن. وبقدر ما يعالج أصل ما في هذه النفس، بقدر ما يكون عمق التأثير والتغيير.

من هنا اكتسب الخطاب القرآني طبيعة نفسية "سيكولوجية" وأسلوبًا فنيًا، لأن الفن وثيق الصلة بالنفس.

وكان لا بد بالنسبة لمعالجة القرآن للثواب والعقاب أن يأخذ هذا الطابع، كما أخذته معالجة القرآن للقضايا الأخرى الرئيسية للإيمان والهداية.

وطبيعة المعالجة النفسية – الفنية لها مقتضيات لا يمكن أن تقوم إلا بها، منها تكثيف التصوير بحيث يضمن تأثيره على الطبائع الجافية، والقلوب القاسية والنفوس اللاهية، واستخدام الرمز، والاستعارة والمجاز والالتجاء إلى التكرار والتأكيد والإطناب، واستخدام الجرس الموسيقي للفظ بحيث يدخل الأذن، ويصل إلى أعماقها.. وغير ذلك من المقتضيات التي تتطلبها الفنون التي يراد بها التأثير على النفس، بالإضافة إلى نبل المعاني وسمو الغايات التي هي لب الهداية.

ولم يكن هناك معدى من هذا، ما دامت معجزة الإسلام كتاباً. ومادام هدف هذا الكتاب هو تغيير النفوس وإنقاذها من الضلالة إلى الهداية، ولم يكن ليجدي إستخدام أسلوب الحوار "السقراطي" الذي يتطلب محاوِرًا ومحاوَرًا وأسئلة وأجوبة، أو تقرير مبادئ علمية لا تتحرك لها النفوس أو الإقناع العقلي المجرد والجاف.

إن مخاطبة الجماهير العريضة ليس فحسب عن موضوع الهداية بل حتى في الموضوعات العلمية يتطلب أسلوبًا خاصًا يختلف عن الأسلوب الفني والاصطلاحي تمامًا. وقد لاحظ أينشتين ذلك عندما وجه أحد الكتاب نظره إلى كتابات سير أرثر أدينجتون وسير جيمس جنز اللذين أصدرا عددًا من الكتب العلمية عن الرياضة والكون بأسلوب له الطابع الأدبي ووجهاها إلى الجماهير العريضة فقال لمحدثه.

"يجب أن تميز ما بين الكتابات الأدبية، والبحث العلمي أن هؤلاء السادة هم علماء حقًا، ولكن لا يجوز أن تؤخذ تعبيراتهم الأدبية على أساس أنها تقرير علمي.. إنهم في كتبهم "رومانتيكيون" وغير منطقيين، ولكنهم في أبحاثهم يعملون بالمنطق العقلي الدقيق"([70]).

ومن غير المفهوم أن تمدح الفنون كالموسيقى والشعر والقصة والرسم، وأن توضع في أعلى منجزات الإنسان، ثم تذم إذا استخدمها القرآن لهداية الناس.

ما نريد أن نصل إليه هو أنه لما كان هدف القرآن هو الهداية، ولما كانت الهداية لا تتأتى بالصورة الجماهيرية ولكل الناس في كل العصور، إلا بالمعالجة السيكولوجية – الفنية للطبيعة الإنسانية، ولما كانت الوسائل الأخرى – بما في ذلك الإقناع العقلي المجرد – تعجز عن ذلك. فقد تعين على القرآن أن يستخدم هذا الأسلوب، وقد استخدمه ونجح في الهدف – وهو الهداية، وخلق الإنسان خلقًا جديدًا.

ولا يمكن محاسبة هذه الوسيلة – مادامت هي الوحيدة التي تحقق الهداية. لأن أسلوبها يختلف عن الأسلوب العقلاني – أسلوب الأبيض والأسود، الحقيقة والواقع، وأنه يلجأ إلى الظلال والأطياف ويستخدم الرمز والمجاز. وما قد يؤدي إليه هذا من أن الأوصاف التي جاءت في القرآن قد لا تكون مما نعهده في الحياة الدنيا، أو نحكم عليه بمشاهداتنا في الحياة الدنيا. فالحور العين، ولحم الطير، وأنهار الخمر والعسل، والسلسلة التي طولها سبعون ذراعًا، والمهل الذي يشوى الوجوه، كل هذا ليس شرطًا أن يكون مما نعهده في الدنيا بالفعل وإنما استخدم القرآن ما نعهده لأنه ليس من طريقة أخرى لتقريب المعنى.

ومن هنا قال ابن تيمية في "الإكليل في المتشابه والتأويل" "وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله، فإن الله يقول ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ ويقول: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". وقال ابن عباس "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء" فإن الله قد أخبر أن في الجنة خمرًا ولبنًا وماء وحريرًا وذهبًا وفضة.. وغير ذلك، ونحن نعلم قطعًا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ على أحد القولين، إن يشبه ما في الدنيا، وليس مثله. فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه. فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما. لكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه. وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به. وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم، فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون ما أخبر القرآن. ومن دخل في الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد.. وإن كان من منافقة الملتين مقر بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة كل ضال يحرف الكلم عن

---

[70] (?) دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح – المكتبة الثقافية يناير 1963 – ص 50.

مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته. وكان في هذا متبعًا للمتشابه، إذ الأسماء تشبه الأسماء والمسميات تشبه المسميات. ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها، فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا. قال الله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾. فإن تلك الحقائق قال تعالى فيها ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل"[71].

وصنف الغزالي في كتابه "ميزان العمل" الناس في أمر الآخرة أربع فرق الأولى هي المؤمنة بالنعيم الحسي والمعنوي، وهؤلاء هم جمهور المسلمين والثانية وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة استبعدوا اللذات الحسية وأبقوا على اللذات العقلية، ولم يستنكر الغزالي ذلك، كما لم ير فيه ما يؤدي إلى فتور الطلب. والثالثة رأت أن استخدام القرآن لصور النعيم المألوفة في الدنيا هو من باب التشبيه والتقريب لعدم استطاعة إدراك نعيم الجنة حقًا فمثله القرآن بما في الدنيا، ولم يستنكر الغزالي ذلك أيضًا، بل روى ما يقوله بعض مشايخ الصوفية "من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم وإنما مطلب القاصدين إلى الله أشرف من هذا، ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع"[72] والفرقة الرابعة وهي الوحيدة التي استنكرها، بل ونبذها هي التي لا تؤمن ببعث أو نشور، وترى أن الإنسان يرجع إلى العدم بعد موته كما كان قبل وجوده"[73].

وفيما نرى، فإن الناس أمام نعيم الجنة وعذاب النار أنماط ثلاثة.

النمط الأول: الذين صفت مداركهم ورقت حواسهم، وصحت طبيعتهم ووصلوا إلى درجة كبيرة من الفهم، وسواء كان ذلك بحكم ملكاتهم الفائقة أو وضعهم الثقافي المميز. وهؤلاء يتجاوبون مع ما جاء به القرآن من أن الجنة هي رحمة الله "ففي رحمة الله هم فيها خالدون" و "تحيتهم فيها سلام" و "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، وهذه الإشارات تلمس المعاني التي تملك نفوسهم وتتجاوب مع مشاعرهم، وفيها ما يرضيهم ويقنعهم، وليسوا هم بحاجة إلى حوافز المتاع الحسي.. أو كوابح العذاب البدني..

ومن الواضح بالطبع أن هؤلاء أقلية نادرة في المجتمع البشري، ومثلهم مثل علي بن أبي طالب ورابعة العدوية وكبار الواصلين الذين يعبدون الله إيمانًا وحبًا لا رغبة في جنة ولا خوفًا من نار.

النمط الثاني: جمهور الناس وأغلبيتهم الكاسحة، الذين يكدحون طول حياتهم، ولا تدع لهم ضرورات العمل ومطالب المعيشة الملحة فراغًا للفكر أو مجالاً للاستمتاع، وحياتهم رحلة شقاء وحرمان، وأملهم الأسمى هو أن تتاح لهم فرصة الاستمتاع بما حرموا منه والراحة مما شقوا به.. والجنة بالنسبة لهم هي الملاذ الذي يكفل لهم طيبات تماثل طيبات الحياة الدنيا التي حرموها. ومن هنا فإن الشيء الوحيد الذي يلمس نفوسهم هو ما جاء بالقرآن من إشارات إلى السندس والإستبرق والحور العين وأنهار العسل والخمر حتى وإن كانت حقيقتها غير ما هي في الدنيا.. مما لا يعلمه (ملك مقرب أو نبي مرسل) بتعبير ابن تيمية.

النمط الثالث: الذين تضافرت عليهم ظروف معينة بحيث جعلتهم ذوي طبيعة عدوانية أنانية شريرة، فطباعهم جافية، وقلوبهم قاسية، وقد تحكمت فيهم الأنانية فلم يروا إلا أنفسهم، فعملوا كل حياتهم للوصول إلى أعلى المناصب بالنفاق والخداع والكذب والتزييف والاستغلال، ومنهم الذين يشبعون نزعاتهم الشريرة ونفوسهم المريضة بإذلال الناس وتعذيبهم، ومنهم أكابر المجرمين من رجال السياسة والحروب وأصحاب الأعمال "وأبطال الإمبراطوريات".. إلخ.. الذين سفكوا الدماء وحكموا

---

71 **(?) الإكليل في المتشابه والتأويل – لابن تيمية – مكتبة أنصار السنة المحمدية – ص 12 – 13.**

72 **(?) ميزان العمل للغزالي طبعة محمد علي صبيح سنة 63 ص6.**

73 **(?) ميزان العمل للغزالي طبعة محمد علي صبيح سنة 63 ص6.**

بالحديد والنار، وحرموا شعوبهم الحرية والعزة.. وجعلوا بلادهم سجنًا كبيرًا وتفننوا في التعذيب هم وأتباعهم – من وزراء الداخلية.. حتى أصغر جندي اشترك معهم.. إلخ.. وهؤلاء لا ينفع فيهم حديث عن جنة فيها سمو روحي أو استمتاع حسي – فليس لهم قلوب يفقهون بها، وقد استطاعوا بفنون التزييف والاستغلال والبطش أن يصنعوا لأنفسهم جنة صغيرة في الحياة الدنيا. وإنما ينال منهم الوعيد الشديد والجزاء الرهيب، وأشدها هي النار، ولا بد أن تظهر النار في أشنع صورها – لأن كلمة النار المجردة لا تكفي – وقد تنسى فلا بد من كل الأوصاف المروعة التي توصف بها في القرآن حتى يمكن أن تؤثر في قلوبهم القاسية ونفوسهم المتحجرة.

وفي الوقت نفسه فإن القرآن قد فتح لهم باب التوبة إذا أقلعوا عن موبقاتهم.

النعيم "الحسي" والنعيم المعنوي:

كان لا بد للقرآن أن يخاطب كل نمط من هذه الأنماط بما يتجاوب معه، وما يؤثر فيه، إذا أراد هداية الناس، ولم يكن هناك من وسيلة أخرى، وكان من الضروري أن يتعامل مع الغريزة آونة، ومع القيم آونة أخرى. وكان كالطبيب الذي لا يمكن أن يرفض مريضا لشدة مرضه، أو سوء حالته – على العكس. إن هذه نفسها تكفل للمريض نصيبًا أكبر من عناية الطبيب، وتجعله أحوج إليها.. وكان من الضروري أن يعمل القرآن حساب الاختلافات العديدة في النفسية والمزاج والفهم بين الأجناس بعضها بعضا، وبين العصور قديمها وحديثها.

وقد نجح القرآن في هذا. فلا يعلم كتاب ظل بعد ألف وأربعمائة سنة غضًا نضيرًا، بل متوهجًا متألقًا كالقرآن، لا يزيده مر السنين إلا رواء، وكل يوم يمضي يكشف عن جديد من وجوه إعجازه بحيث يمارس دوره في الهداية اليوم، كما كان يمارسه عند نزوله.

فالله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه أنزل في كتابه ما يتفق مع طبيعة هذا الإنسان وما يحقق معه أعظم النتائج، وليس من البعيد أن يكون وراء غمز الغامزين، وما يثيرونه من شبهات الحسد العميق من توفيق القرآن.

وبالنسبة للجنة، كان لا بد أن يعرضها القرآن كما عرضها بالفعل نعيمًا حسيًا، ونعيمًا معنويًا. ولو توجه القرآن إلى الناس بنعيم معنوي فحسب لما أصاب ذلك نفوس الأغلبية المكدودة المحرومة، ولما جاء بالجديد المنشود. ذلك أن فرص الاستمتاع النفسية والروحية والمعنوية، أصبحت في هذا العصر متاحة للجميع تقريبًا بفضل التقدم في وسائل الإعلام، فيمكن للجميع الاستماع إلى ألحان موزار وسيمفونيات بيتهوفن.. ورؤية لوحات روبنز وفان جوخ ورافائيل إلخ.. ورؤية أو شهود الأوبرا التي لم يكن يشهدها إلا النبلاء. ومشاهد الجمال الطبيعي مبذولة دومًا للجميع، وقد أصبحت السياحة متاحة لأوساط الناس، وأهم من هذا كله أن أسمى وسيلة للاستمتاع الأدبي والتذوق الفني هي قراءة القرآن والاستماع إلى جرسه ونغمه، وما فيها من اتساق وموسيقى، وتدبر معانيه الرائعة وتشبيهاته الرائقة.. وهذا كله متاح لكل الناس دون حاجة إلى جنة في الآخرة.

ولو كان الاستمتاع الروحي والنفسي كافيًا، لعكف كبار الفلاسفة والكتاب والمفكرين والفنانين على فنونهم، وهي من النسق الأعلى، وهم سادتها، ولما ضعف كثير منهم أمام المرأة الجميلة، وخضعوا لها فنجد نيتشه يستجدي رضاء يهودية لعوب ومكسيم جوركي يتقرب إلى ممثلة ترفضه، ونابليون تخدعه زوجته الأولى فيحب امرأة لا تَفْضُل الإوزة السمينة.. وأوجست كونت يتوله في حب امرأة معلقة إختفى زوجها من حياتها، ولما ضحى الزعيم الألماني "لاسال" بحياته في سبيل المرأة التي أحبها.. ولما فقد بارنل وبولانجيه[74] مستقبلهما السياسي لعلاقاتهما النسائية، ولما ضحى إدوارد الثامن بعرش الإمبراطورية البريطانية للاحتفاظ بمطلقة جميلة.. وغير هؤلاء كثيرون.

---

[74] **(?) بارنل سياسي أيرلندي، وبولانجيه سياسي فرنسي وصل كلاهما إلى قمة الشهرة، ولكنهما خسراها لتورطهما في علاقات نسائية.**

إننا لسنا مثل منافقي العهد الفيكتوري، ولا يخجلنا أن نقول إننا نسعد بالمتع الحسية، وأن الاستمتاع بالجمال هو من أعظم صور الاستمتاع، وأن أروع صور الجمال تأثيرًا هي ما جسدته القدرة الإلهية في الجسم الإنساني، وأن أعمق صور التعاطف هي ما يجمع الرجل بالمرأة. إن كل الفنون من أقدم الآباد حتى الآن تدور حول الحب، الذي لا يكون حبًا إلا عندما تمتزج فيه العاطفة بالغريزة، فإذا كان فيها
ما يشين المجتمع، فلماذا جعلها محور الثقافة والآداب ونبع فنون التمثيل والسينما والموسيقى والشعر.. إلخ.

إن مسلك الأوربيين والأمريكيين وادعاءاتهم تثير العجب فهم يتهمون المسلمين "بالشهوانية" في حين أن حياتهم كلها تدور حول الشهوة والجنس، وهم يتسافدون تسافد الحيوانات وتبدأ الحياة الجنسية من المراهقة حتى السبعين، وتجد المرأة الأمريكية في السبعين متأنقة تمارس "الحب" وتسعى لقضاء وقت طيب!! ولكل زوجة عشيق، ولكل زوج عشيقة...

إن العلاقة بين الرجل والمرأة اكتنفتها في الحياة الدنيا مخاطر عضوية لم تجعلها صفوًا دائمًا. وقد انتفت هذه المخاطر في الجنة، فالمرأة في جنة الإسلام مبرأة من كل ما فرضته الضرورات البيولوجية عليها في الحياة الدنيا، فهل يؤخذ على الإسلام أنه يبرز صورة "محسنة" للمرأة في الجنة، وهذا هو أمل الفنانين والمثالين، والمرأة نفسها؟

وماذا عن الطيبات الحسية الأخرى.. لحم طير، فاكهة، أنهار من عسل مصفى.. إلخ.

لقد كان أمل البشرية الذي عجزت عنه حتى الآن هو أن توجد مجتمعًا لا تفنى موارده، ولا تحد ذخائره مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وعندما اكتشفت الآلات والقوى المحركة تصور "أوين" وبعض الكتاب أن العمال لن يضطروا إلى العمل إلا ثلاث أو أربع ساعات تكفي لإشاعة الطيبات. وظهر ماركس وقال للعمال إن الدين أفيون الشعوب، يدعي جنة في الآخرة في حين أن من الممكن للاشتراكية أن تقدم لهم جنة في الدنيا، فانساقوا وراءه، فلم يجدوا الجنة الموعودة، ولكنهم وجدوا الجحيم الذي يفوق جحيم الرأسماليين. وكان قصارى ما وصلت إليه الحضارة الحديثة أنها حققت الجنة فعلاً، ولكن للمليونيرات، أما الجماهير العريضة فعليها أن تكدح ثم لا تجد إلا حياة تلبد جوها الأقساط "وشبح البطالة" والأزمات.. إلخ.

إن الفلاح الذي تغضنت يداه من الإمساك بالفأس والضرب به حتى أصبحت كيد التمساح، والعامل الذي يكدح من الصباح حتى المساء وتشغله هموم الحياة وجهاز الحياة الصناعية الحديثة الذي سلبه القوة والحرية، وربة البيت التي لا تعرف إلا الحمل والرضاعة، وتعمل من الفجر حتى الليل في الكنس والغسل والطهي ورعاية الأبناء وشئون البيت.. إن هؤلاء جميعًا يمضون حياتهم في عناء وشقاء ولا يكون لهم ذرة أمل في استمتاع ما لم يدركهم الله برحمته فيوجد لهم جنة تعوضهم عن كل ما حرموا منه في الحياة الدنيا وتكافئهم عن عملهم وكفاحهم. فلماذا يعد هذا شيئًا شاذًا أو غريبًا، وأصول العدالة توجبه، وقدرة الله لا تضيق به.. أم أن الكحكة في يد اليتيم "عجبة" كما يقول المثل المصري.. وإن الجنة لا توجد إلا في الحياة الدنيا، وإلا بالنسبة للأغنياء والأثرياء و "سيدات الصالونات".

إن الحضارة الأوربية لا تخفي فخرها بإتاحة الطيبات من الرزق الأكل – الشرب – الملبس – الاستمتاع المادي والجنسي، لكل من يستطيع أن يدفع، فهل يلام الإسلام لأن جنته تقدم كل هذا مجانًا. وللمستحقين.

ومع هذا..

فقد اتسع نعيم الجنة الحسي للذي يريد أن يشبع هوايته في الزرع، وإن كان الزرع من أروع ما تقدمه الجنة، ومن ثم فيمكن لذوي الهوايات أن يشبعوا هواياتهم الأخرى، واقترن نعيمها الحسي والمادي بمتعة روحية يصغر أمامها كل المتع الأخرى، ألا وهي رؤية الله تعالى، هذا الأمل الذي تقطعت دونه أعناق الفلاسفة والمفكرين..

إن المؤمنين يسعدون به بصورة ما نعجز عن تكييفها، لأن الله تعالى "لا تدركه الأبصار" حتى وإن كانت نفوس المؤمنين شاخصة ووجوههم إليه ناظرة.. وحتى لو كان هناك حديث نبوي عن الرؤية "كرؤية القمر" وعلى كل حال فإننا لا نرى من القمر إلا نوره..

حقيقة التعذيب "الوحشي" في النار:

أوضحنا في الفقرات السابقة أن الطبيعة النفسية الفنية للخطاب القرآني المنبثقة من هدفه "وهو الهداية" إقتضت أن يبرز النار إبرازًا رهيبًا مروعًا بحيث يؤثر على ذوي القلوب القاسية الذين أريدوا بهذا الإبراز، وبدون هذا ما كان يمكن أن يحقق الأثر المطلوب، وأن هذا هو سر التشبيهات والتصويرات المروعة.

وأوضحنا – كذلك – أن الخطاب النفسي/ الفني اقتضى أن ما تتضمنه من تصويرات قد لا تتفق مع مشاهدنا في الدنيا، وأن القرآن، كان لا بد وأن يستخدم هذه التصويرات لأنها الوحيدة التي نعلمها، ويمكن عبرها أن نتفهم المضمون شأنها في هذا شأن ما جاء عن الجنة أو ما جاء عن الله تعالى..

وفي هذا وذاك ما يغير الصورة التي تبدو للوهلة الأولى – عن تعذيب رهيب في نار جهنم.

وبالإضافة إلى هذا، فيجب عند عرض هذه الصور من العذاب، والآيات عن الجحيم أن نعرض أيضًا للآيات العديدة عن رحمة الله تعالى "وهو أرحم الراحمين" وأن رحمة الله تفوق بمراحل رحمة الإنسان.. وحسب القرآن أن كل آياته تتوج باسم الله "الرحمن الرحيم" وما من تأكيد للرحمة كهذا التأكيد، فضلاً عن أن الرسول ما أرسل "إلا رحمة للعالمين"، وأن الرسالة كلها "هدى ورحمة" ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (157 الأنعام)

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُونَ﴾ (51 الأنعام)

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (89 النحل)

﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُونَ﴾ (203 الأنعام)

﴿ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (13 القصص)

﴿ هدى ورحمة للمحسنين﴾ (3 لقمان)

وكذلك:

﴿ قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ (100 الإسراء)

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (53 الزمر)

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (156 الأعراف)

فضلاً عن الآيات التي وصفت الله تعالى بأنه غفور رحيم، ويضيق المجال عن ذكرها. والآيات التي حرم فيها الظلم على الناس تحريمًا شديدًا، فكيف نظن بالله تعالى بعد ذلك أثارة من ظلم.. إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

والحقيقة أنه ما دامت الدار الآخرة هي أصلاً هيكل عدالة، فالمفروض أن يستبعد بداهة أي ظلم، لأنها إنما قامت لتقويم الظلم، وتعويض المظلومين، فكيف نظن أن يرتكب فيها ظلم، أو أن يكون العلاج هو الداء نفسه.

وقد كنت أبحث عن مبرر العدالة في آية مثل كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (56 النساء) دون أن أهتدي إليه حتى تنبهت إلى ما اقترفه "أكابر المجرمين" من الذين حكموا البشرية من فراعنة مصر، حتى الآشوريين الذين أقاموا "أهرامات" من الجماجم، حتى فظائع الرومان، ثم فظائع التتار الذين كانوا يهلكون الحرث والنسل ولا يدعون طفلاً أو شيخًا أو رجلاً أو امرأة، ويتترسون بالأسرى ثم ما قامت به محاكم التفتيش من أساليب للتعذيب تقشعر الجلود لمجرد قراءته، وما قام به قادة الاستعمار من استعباد للأفريقيين. ونهب وسلب أفريقيا وآسيا، حتى نأتي إلى عهد الديكتاتوريين في العصر الحديث وساسة أوربا الذين تسببوا في حربين عالميتين قتل وشوه فيهما ما يزيد على مائة مليون فرد، حتى نصل إلى حمزة البسيوني وأمثاله في سوريا والعراق ومختلف دول العالم الثالث.

إن كل واحد من الملوك والأمراء والقادة والساسة وأتباعهم الذين طبقوا أو أمرهم الوحشية تسبب في قتل وتعذيب وتشويه عشرات الألوف. إنه لم يسرق رغيفًا أو يفجر بامرأة. ولكنه قتل وشوه شعوبًا بأسرها ومارس أسوأ صور التعذيب من سمل عيون، وقلع أظافر، وإحراق على نار بطيئة، وكان أسفه الوحيد أن الموت ينقذ ضحاياه.

ماذا فعلت عدالة البشرية لهم؟ إنها لا تزال تمجدهم ومن حكمت عليه فإن أقصى ما لديها أن تقضي عليه بالموت فهل من العدالة أن يتساوى في العقوبة من قتل فردًا ومن يقتل مليونًا؟ إن عدالة البشرية لا تستطيع أن تقتل مجرمًا إلا مرة واحدة. وعدالة نار الآخرة وحدها هي التي يمكن أن تعاقبهم بمقدار جرائمهم.

إنها صورة مروعة، ولكنها عدالة، وفظاعتها هي نفسها عين العدالة. لأن الجرائم الفظيعة يجب أن يعاقب عليها بعقوبة تتناسب معها، وأي تسامح يكون إخلالاً بميزان العدالة.

وإذا جلت الذنـوب وهالت فمن العدل أن يهول الجزاء

والعقوبات بصفة عامة كلها سيئة كريهة. إن السجن في زنزانات ضيقة وتقييد الأيدي بالأغلال الحديدية.. هو إهدار للكرامة.. وقضاء على الحرية، ومع ذلك فلا مناص عنه، وهو يطبق في كل دول العالم، لأنه إنما يطبق على من أهدروا الكرامة والحرية.

لقد أعدت جهنم لكل "مارد متمرد" بتعبير الرسول لكل طاغوت وديكتاتور وسفاح ومستغل ولم تعد لمن يقصر في صلاة.. أو يرتكب إثمًا لأن هذه مما يجبه الاستغفار وتذهبه الحسنات "إن الحسنات يذهبن السيئات".

***

ومع هذا...

فإذا تعاظمتنا تلك الآيات التي تصف عذاب النار، فلا بد أن نضع جنبًا إلى جنبها آيات العفو والمغفرة والرحمة، واستبعاد الظلم، لأن القرآن يكمل بعضه بعضًا. فإذ حدث هذا لرجحت كفة الرحمة، حتى على كفة العدالة. لأن الله تعالى يحكم بالعدل أولاً، ثم يتلطف برحمته.. لتنقذ كل من في نفسه ذرة من الخير.

فإذا قيل ألم يكن من الأفضل إغفال تلك الآيات المروعة والأوصاف الرهيبة، فإننا نقول، كلا.. كان لا بد أن ترد، لأن هناك من لا يفهم إلا هذه اللغة ولا يتأثر إلا بها.

***

والقضية بعد ليست جديدة، كما يظن، فقد عرضها على النص نفسه أولى الناس بالدفاع وأقربهم إلى
الرحمة: أم. فقد روي عن ابن عمر قال كنا مع النبي في بعض غزواته، فمر بقوم فقال" من القوم" قالوا نحن المسلمون، وامرأة تحضب (أي توقد) بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به، فأتت النبي فقالت "أنت رسول الله"؟ قال "نعم" قالت "بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت "إن الأم لا تلقي ولدها

في النار" فأكب رسول الله ﷺ يبكي ثم رفع رأسه إليها وقال "إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله". رواه ابن ماجة([75]). فهذا الحديث وإن كان يثبت النار، إلا أنه يوضح أن فهم كثير من المسلمين عن هذا الموضوع لا يتفق مع ما قدمه الرسول، وما قصر به النار على المارد المتمرد.

والذين يثيرون قضية النار ومعظمهم من المستشرقين والذين يغمزون الإسلام ينسون أن هذه النقطة أدت إلى أن يستبعد التشريع الإسلامي من عقوباته الحرق بالنار "فلا يحرق بالنار إلا خالقها". فوجود النار في الدار الآخرة.. أبعدها من الحياة الدنيا، على نقيض ما حدث للمسيحية، فلما كانت الكنيسة تمقت الدماء، "ecclisia abhorreta sanguine" متأثرة بما قيل عن الدم المسفوح للمسيح عند صلبه، فإن العقوبة المقررة أصبحت الإحراق.. فكانت الكنيسة تسلم المدان إلى السلطان المدنية لإعدامه بشرط ألا يسفك دمه! وكان معنى هذا الحرق. وهذا هو سر تلك المواكب الرهيبة التي سيق فيها المخالفون والملحدون زمرًا إلى المحرقة وأطلق عليها مواكب الإيمان auts de fe واستمرت من سنة 1481 حتى سنة 1813 في إسبانيا.

وقد أثار موضوع عذاب النار في نفوس بعض الفقهاء القدامى ما يثيره في نفوس بعض المحدثين، فارتأى معظمهم أنه لن يخلد في النار أحد من المسلمين – وتضمنت بعض الأحاديث وصفًا لآخر من يخرج من النار ويدخل الجنة، فضلاً عن أحاديث عديدة عن إخراج مئات الألوف برحمة الله. وأهم من هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من فناء النار نفسها. وفي تفسير الآية ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.. ﴾ قال الشيخ محمد مصطفى المراغي "الأول: السابق في الوجود على جميع الموجودات.

والآخر: الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات. أما أنه أول بهذا المعنى فأمره ظاهر، لأنه واجب الوجود، وجوده مقتضى بذاته، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالك في ذاته يحتاج في وجوده إلى إشراق الوجود الحق. وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق، وأكثر العلماء على خلافه، فمن الناس من ذهب إلى أن كل شيء يفنى ويبقى الله وحده ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ،﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ والله تعالى يوصل الثواب إلى أهل الثواب، والعقاب إلى أهل العقاب، ثم تفنى الجنة وأهلها، والنار وأهلها، والعرش والكرسي، والملك والفلك، ولا يبقى مع الله شيء أبدًا، ولا يعيد بعد ذلك شيئًا أبدًا، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه أبد الآباد. وهذا المذهب، إن صح هو تفسير الآخر. ومن الناس من جرى على هذا الرأي وخالف في الإعادة، فقال إن الله بعد أن يفني كل شيء ويبقى وحده، وبذلك يكون آخر يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها أبدًا، وقالوا: مما لا شبهة فيه إمكان بقاء العالم وهناك إجماع من المسلمين على أبدية الجنة والنار، فالآخرية التي وصف بها الله نفسه لا تتحقق
إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا. وأبدية الجنة والنار مجمع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها، والنار وأهلها، وبقي الكل بعد ذلك أبد الآباد"([76]).

وجاء في رسالة "العصمة من الضلال" للعلامة الجلال إن الموصل إلى النار هو الشرك لا غير، وقال الجمهور بل وغيره من المخالفات على اتفاق الجميع على جواز العفو عقلاً قيل وشرعًا، كما صرح به قول إبراهيم عليه السلام "ومن عصاني فإنك أنت العزيز الحكيم". وقول عيسى عليه السلام "... وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم". وقول سيدنا محمد ﷺ "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"([77]).

---

[75] **(?) كتاب مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي – المكتب الإسلامي بيروت تحقيق الألباني ج2 ص 735.**

[76] **(?) الشيخ محمد مصطفى المراغي – حديث رمضان – كتاب الهلال – دار الهلال – نوفمبر 1970 – ص 158 – 159..**

[77] **(?) انظر هذه الرسالة وهي الثالثة في مجموعة الصنعاني الرسائل اليمنية المطبوعة بالقاهرة – دار الطباعة المنيرية ص – 21 – والجلال مؤلفها هو الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال الحسني اليمني المتوفى بجران صنعاء سنة**

نقول إن هذه الفقرة التي يمر عليها سراعًا الفقهاء تتضمن الكثير. إن ثلاثة من أولي العزم من الرسل يبتهلون إلى الله تعالى العفو عن المخالفين لهم. فما أبعد ذلك عن أقوال الفقهاء وتأكيدهم، إن المشركين لا بد وأن يقذف بهم في النار. حقًا لقد جاء في القرآن آيات مثل ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾.. ولكن هناك أضعاف هذه الآية عن رحمة "تسع كل شيء" وتمحو الذنوب جميعًا.

واستطرد العلامة الجلال فأورد إشارة من قال من الفقهاء بفناء النار "لأنها من عالم الفساد دون الجنة، إذ هي من رحمة الله، كما أطبق عليه المفسرون في قوله تعالى ﴿ففي رحمة الله هم خالدون﴾، والرحمة لا تفنى، فإذا رد عليهم ذلك بآيات الخلود والتأبيد، قيل إنما المقصود بها هو اللبث الطويل[78] ولا ينطبق هذا على الجنة لأن الله تعالى يقول "عطاء غير مجذوذ"، وهو خبر لا يكذب[79].

ولعلنا اليوم أقدر على تفهم معنى الخلود بعد الدراسات الجديدة عن الزمن، والنقص الرئيسي في فهمنا لمعنى الخلود يعود إلى أننا نحكم بمفاهيمنا "الأرضية" على العوالم الأخرى – في حين أن هذه العوالم الأخرى لا تنطبق عليها الأوضاع الخاصة بالكرة الأرضية. وطبيعي أن تتغير عندما تبدل الأرض غير الأرض، والسماوات، فنحن نحكم على الزمن بدورة الأرض حول نفسها، وحول الشمس، ولكن الأمر يختلف حيث لا شمس ولا أرض. وقد أمكن للعلم الحديث أن يلقي إطلالة على "ما فوق الفضاء" حيث ينتفي البعد الرابع – أي الزمن – فلا يصبح هناك ماض ولا مستقبل، وإنما هو حاضر أبدي فالخلود ممكن بمقتضى أبحاث "ما فوق الفضاء". ولكن هذا الخلود لا يأخذ الشكل الذي يفهمه إنسان الكوكب الأرضي.

***

وأخيرًا جدًا فقد يسأل بعض الناس "أين هي النار، وأين هي الجنة؟".

من السهل أن نقول لهذا السائل إن النار قد تكون أقرب إليه مما يتصور، وأنه قد يكون واقفًا عليها !! ولو أنه حفر في باطن الأرض لعمق أربعين كيلو مترا لوجد النار التي وقودها الحجارة ولا ينقصها إلا هو ليكون وقودها الناس والحجارة !! فنحن إذا جاوزنا "القشرة" الأرضية، وهي في حدود عمق أربعين كيلو، وجدنا باطن الأرض أتونا ملتهبًا تندلع فيه النيران التي تذيب المعادن والصخور. وهو جحيم حقيقي نسير فوقه.. وتنبسط فوقه المحيطات بملايين الملايين من أطنان الماء وآلاف البواخر التي تمخرها.. وتحت هذا كله النار.

وليس معنى هذا أن النار التي جاء ذكرها في القرآن هي باطن الأرض، وإن كان باطن الأرض يصلح جحيمًا يسع المجرمين من البشرية منذ أن وجدت، ولكننا نريد فحسب أن نضرب المثل بمدى المفارقة.. وكيف أن هذا التساؤل هو مما لا محل له.. ففي الكون مليارات الكواكب التي لم تكشف عنها البشرية، ولن تستطيع أن تكشف عنها، لأن الكون يتمدد بأسرع مما يمكن لأي اتصال، وفي أي كوكب من هذه الكواكب يمكن أن تجد الجنة والنار.. ومن ذا يستطيع أن يثبت كذب هذا الكلام.. وانفساح الكون ووجود ملايين أو مليارات من الكواكب تسمح بوجود عشرات من صور الحياة التي تختلف عن حياتنا.. فأين الجنة؟؟.. وأين النار؟.. سؤال سخيف لا محل له..

1084 بتعليقات الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني.

[78] **(?) إن استخدام "التأبيد" بمعنى المكوث الطويل ليس مستنكرًا. وهم يطلقون على من يحكم عليه بخمسة وعشرين عامًا سجنًا السجن المؤبد أو أنه (عوقب بتأبيدة).**

[79] **(?) انظر هذه الرسالة وهي الثالثة في مجموعة الصنعاني الرسائل اليمنية المطبوعة بالقاهرة – دار الطباعة المنيرية ص – 21 – والجلال مؤلفها هو الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال الحسني اليمني المتوفي بجران صنعاء سنة 1084 بتعليقات الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني**

الفصل العاشر
القضية الرابعة: إنكار النبوات

إنكار النبوات هي آخر وأهون ما تطرحه العقلانية على الأديان، وإنكارها عادة ما ينصَّب على نقطة "الوحي"، أي تلك العلاقة التي لا تفهمها العقلانية بين النبي والله، والتي بها يتلقى النبي رسالته من الله تعالى.

والعقلانيون يكادون يجمعون على أن الأنبياء أفذاذ، عظماء، موهوبون وأنهم يمثلون نمطًا فريدًا من القادة والهداة وهم لا يرمون الأنبياء بالكذب أو الادعاء، فلا يمكن أن يصل إلى ذروة السيادة ويكتسب الاحترام والتوقير، على مر الأجيال دعي أو كاذب ولكنهم يرون أن إيمان الأنبياء بدعوتهم، كان من القوة والهيمنة، بحيث جعلهم في حالة نفسية يؤمنون معها أن رسالتهم من الله فصدقوا بها على هذا الأساس، فهم صادقون فيما بينهم وبين أنفسهم. ولكن هذا لا يعني – فيما يرون – أن يكون هذا صحيحًا من الناحية الحقيقية.

وأغلب الظن أن جحود العقلانية لنبوات الأنبياء إنما جاء من نكرانها لوجود الله، لأنها إذا كانت تجحد الأصل، فجحدها للفرع طبيعي ومتوقع، ولكنها لو آمنت بالله، فلن يكون هناك ما يمكن أن ترفضه في وجود وحي، بل لكان هذا هو الأقرب إلى المنطق والعقل إذ افتراض عناية الله تعالى بمخلوقاته أقرب إلى المنطق من إهماله لها. ومن ثم فيفترض أن يكون ثمة علاقة من نوع ما.

الوحي:

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة "وحي" ومشتقاتها في عدد من الاستخدامات لا تنم بالضرورة على وجود أداة أو قناة استثنائية للوحي، فجاء:

 وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا (68 النحل)

 يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (أي الأرض). (4-5 الزلزلة)

كما جاء التعبير بالنسبة لأم موسى وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ (7 القصص)

واستخدم القرآن التعبير بالنسبة للشياطين وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121 الأنعام)

 وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112 الأنعام)

فالقرآن الكريم يستخدم كلمة وحي بمعنيين: الأول: المعنى اللغوي العام للكلمة الذي لا يتطلب وجود واسطة استثنائية معينة، والثاني: عندما يشير إلى واسطة خاصة يمكن في بعض الأحيان أن تكون مرئية، حتى وإن لم تكن معروفة للآخرين، إذ تتقمص صورة رجل من عامة الناس. والقرآن يقصد بهذه الواسطة – ناقل الوحي من الله إلى رسوله "جبريل". وقد ذكر في القرآن باسمه ثلاث مرات.

 قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ* مَن كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (98 – 97 البقرة).

 وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ (4 التحريم)

وليس في هذه الآيات – باستثناء الأولى، ما يشير إلى وظيفة جبريل في تبليغ رسالة الله إلى النبي، وإن جاءت آيات بهذا المعنى دون أن تشير إلى جبريل بالاسم.

والآثار المروية عن الرسول ﷺ، يصور معظمها نزول الوحي على الرسول، وهو في مجلسه، وبين الصحابة بحالة نفسية معينة قد تصطحب بعرق غزير، تستغرق الرسول للحظات، ووردت آثار قليلة عن جبريل عندما جاء إلى الرسول وهو في ملأ من أصحابه في هيئة رجل لا يرى عليه أثر السفر.

فليس في هذه الآيات والآثار ما يتنافى وأصول العقلانية فإن جبريل جاء في هيئة رجل من عامة الناس، دون أن يظهر في هيئته النورانية الملائكية، لأن القرآن نفسه سفه رغبة المشركين في أن ينزل الله ملائكة على الأرض يكلمونهم...

وعلى كل حال فإن نزول وحي من السماء، يحمله أحد الملائكة هو أمر لا تستطيع العقلانية أن تثبت بطلانه، حتى وإن عجزت عن فهمه بوسائل وأدوات بحثها الخاص...

***

إن الدليل الأعظم على صدق الأنبياء أن حياتهم كلها، وأفعالهم كلها، كانت مصداق دعواتهم، وهو دليل يفترض أن يتقبله العقل أكثر من غيره، فقد كان الأنبياء نماذج للخلق الكريم والصدق والأمانة والشجاعة والمروءة، ولم يعرف عن أي واحد منهم كذبًا أو نفاقًا ولم يستهدف أي واحد منهم منصبًا أو ما لا أو ثروة أو جاهًا، بل ضحوا بما يملكون، وتعرضوا للاضطهاد من ناحية، والإغراء من ناحية أخرى فصمدوا للاضطهاد ورفضوا الإغراء.

والدعوات التي دعوا إليها هي أعظم العوامل في هداية المجتمع الإنساني، وهي التي أعطته القيم الحضارية التي تميزه، فالمسألة ليست أن حياتهم ودعواتهم، ظاهرهم وباطنهم، سرهم وعلنهم واحد، إنه أيضًا أن الدعوات التي دعوا إليها كانت أفضل وأثمن ما تعتز به البشرية.

دور النبوات في التاريخ ومنزلة الأنبياء:

لقد قال الشيوعيون "إن الذين أفيون الشعوب" فما أكذب هذه الدعوى... فمن حرك جماهير اليهود المستعبدين في إسار الفرعونية.. ومن دفع بالجماهير لمجابهة الجبروت الروماني الذي أخضع العالم.. ومن زود القبائل العربية بالشجاعة والقوة كي تطيح بالإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. إن الثورات التي كانت العقلانية وراءها لا يمكن أن تقاس بهذه الثورات الجماهيرية الثلاث في الحجم ولا في الأثر، ولا الأسلوب الذي أديت به.

ومن الذي غرس في النفس الإنسانية "الضمير" والوعي بالخير والشر والإقبال على الأول والعزوف عن الثاني..

ومن الذي أعطى البشرية قيم المساواة والسماحة، وحطم الفوارق الطبقية بين الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء.. الحكام والمحكومين، أليست الأديان هي التي وضعتها أول مرة.. وحافظت عليها، ووصلت بها إلى أبعد مما وصل إليه "إعلان حقوق الإنسان".

نحن لا ننكر أن الأديان استغلت، وأن الأحبار والسدنة والفقهاء في كل دين تقريبًا استخدموا الأديان لمآربهم الخاصة على حساب الجماهير. ولكن هذه الواقعة يجب ألا تحسب على الأديان نفسها، ولكن على الذين أعطوا أنفسهم حق العمل والحديث باسم الأديان.. شأنهم في هذا شأن الساسة الذين يسيئون استخدام الديمقراطية والحرية، فلا تعد إساءتهم نقصًا في الديمقراطية، وحتى لو وضعت هذه النقيصة – أي استغلال رجال الدين – في كفة الأديان فإن حسنات الأديان في الكفة الأخرى ترجحها. وتجعل الحصيلة النهائية في صالح الأديان.. لأن الأديان زودت الجماهير بالهداية والطمأنينة والرضا وأشعرتهم أن لحياتهم هدفًا ورسالة.. وعرفتهم على قيم ثمينة كالحب والصفح والعدل.. فجنبتهم عقارب الشك وقوارض القلق وتمزق الضياع وحالت بينهم وبين أن يكونوا كالأنعام "يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام".

إن الإبداع الخارق للأديان، وما إتسمت به من شمول وكمال في عالم الفكر والدعوات أثبت بالإضافة إلى صدق الأنبياء أن هذه الدعوات إنما هي من الله صدقًا وحقًا. لأنها أعظم من أن يأتي بها بشر. كائنة ما كانت عبقريته وعظمته.

وكما قلنا في كتابنا "روح الإسلام". "وعندما نطلب إلى الناس الإيمان بأن محمدًا رسول موحى إليه من الله، فنحن نطلب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة...

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقادة الذين أنجبتهم البشرية أمام مآثر محمد.. لبدت الأولى ضئيلة، قميئة معيبة أمام الثانية.. فقد كان محمد نبيًا جاء بدين ناجح وسياسيًا بنى دولة ورثت الإمبراطوريات القديمة، ومشرعًا حمل قانونًا عبقريًا يشمل العقوبة الجنائية والعلاقات الشخصية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وبليغًا جاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه حجة في اللغة. وقائدًا عسكريًا مظفرًا. ومثلاً أعلى في الخلق الكريم، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وأربعمائة عام حتى الآن يتردد خمس مرات كل يوم في أربعة أركان العالم كلما أذن لصلاة. ولا يزال مثواه الأخير علمًا منورًا يهرع إليه المؤمنون من أقطار الأرض يحدوهم الشوق لكي يقفوا بين يديه في تلك البقعة التي هي في الأرض "روضة" من رياض الجنة.

من ذا يسامي هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة.

لقد كان الإسكندر فاتحًا عسكريًا مظفرًا، وتتلمذ على يد أعجوبة البشرية "أرسطو"، ولكنه لم يكن المشرع ولم يكن النبي، وما أكثر ما غلبته انفعالاته وورطته في منكرات وآثام.

وكان أعجوبة البشرية "أرسطو" فريدًا في الفلسفة والمنطق والآداب والعلوم، ولكنه لم يكن رجل الدولة ولا رجل الدين.. ولا القائد العسكري.

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسة وأدب وقائدًا منتصرًا، ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع، وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة... وامرأة كل رجل!!.

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائدًا عسكريًا، ومشرعًا، ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغة والأدب أو المثل الأعلى في الأخلاق.

وكان كل من "شكسبير" و "جوته" علمًا من أعلام الأدب والشعر والمسرح ولكنهما كانا أصفارًا في السياسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية.

إن الشخصية الباهرة والخارقة للرسول العربي قد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها ".. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر... ما تركته".

فهل كان يملك الإسكندر، أرقى ثمرة للثقافة الهلينية وتلميذ أرسطو أن يقول شيئًا كهذا.

أي قائد أو ملك أو إمبراطور أو نبي في العالم يستطيع أن يقول كما قال "محمد" عن أصحابه: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم.. اهتديتم".

وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيل كما ظفر الصحابة؟ إن مجد محمد الذي انعكس عليهم امتد إلى أصحابهم فقيل لهم "التابعون" وإلى أصحاب هؤلاء التابعين فقيل "تابعو التابعين...".

أي جنود معركة نالوا مثل "الوسام" الذي منحه محمد لجند بدر "إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال "افعلوا ما شئتم".

أي بشر يصل به الاعتداد وتملك قيادة البلاغة وقوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه "لو كنتم في أهلكم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة".

وكل هذا...

يصدر من عربي أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم على يد فيلسوف...

فإذا لم يكن هذا وحيًا، وإذا لم يكن محمد نبيًا، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كما كان يرى اليونان والرومان – إلهًا أو نصف إله([80]).

***

وما يقال على الرسول العربي العظيم، يمكن أن يقال بصورة متفاوتة على موسى.. وعيسى.

فلو لم يكن موسى نبيًا لأصبح أحد أمراء القصر الفرعوني، ولوجد في هذا وهو سليل الإسرائيليين المستعبدين ما يرضيه، وما يشعره الزهو والامتياز، وكان يمكن أن يرفض هذا دون أن تكون له دعوة يوجهها إلى فرعون، ولكنه رفض النعيم الفرعوني، ولم يقتصر على تحرير اليهود من إسار العبودية بل وجه دعوته للإيمان بالله إلى فرعون نفسه وكان له مندوحة عن ذلك لو لم يكن نبيًا...

وكانت دعوة المسيح ثورة على الأحبار الذين قدسوا النصوص والطقوس والشكليات، وضحوا في سبيلها بالروح والجوهر والإنسان.. قدر ما كان ثورة على الجبروت الروماني.. فكيف أمكن لهذا الرسول الذي تصور أعداؤه أنهم صلبوه أن يزلزل قوائم الإمبراطورية الرومانية، وأن تصبح دعوته شعاعًا إلهيًا ونورًا ربانيًا وسط المجتمع الأوربي الوثني. وما تحفل به حضارة العصر من مادية واستمتاع...

****

والوحي في الحقيقة يحل لنا عددًا من المشكلات لا يمكن حلها إلا به. فإن المناطقة والفلاسفة استطاعوا التوصل إلى ضرورة وجود الله باعتباره "واجب الوجود"، ولكن وسائلهم في البحث عجزت عن أن تضفي على الله تعالى صفات الحياة، والحكمة.. إلخ، وكان لا بد أن يتم ذلك عن طريق الوحي...

وفي القضية الجدلية حول دور الفرد في التاريخ، وهل البطل هو الذي يصنع تاريخ مجتمع ما.. أو أن ظروف المجتمع هي التي تصنع البطل، يقدم لنا "الوحي" حلاً تعادليًا، فالرسول الذي يمثل البطل، والذات هو نفسه "حامل" الموضوع والمعبر عن المجتمع. وهو على خلاف الأبطال التقليديين الذين ينسبون إلى أشخاصهم، أو ينسب إليهم أنصارهم، الدور الفعال في التأثير التاريخي لا يدعي لنفسه أو لملكاته الخاصة شيئًا، بل إنه ما كان يدري "ما الكتاب ولا الإيمان... " ودوره هو كما يتضح من اسمه – أنه رسول يحمل رسالة... ولكن هذه الرسالة ليست هي العوامل الموضوعية، أو الاجتماعية وقوى الإنتاج كما يتصور ذلك الاشتراكيون، ولكنها الظروف والعوامل كما ينبغي أن تكون لا كما هي كائنة بالفعل، لأنها لو كانت وحدها وكما هي التي تفرز البطل، لما كان هناك تقدم، والفرد باعتباره ابن المجتمع، لا يمكن أن يزيد عن هذا المجتمع، فلا يكون هناك تقدم، فلا بد من مصدر جديد: من الوحي.

إن إبعاد الأديان عن عالم الفكر الحي وإبعاد الأنبياء عن عالم التاريخ كان أكبر أسباب شقاء البشرية، وضياع الإنسان المعاصر.. ولك أن تتصور مدى ما كان يمكن أن يحدث من تغيير للصورة لو درست الأديان دراسة رشيدة، إلى جانب دراسات الأفكار الأخرى، ولو درست شخصيات وتاريخ موسى وعيسى ومحمد، وليس الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون.

وفي رسالتنا الموجزة "العهد" وجهنا الدعوة "لنجعل الأنبياء قادتنا وقدوتنا ولنطرح الإعجاب بالطغاة الذين جعلوا سياستهم الاستعلاء في الأرض". وقلنا في إيضاح ذلك: "يظهر استعراض التاريخ السياسي للبشرية أنها خضعت لقادة وحكام كانت وسيلتهم هي القوة الباطشة، وكان هدفهم هو الاستعلاء في الأرض، وأبرز الأمثلة على ذلك قادة الإمبراطورية الرومانية، ثم قادة الدول الأوربية التي تأثرت عميقًا بالإمبراطورية الرومانية ونسجت على منوالها.

---

[80] **(?) روح الإسلام – جمال البنا – ص 121 – 122.**

ونعتقد أن من أكبر العوامل التي أدت إلى فساد الفكر السياسي إبراز الملوك والأباطرة والطغاة والقادة العسكريين... وإغفال الأنبياء.. وأتباعهم من حواريين أو صحابة، لأن إعجاب الطبقة المثقفة والحاكمة في أوربا بالحضارة الرومانية واليونانية وأبطالها الوحشيين الإسكندر – قيصر – أوغسطس – وغيرهم هو الذي مهد السبيل لظهور ميكافيللي وتقبل فصله الحاد ما بين السياسة والقيم الخلقية، وأدى إلى ظهور نابليون، ولينين وهتلر وموسوليني وستالين وأمثالهم، ثم هو الذي سمح بوجود آدم سميث وكارل ماركس وعزلهما الاقتصاد وإبعاده عما ينبغي له من خدمة المجتمع وأدى إلى ظهور الرأسمالية والشيوعية، وطغيان المقوم المادي في المجتمع على بقية المقومات. والوضع السليم يقتضي إبراز هؤلاء الملوك والأباطرة على حقيقتهم طغاة استعبدوا الجماهير ووضعوا سياسة الاستعلاء في الأرض وجعل القوة والخداع وسائلهم لتدعيم سلطانهم، وإبراز الأنبياء باعتبارهم القادة الذين قاوموا هذا الطغيان ووضعوا الحق في مواجهة القوة، المبدئية في مقابل الانتهازية، وأرسوا مبدأ كرامة النفس الإنسانية وقداستها ونجحوا بدرجات متفاوتة في إنقاذ البشرية من حكم الطغاة وسلطان الظلام. وهذا هو النهج الذي رسمه القرآن عندما وضع موسى في مواجهة فرعون، وعندما جعل الرسالات السماوية هي محاور التاريخ، والرسل والأنبياء هم قادة الجماهير.

وكان واجبًا أن تتضمن مناهج التاريخ التي تدرس في المدارس والجامعات على اختلافها تاريخ الأديان وحياة الأنبياء جنبًا إلى جنب – إن لم يكن قبل – تاريخ التقلبات السياسية وحياة العسكريين والملوك والمعارك الحربية"([81]).

***

وبعد، فإن إنكار النبوات هو أو هي ما تثيره العقلانية في مواجهة الأديان، لأن تميز النبوات على بقية الدعوات والحركات وتفوق الأنبياء على القادة والفلاسفة والمفكرين يتطلب "الوحي" كحل وحيد لهذا التميز الذي لم يسبق، أو يلحق للأديان والأنبياء.

---

81 **(?) رسالة العهد: رسائل الإتحاد الإسلامي الدولي للعمل صفحة 17، 18.**